@ketab_n
Follow Me
30.8.2015

فرانسوا جارد

الأكاليد الثلاثة

ترجمة: بشرى أبو قاسم

رواية

دار نينوى
للدراسات والنشر والتوزيع

فرانسوا جارد

الأكاليل الثلاثة

ترجمة
بشرى أبو قاسم

Twitter: @ketab_n

عنوان الكتـــاب: الأكاليل الثلاثة
اســم المؤلـــف: فرانسوا جارد
اســم المترجـم: بشرى أبو قاسم
المـوضـــــــوع: رواية
عدد الصفحات: 264 ص
القيـــــــاس: 14.5 × 21.5 سم
الطبعـــة الأولى: 1000 / 2015 م - 1436 هـ
ISBN: 978-9933-509-91-0

© جميع الحقوق محفوظة لدار نينوى
بموجب العقد المبرم مع الناشر
الفرنسي - غاليمار / 2013
Copyright ninawa

دار نينوى
للدراسات والنشر والتوزيع

سورية . دمشق . ص ب 4650
تلفاكس: 2314511 11 963+
هاتـــف: 2326985 11 963+
E-mail: info@ninawa.org - ninawa@scs-net.org
www.ninawa.org
دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع
Ayman ghazaly

العمليات الفنية:
التنضيد والتدقيق والإخراج والطباعة - القسم الفني: دار نينوى

لا يجوز نقل أو اقتباس، أو ترجمة، أي جزء من هذا الكتاب،
بأي وسيلة كانت من دون إذن خطي مسبق من الناشر.

Twitter: @ketab_n

العنوان الأصلي للكتاب

POUR TROISCOURONNES

Gallimard

فرانسوا جارد

François GARDE

كاتب فرنسي ولد عام ١٩٥٩ في كاني.

وهو من كبار الموظفين الفرنسيين، تولى منصب السكرتير العام في حكومة «كاليدوني الجديدة» وهو الآن مساعد رئيس المحكمة الإدارية في ديجون، يقيم في باسي في سافواي التي تهبه الإلهام والوقت للكتابة.

حازت روايته الأولى «ماذا جرى للمتوحش الأبيض» المستوحاة من قصة حقيقية على ثمانية جوائز عالمية من بينها جائزة جونكور للرواية الأولى لعام ٢٠١٢.

Twitter: @ketab_n

المقدمة

فيليب زافار "قيّم على الوثائق الخاصة" مهنة اخترعها وسنّ شروطها تقوم على ترتيب أوراق ووثائق من يتوفاهم الله. بين أوراق أحد موكليه "توماس كولبيرت" يقع على نص غريب كأنه خارطة كنزٍ، تكلفه أرملة الفقيد بسبر أغوار هذا النص الغامض وتَقَفّي أثر زوجها. يقوده البحث عبر القارات إلى جزيرةٍ استوائية خيالية "بورغ-تاباج" حيث يفتق عرى حقائق شوهتها الشعارات وابتلعتها الحرب التي طحنت السلام ودبت الرعب والريبة في قلوب سكانها الذين ماعهدوا سوى الألفة والهناء. تُعْرَضُ قضية هذه الجزيرة التي ظلت منسيةً بأمانها دهراً وفضحت الحرب الشعواء أسرارها على طاولة الحوار في مجلس الأمن الذي يرسل قواته لإحلال السلام وطرح حوارٍ وطني شاملٍ فرضه الغريب بين الأخوة الذين بث الحقد الفرقة فيما بينهم وعبث بما ضفرته الأيام بينهم من ذكريات.

"بنجامان توبيا" مؤسس حزب "حماية سكان الجزيرة"، أودت عبوةٌ مزروعة أسفل سيارته بحياته وبأمان الجزيرة يكتشف "فيليب زافار" عبر تحقيقاته أنه ليس ابن "روبرت توبيا" بل ابن "توماس كولبيرت" لكن كشف سرٍ كهذا يقذف الجزيرة التي تماثلت حديثاً للشفاء في غياهب حربٍ أهلية تُحدد بدايتها وتبقى نهايتها بين فكي المجهول. على طاولة الحوارات وفي المجالس السياسية تركل تلك المشاعر التي تتملك شعباً في "بورغ-تاباج" يرزح تحت وطأة أحداث اندلعت بالشعارات الطنانة والمرافعات البطولية مستغلةً انفعالات الناس البسيطة وحب الوطن الذي يعيش فينا كما نعيش فيه. يسلط "فرانسوا غارد" الضوء على كل ما يهمله التاريخ ويستغله السياسيون من مشاعر الناس: "*لم أجد في هذه اللوحة التي قدمها غضون لوسين اليزابيث ولا مرارة جاكلين سيرول ولا مشاعر الأسف والتفاؤل التي لمستها عند فريدريك،ما خفق قلبي إلا لتلك الذكريات التي لملمتها*".

لن نسمع حكاية هذه الجزيرة من ألسنة الصحافة ولا من أقلام الإعلاميين التي تَنْخُبُ ما يروقُ لمصالحها بل سنسمعها ممن شهدوها وتلقوا

Twitter: @ketab_n

حممها: "إننا نحل السلام وإنها عمليةً أكثر غموضاً ويلزمها وقتٌ أطول مما يقول زملاؤك الصحفيون المزعومون، لا لأن النار كامنة تحت الرماد بل لأن الهدم والحصار أسهل من البناء والتقدم." تتحدى الشعوب كوارث السياسة بعزيمةٍ وتعاون لم يعهدوه بأنفسهم فتتحدى إرادة الحياة الفرقة والقتل: " هل لفت هذا الجنون انتباهك؟ أن تخرج مساء وأنت تتأبط قطعة موسيقية لا مناشير ولا سلاح. عندما تتكلم الأسلحة لا تهم دقة علامة الخفض في الجوقة أو النبرة في الإيقاع الثاني للضبط الخامس."

توقظ هذه الحكاية ذكرياته كمهاجرٍ لبناني إلى كاليفورنيا فيعيد تشكيله ذاك الحنين القوي لوطن الطفولة الذي لايفارقنا أبداً لنبقى بسحره أطفالاً في الوطن نتعطر بترابه حتى لو طال الفراق.

تبدو الرواية للوهلة الأولى رواية مغامرة ولكن مع أمواج الشك التي تتقاذفنا على شواطئ بلاغة "فرانسوا غارد" سنواجه تساؤلات تدفعنا لإعادة التفكير بالانتماء فهل هو روابط دمٍ تحيكنا مع نسيجٍ هو الوطن ، تضرب فيه جذورنا ليكون السلف والخلف أوتاداً تشبثنا بأرضنا أم هو حاضنٌ اجتماعي وإنساني وحضاري يدفعنا لتجاوز أحقادنا وثأرنا لما هو أكبر من مصالحنا الشخصية نحو الانتماء الإنساني كوعاءٍ حاويٍ للجميع.

هل يشتري المال كل شيء أم أنه يرضخ للمفاهيم الإنسانية ليكون أول خيارٍ نلغيه في مواجهتها . أليس الإرث سبباً في دمار البشرية حسب نظريات "لودويغ فون ستودير" أم أنه ضمانٌ للاستمرار عبر جسر الأبناء: "تصبح رجلاً كاملاً وامرأة كاملة حين ترزق بطفلٍ من صلبك ويبكي بين أحضانك لضمان سلسلة فيها والديك من طرف وأبناؤك من الطرف الآخر.... جعلني فقدان والديٍ رجلاً على حافة الهاوية"

ليجول في خاطرنا في النهاية قول الكاتب الانكليزي "ألدوس هوكسلي": تدفعنا الفلسفة للشك بما هو بديهي بينما يجعل الإعلام ما هو غير منطقي قابلاً للتصديق".

المترجمة

Twitter: @ketab_n

الجزء الأول

قيِّمٌ على الوثائق الخاصة

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

- ١ -

كان عمري ثلاثة وعشرين عاماً تقريباً . حدثني رجلٌ حول أمورٍ تافهة، آخر يوم للرسو في حانةٍ قرب الميناء، ثم سألني إن كنت أرغب بكسبٍ ما تيسّر من المال.

سألته بدهشة لا بل بشيءٍ من الريبة عمّا يجب أن أفعل من أجل ذلك. لو أنه باح بكل ما في جعبته دفعةً واحدة لما صدقته بل لخلت أنه مجنون، بيد أنه حاذقٌ وما كشف النقاب عن عرضه إلا بلمساتٍ بسيطة. تمكنت بأسئلتي من دفعه ليقدم عرضه كما لو أنه عقدٌ شريف.

قدّم لي كأس جعة، احتسيته ببطء بينما تابع هو شكره وشرحه، بدا كل هذا غامضاً ومُشوّشاً، تعيق نواياه فهمي. تابع حديثه ليسمح لي بفهم ما ينتظر مني. بلحظة أضاف: "هل نذهب؟" فدوَّت هذه الجملة كدعوةٍ بل كأمرٍ ، أجبت "نعم سيدي" . تبعته حوالي عشر دقائق نحو المدينة العالية، لم أسر بحذائه بل بضع خطى خلفه. كان بوسعي أن أشق طريقي بنفسي، إلا أنني ما خشَيت أي صدمة سيئة كما أن ليس لدي ما أفقده وبقيت ممزقاً بين الفضول والحيرة، تتناوب داخلي ضحكةٌ مجنونة وبعضاً من الذل ممزوجاً مع نوعٍ من الوقار المبهم.

دخل إلى منزلٍ عادي وصعد إلى الطابق العلوي ، فتح الباب ليدخل غرفة استقبالٍ مفروشة بما تيسر من أثاث وانضم لرجلٍ آخر يرتدي زياً أنيقاً مثله، تحدثا عني بصوتٍ خفيض.

قال لي الرجل الذي صادفني في الطريق:

"أما زلت موافقاً على ما أنت مقدمٌ عليه؟"

- نعم سيدي.

- تعالَ معي."

Twitter: @ketab_n

اصطحبني إلى غرفةٍ أخرى.

"أنا طبيب ويجب أن أجري بعض الفحوصات، هل تفهم؟

- نعم سيدي.

- اخلع ملابسك، يمكنك أن تبقي قميص البحارة" .

خلعت سترتي ووضعتها على كرسي ثم خلعت حذائي وسروالي وبعد أن أومأ لي بحركةٍ خلعت سروالي الداخلي. ها أنا عارٍ لم أبقِ إلا على الجوارب وقميص البحارة ، يتفاقم داخلي شعور بالضيق. انتظرت.

- "هل الصحة بخيرٍ أيها الفتى؟

- نعم سيدي.

- لم أرَ شيئاً غير عادي أو مثيراً للقلق، هل ستتمكن من...

- نعم سيدي."

أشار إلى الباب المقابل لباب غرفة الاستقبال، عبرت الباب وأغلقت خلفي.

وجدت نفسي في غرفةٍ بستائر مغلقة. تمددت امرأة في فراشٍ من الخشب الغامق تحت الغطاء. يغطي وجهها خمارٌ من الدانتيل الأسود يتخلله نسيج بنفسجي، أنفاسها هادئة ولم تنبس بكلمة.

رفعت الغطاء واندسست في الفراش ثم تحسست حرارة ساقيها قرب ساقاي. لم تكن ترتدي سوى رداءً نسائياً خفيفاً لا يغطي سوى القليل من جسدها، أظن أنها بالثلاثينات من العمر. لم تؤتِ بأي حركةٍ حين أمسكت بيدها ولا عندما بدأت أداعبها.

داعبت نهديها وكتفيها وشعرها الأسود، بثَّ سكونها الرعشة في جسدي إلا أنني تأثرت بهذه المداعبات التي لم تشاركني بها وبرقّة بشرتها وبعطرها الخفيف. لا يجدر بي لا رفع خمارها ولا تقبيلها، لابد أنهم يراقبونني.

Twitter: @ketab_n

وقع اختيارهم على بحارٍ قوي البنية لهذه المهمة السريعة والفعّالة والسريّة، حققوا ذلك.

التصقت بها، شعرت للحظة أنها باعدت ساقيها، أغمضت عيني وكززت أسناني دون أن أضغط نفسي، بذلت جهدي لأقوم بالمهمة التي اخترت لها على أتم وجه وحاولت رغم كل شيء أن تحتفظ بذكرى طيبةٍ من لقاءنا.

أطلقت صرخةً معلناً النهاية ففتح الباب وأشار إليَّ بالمجيء فوراً. فتركت الفراش ببطء وألقيت نظرةً أخيرة على الوجه ذي الخمار وخرجت من الغرفة.

رغب الطبيب بفحصي مرة أخرى، لاحظت بضيقٍ كبير أن صاحبه يتحقق من نتائج عملي. لمح اضطرابي فقال:

"هيا أيها الفتى في هذه الظروف لا حاجة للحشمة".

فك ارتباطي بحركة فارتديت ملابسي.

أعطاني الرجل الذي لم يتفوّه بكلمة، ثلاثة أكاليل ذهبية وبرجٍّ بالمقلوب.

رافقني الطبيب حتى العتبة وأذن لي بالانصراف كما يلي:

"لقد ضربت ضربتك وحصلت على أجرك، ستغادر غداً على متن قاربك جعبتك فارغة، لقد نسيت كل ما رأيت وكل ما فعلت، فهمت؟

- حسناً سيدي".

أُغلق الباب.

أعدتُ هذا النص لعدّة مرات، وضعته على الطاولة وفتحت النوافذ المطلّة على الحديقة لأفكّر، لا يتخلل المخطوط أي شطبٍ. نُقل بعناية من مسودته، يسرد ذكرى يبدو أنها قديمة. مهما كان يروي ومهما بدا صادماً إلا أنه يحمل بين طياته وعداً ومغامرةً، إنه يثير القلق.

Twitter: @ketab_n

كنت أرتب ذاك الصباح أوراق الموكل ١٠٦ فعثرت في قعر أحد الدروج على هذا المشهد الغريب في ميناءٍ مجهول.

"رسوٌ موجز وطرقات تصل إلى أعلى المدينة..."

ماذا علي أن أقول للأرملة؟ لا أعرف الشيء الكثير عن المرحوم: توماس كولبيرت، فرنسيٌ يقيم في الولايات المتحدة منذ زمنٍ بعيد، يترأس مجموعة شركات – S.T.C – أي شركات توماس كولبيرت المتخصصة بالمجال البحري بشكل أساسي. لابد أن هذا النص مكتوبٌ بخط يده فهو يشبه تماماً الخط المكتوب في الملفات الأخرى التافهة والتي ما عثرت على غيرها حتى الآن. كيف يمكنني أن أحزر إن كان يرغب بالاحتفاظ بذكرى من شبابه أو لعلها تشبيه أو خبرٌ موجز؟..

رأت مؤسستي الصغيرة النور منذ سنتين.

اقترحتُ على صديقة في إحدى الأمسيات الخريفية أن أمدّ لها يد العون في تنسيق أوراق جدّها الذي وافته المنيّة مؤخراً. وافقت دون تردد لتنزع عن كاهلها هذه المهمة المؤلمة بالنسبة لها والمملّة لي.

أمضيتُ أسبوعاً في مكتب الجد أنظّم وأرتّب، سئمت أكوام الورق وأنا أفصل ما يمكن إتلافه عما يجب أرشفته من وثائق رسمية وعقود ورسائل خاصة وصور حفلات بالإضافة للذكريات المهمة. شكرتني صديقتي بامتنانٍ كبير. بعد عدة ايام أرسل لي عمها الابن الأكبر للمرحوم مكافأةً معتبرةً.

أدهشني المبلغ الذي قدّموه لي مقابل خمسة أيام من أعمال التصنيف مما جعلني أمعن التفكير. بغضّ النظر عن الوقت فقد قدَّرت العائلة العمل وكافأت سريّته ومنهجيته ودقّته بل وبشكل خاص رمي انفعالاتهم المتضاربة التي تتوعد بها هذه الكومة من الأوراق في قاع المجهول. لو عثر أحد أقربائه على ذكرى من المرحوم، لخالجه حنين وعادات وكلماتٍ لم تقل وكل ذاك الشعور بالذنب الغامض الذي يكتنف متوفىً.

Twitter: @ketab_n

تشعل كل فاتورة وكل رسالة والبطاقات الصغيرة الموجودة دون سبب نار الدموع والندم والضغينة والمرارة. أما الغريب فقد تمكّن من ترتيبها ليسودها السلام. كما ضمن موظفون أشداء ومجهولون الحمام الجنائزي وقدّموا للعائلة ميتاً لائقاً كذلك عرف موظف مجهول كيف يرتّب الأوراق المبعثرة دون أن يترك للعائلة سوى الاختيارات الأساسية. ليس لدي ما أخسره، لم يشدّني لا اجتذاب الزبائن في مكتبٍ عقاري ولا الترجمة ولا المضاربة بالبورصة ولا حتى صناعة الحلي حسب الموضة. قررت أن أمتهن مهنة كنت قد اكتشفتها وأطلقت عليها عدة تسميات بدت لي ممكنة مثلاً: المؤرشف الأخير أو الموثق الجنائزي أو منسق ما بعد الموت. آثرت تعبيراً بدا لي حيادياً وطنّاناً بشكلٍ مبهم: قيِّم الوثائق الخاصة.

لم تخلُ البدايات من المصاعب بدءاً من الاستدلال على العائلات الغنية التي تعيش حالة حداد ثم محاولة الاتصال بهم وعرض الخدمة المقدمة بطريقة مقنعة للحصول على قرار. كم باءت محاولاتي بالفشل بل كم قُوبلتُ بالإهانة إلا أن ذلك لم يثنِ عزيمتي بل دفعني لتحسين آلية عملي وعروضي المقدمة.

ذاع صيت اختراعي الأول في شركة "منهاتن". انضم أحد رفاق زبوني الأول في النادي إلى مثواه في الحياة الثانية، طلبت مني عائلته موافاتهم، قلّصت أجوري. كما تعلمت كيف أرشو شركات شؤون الجنائز لإخطاري وإقحامي في الحالات المبشّرة بالخير. تضفي أصولي اللبنانية وطيف لهجتي الفرنسية لمسةً من الذوق والغرابة. بدأت العقود تتهافت الواحد تلو الآخر. لَعِب التباهي دوراً فعالاً حيث أصبح من الأناقة استدعاء قيِّم للوثائق الخاصة. ذكرت مجلةٌ رفيعة الخبر الجديد بمقالٍ مقتضب، وهكذا بدأت إيراداتي تثمر. غيّرت زيي لبزة سوداء مع قميصٍ أبيض وربطة عنقٍ سوداء وبتُ أمضي أياماً في مكاتب خاوية وحدي. عند نهاية

Twitter: @ketab_n

المهمة أقدم لأقارب المتوفى تقريراً فيه الجرد الذي أجريته وصنّفته في ملفات مرقّمة ، كان لقواعد الأدبيات التي فرضتها وقعاً قوياً . شهدت مهمتي الصغيرة تطوراً كما سجلت عقودي أسعاراً مقبولة يضاف إليها علاوةً حسب النتائج، حيث كانت المبالغ بمثابة سلوانٍ لعائلة الفقيد . تمكّنت من معالجة أمور ثلاثة زبائن بآن واحد بقليلٍ من التنظيم. بدأت أسابيع الانتظار والبطالة تتلاشى رويداً رويداً وتمكّنت من الانتقال للعيش في شقة مناسبة إلى حدٍ ما .

يا للمفاجآت التي عثرت عليها : وقعت في مكتب الزبون رقم ٢٢ وهو "قاضي فيدرالي" على ملف "تأمينات" محشو بمجلات خلاعية، لم أفكّر بالطبيعة الإنسانية ولا بالأخلاق، لم أفكّر سوى بمصلحتي، فأتلفتها جميعها بسريةٍ تامة، قالت لي ابنته لدى قراءة ملخّص المهمة: "لا شيء مميز؟" – لا أظن أنها تجهل الموضوع لكنها لم تتمكن من قراءة شيء في نظراتي البريئة حين أجبتُ: "كلا، لا شيء مميز" .

أما عند الزبون رقم ٣٧ فقد عثرت على قصائد حب رديئة بشكلٍ فظيع ، نظمها وهو في العشرين من العمر للمرأة التي أصبحت لاحقاً زوجته وعاشا معاً لنصف قرن. قطعت أعمال التصنيف وطلبت حواراً مع الأبناء. انتقيت العبارات والكلمات ثم وضعت بابتهاجٍ بين أيديهم الكنز الذي عثرت عليه، لقد بدا الاضطراب جلياً على وجوههم، كان لهذه القصائد ثواباً مجزياً .

كانت مسألة العميل رقم ٦٣ الأكثر رقة حيث تغفو في أحد الدروج خمس رسائل أرسلتها إليه عشيقته تحثّه فيها على الطلاق. والآن أصبح أبناؤه شباباً ولم يتشجع بعد مرور ثلاثين عاماً تقريباً على زواجه من إتلاف تلك الرسائل، لعله يقرأها مراراً وتكراراً ويحمله الحنين إلى الخيار الذي تقاعس عنه يوماً . غادرت مكتب الفقيد وأنا غارق بالتفكير هائماً في الشوارع أتساءل ما نفع أن أثير البلبلة والدهشة بين أقاربه أو

Twitter: @ketab_n

أتجاوز الاعتبارات المقدسة التي وضعتها في قواعد الأدبيات في مهنتي وأهمها ألا أفكّر إلا فيما فيه صالحي. لن يعود اللطف المطلق علي بالنفع كما أن إلقاء نور ساطع قد يدفع بي إلى الفشل فآثرت نثر نورٍ خافت وطلبت لقاء ابنه الأكبر وهو طبيبٌ مشهورٌ قلت بعد عدّة عبارات من الحصافة الملائمة للظروف: "بعد قراءة عدة وثائق يمكننا أن نفهم أنه وفي فترةٍ ما من حياة والدك، كان هناك... امرأةٌ أخرى"، لم يؤتِ بأي ردة فعل أمام هذا السر الغافي ولم أعرف إلى أين حمله، فتابعت: "هل ترغبون أن أتلفها أو...

- فلنلقي كل ذلك في النار!"

فيما بعد، تضمنت العلاوة التي منحني إياها النار التي التهمت السرّ.

ماذا سأفعل بمقال المرسى الذي قرأته؟ هل أتخلّص منه بتكتمٍ تام؟ ولماذا أفعل ذلك؟ لن يفيدني اختفاؤه بشيء، آمل أن يعود علي بالنفع بشرط أن أكون حاذقاً. نفت هذه الفكرة رميه في القمامة.

لدي إحساس بأنه يمكنني جني المال بل الكثير من المال من هذه الصفحات الثلاث.كل شيءٍ في الطابق الأول من ذاك المبنى الفخم المطل على جادة بارك يوحي بالثراء ، الأثاث المصنوع من خشب الكاجو والبليساندر والسجاد واللوحات الجدارية والعناية الفائقة التي أولاها مصمم الديكور. آمل أن يهبني هذا النص ذو الألغاز الفرصة لأغرف المال بملء يدي.

ثم ذاك الذهب، الأكاليل الثلاثة الذهبية، الاتفاق الذي تم بين البحّار والرجلين الغامضين. تهمس هذه القطع التي تتناقلها الأيدي بوعدٍ، بنداءٍ، بل بدعوة، كيف لي ألا أستسلم لها؟ كيف لا يحملني الحماس إليها سلفاً؟

من يترك الفرص تعبر من أمامه، يمضي حياته متباكياً. لست أدري بعد أين سأصل ولكن لا أرغب أن أبقى جامداً أمام هذه المفاجأة.

Twitter: @ketab_n

أمضيت يومين بنخب الرسائل التافهة وبرامج الأوبرا والبطاقات والأسماء المجهولة وأرقام الهواتف المسجلة على زوايا مفكرة ضمن روتينٍ مطمئن.

لم أعثر على أي مخطوط آخر مشابه، لا شيء يثير الدهشة في أي زاوية، لم أعثر على أي دليلٍ يوضحه أو يشرحه أو حتى ينقضه. ماذا أفعل بهذا الاكتشاف الغريب جداً والمختلف كلياً عن الأسرار الصغيرة المعتادة والشاحبة التي كشفت عنها النقاب حتى الآن؟ راودتني أحاسيس مغامرٍ وقعت خريطة الكنز بين يديه غير أنني ما بحثت عنها ولا أعرف فكّ رموزها.

مع أواخر بعد الظهيرة، طلبت رئيس الخدم وعهدت إليه ببطاقةٍ إلى السيدة كولبيرت، لخصت لها بعدة عباراتٍ مدروسة ما عثرت عليه وطلبت التعليمات. بعد مضي نصف ساعة، استدعاني "جون توكر" وهو من طلبني للعمل، إلى مكتبه في الطابق الأرضي، يبدو أنه السكرتير الخاص. وضعت بين يديه المخطوط وطلبت منه ترجمته، فرفض عرضي بعد أن قرأ النص لمرتين وقال بلغةٍ فرنسية ممتازة: "يمكنك العودة إلى منزلك سنتحدث بالأمر غداً دون شك".

وهكذا صُرفت دون أن أدري إن كنت سأتابع المهمة، فرضخت وغادرت المنزل.

لم يكن بوسعي سوى الانتظار والقلق يساورني.جان توكر، رجلٌ نحيلٌ باردُ الطباع لا يوحي مظهره بعمره، سيخاطب الأرملة في الطابق الثاني حيث لم يتم استقبالي، وهي من ستبتُ بالأمر.

أخشى الأرملة في مهنتي. عادةً ما يبدو الرجال الأرامل لطيفين وخرقى ومجرّدي السلاح بل تائهين بعض الشيء ، يسكنهم ذاك الشعور المبهم بالضيق لأنهم مازالوا على قيد الحياة، يعتريهم اضطرابٌ يساوره فضولٌ ضروري كما أنهم كريمون.

Twitter: @ketab_n

قلّما تطلب النساء الأراملة خدماتي إذ يؤثرن أن يتدخلن فيما لا يعنيهن لأسابيع بل لأشهر ويقحمن أنوفهن في أوراق الزوج المتوفى للعثور على ما يؤكد أحكامهن.

لا يصنّفن الأوراق بل يبحثن بالأدلة المقدمة أمام المحكمة الدائمة التي يمثل أمامها الزوج – غياب الدليل ليس دليلاً على البراءة بل الرياء. تدحض سنوات الشيخوخة الحكم الذي أطلق طيلة فترة الشباب.تتملكني هذه الفكرة عندما تدعوني أرملة إلى العمل وتعلّمت ألا أسبب لها الإحباط. إلا أنها تبقى أسيرةً شكوكها، تطلب ملخصات منتظمة أو تقتحم على حين غرّة لتتحرّى عن التقدّم الذي أحرزته.

لم يكن الشاي الذي حمله لي الخادم شيءٌ من الدماثة مع عاملٍ وإنما مقاطعة لاتفاق يعقد مع ذاكرة الزوج.

حصلت على بعض المعلومات عن أرملة "توماس كولبيرت" دون أن أدري إن كانت هذه المعلومات ستعود عليّ بالنفع. علمت أن اسمها "هيلين" وهي ابنة بارون بلجيكي ثري ومغنية أرجنتينية كان لها علاقاتٌ فيما مضى مع ممثلٍ في هوليود عام ١٩٥٧ وسيناتور من الديمقراطيين عام ١٩٦٥ .

حصل زواجهما عام ١٩٨٠، كان عمره أربعة وخمسين عاماً وهي تسعةٌ وأربعون عاماً. تنتسب إلى عدة نوادي اجتماعية وإلى مجلس واهبي الأوبرا في نيويورك. كما كانت تموّل نشر الموسيقا الكلاسيكية في الأحياء الشعبية والبحوث التاريخية حول أوروبا عام ١٩٣٠ . تظهر المجلات أناقتها الغامضة ورهافة جسدها خلال افتتاح أو حفل في جمعية بر وإحسان. كانت تمضي الصيف ما بين "نيس" و"فلورانس" وتمضي بعض الأيام برفقة أصدقائها في قاربٍ شراعي أو فيلا في "جزر فيرج" أما الخريف فتمضيه في مهرجانات وحفلات الصيد في النمسا واسكتلندا وكندا ..... عالمٌ آخر.

Twitter: @ketab_n

ذكرت المقالات الصادرة مؤخراً وفاة "الملياردير" قبل ثلاثة أشهر وعرضت المراسم الجنائزية حيث جلست هيلين كولبيرت بمفردها جامدة شاحبة الوجه على كرسيها مقابل المشيعين، ترأست هيلين كولبيرت المأتم أمام صفوف من المقاعد شغلها أعضاءٌ من الكونغرس والسفراء ورجال أعمال، اقتصرت زينة الكتدرائية والمذبح والنعش على زهور بيضاء اللون.

تلا جون توكر كوفيٌ للمرحوم خطاب التأبين، كما ألقت إحدى الشابات مرشحة من شركة "توماس كولبيرت" قصيدة طويلة في نهاية مراسم التأبين التي رافقها عزف أورغ لمقطوعة لباخ. تقبلت الأرملة تعازي الحشود الخارجة من الكنيسة لوقت طويل.

Twitter: @ketab_n

- ٢ -

عدت في اليوم التالي في تمام الساعة التاسعة صباحاً وتابعت عملية الجرد والتصنيف وكأنّ شيئاً لم يكن. تساءلت في سرّي والغضب يساورني أما كان بوسعي الانتظار إلى أن أتمّ المهمة قبل أن أفتح هذه الورقة الخطيرة. ما طمأنني أن الحارس لم يتلقَ على الأقل تعليماتٍ بمنعي من الدخول.

في نهاية الصبيحة، وافاني مدير الخدم واصطحبني عبر درجٍ طويل إلى مكتب هيلين كولبيرت، ظننت أن أرى مسكناً أنيقاً، صالوناً صغيراً مع سجادةٍ زرقاء ووردية، صوانٌ وكراسٍ من صنع نجّارين فرنسيين، مذهّبةٌ ومرصّعة. فوجئت بالمحيط المتقشّف والأثاث ذي الشكل الهندسي. نسيج أحمر عابث عنيفٌ مرتمي على الجدار الأبيض وحيداً. لا يشغل المكان أي صورة لها أو للفقيد أو لهما معاً.

تجلس هيلين كولبيرت على أريكةٍ مرتفعةٍ من الجلد الأسود، لم تنهض – ربما لأهميتها أو احتقاراً – ومدّت لي يدها الجميلة ملساء لا تجاعيد فيها. يزيّن معصمها الهارب من كم سترةٍ عاجية سوارٌ من الألماس. تجرأت على رفع ناظري لألاقي نظراتها، إنها لا ترمش بعينيها الرماديتين بلون الفولاذ ووجه كالبورسلان وشعرٍ خفيف مصبوغ بلون أشقر كالإيطاليين في فينا. يلمع في يدها الأخرى خاتمٌ من السوليتير. دعتني للجلوس. أثّر صوتها بي، حازمٌ لا رنين فيه، بطيء وخفيضٌ، بنبرةٍ بلجيكية.

أخذت الأوراق الثلاثة التي كانت على الطاولة المنخفضة وقرأتها بتروٍ.

قالت: "سيدي القيِّم على الوثائق الخاصة..."

Twitter: @ketab_n

التقطت أنفاسها بينما لمستُ النبرة الساخرة التي أناطتها بهذا اللقب الذي لطالما زهوت به وأعجبني – تابعت:

– "من يعلم بوجود هذه الوثيقة؟

– أنا والسيد توكر فالكتمان ضروري..."

أسفت على هذا التعليق غير المجدي.

– هل عثرت على شيء آخر يمكن أن...

– كلا، لم أنه مهمتي بعد. كل ما عثرت عليه حتى الآن متوقعٌ.

عبثت بطوق اللؤلؤ ثم تكرّمت بسؤال آخر:

– من كتب هذا النص؟

– لابد أنها كتابة "توماس كولبيرت".

– لم يفتني ذلك.

لا يحق لي اقتراف خطأ، لابد من تحديد بعض النقاط. أمضيت طيلة المساء والليل حتى أفهم أكثر، اندفعت للقول:

"يكشف المقال عن لقاءٍ يحذر ممثليه من كشف هوياتهم، ليس لهذا سوى معنىً واحداً.

شارك رجلان بالمشهد: الأول هو الرجل الذي قال أنه طبيب وهو الوسيط، والآخر الذي التزم الصمت وقدّم الأكاليل الثلاثة. امرأة مقنَّعة. البحّار الذي يجهل هوية هؤلاء الأشخاص وهم بدورهم لم يسألوه سوى عن اسمه، فطمس الهوية يعنيهم.

ترى هل هي لعبةٌ ذات طابع جنسي؟ برجوازيون يدفعون لرجلٍ من العامة ليمارس الحب مع سيدة مجتمع أو لمومس؟ لا شيء يدفع للتمسك بهذه الفرضية. لا يشغل الرجلان لا التسلية ولا الإثارة كما أشار البحّار أن كلّ شيء تم تحت الأغطية. لو كانت فرضيتنا صحيحة لطالبوا بالمزيد، مشاهد واضحة تحت النور حول المرايا مع النبيذ والموسيقا وفتيات أخريات... ما روي لم يكن مشهد فجور. إذاً دفعوا للبحّار حتى تتمكن المرأة من الحمل.

Twitter: @ketab_n

حرصت على ذكر "البحّار" المجهول المذكور في النص ولم أقل توماس كولبيرت. يبدو لي أن الكاتب لا يمكن أن يكون لا الزوج ولا المرأة ولا الطبيب.. إنهم على علمٍ بما سيجري: نجاح أو فشل، حملٌ أو انتظارٌ وندمٌ دون جدوى. ما يهمهم هو النتيجة وفقط لا الاتفاق ولا البحّار ولا الأحاسيس التي قد يشعر بها. لذلك أميل لفكرة أن من كتب هذا النص هو البحّار نفسه.

اقتصر الحديث على هذه الأوراق الثلاث مهملاً ما تبقى. لم يخطر لها أن ترسلني إلى أعمال الأرشفة، بل أصغت إليَّ وأنا أسهب بالكلام. أجهل قواعد هذا الامتحان، فما كان لي سوى الانتظار دون أدنى فكرة عن الأهداف التي ترمي إليها. كيف أقنعها بمواهبي المتواضعة؟ كيف أقترح لها أنها بحاجة لخدماتي ولشيء آخر غير التصنيف؟

- إن لم يكن هذا النص محضُ خيال، فكيف سنتصرّف لتقفّي آثار هؤلاء الأشخاص؟

تجرّأت على طرح السؤال الذي تحفّظت به حتى اللحظة ولم أقدّر فوراً ما يتخلله من عنفٍ:

- هل كان توماس كولبيرت بحّاراً؟

شاحت بناظريها وضاعت في الغموض، لاذت إلى النوافذ وأشجار الحديقة وكأنّها تستجدي نصحاً بعيداً أو أنها لم تعد تطيق وجودي. خشيت في البدء أنني صدمتها باقتراحي دون مراعاة أن ذاك الاعتراف قد يكون لزوجها المتوفى. لكن كان عمره يناهز الأربعة وخمسين عاماً لدى زواجهما، لا يمكن أن تساورها الغيرة على عملٍ قام به قبل ثلاثين عاماً؟

التزمت الصمت طويلاً ولم أجرؤ على متابعة الحديث، ملأت أصداء سؤالي الأخرق زوايا الغرفة لينفخ دوّاماتٍ فيما بيننا.

Twitter: @ketab_n

"لم نـرزق بأطفـال، كمـا أن تومـاس لم يـرزق بأطفـال مـن جانبـه. تأقلمـت مـع فكـرة أن لا خلـف لنـا، و هـا أنـت الآن عثـرت علـى هـذه الصفحات الثلاث المكتوبة بخط يده. ما حدّثني قط عن الأمـر، لم يومئ لهذا النص، لا حاجة لعالمٍ عبقري لقراءة ما بين السطور، أؤيد تحليلك. غايـة هـذا المشهد واضـحة لا لُبس فيهـا: الحمـل، هـذه هـي الحالـة، إن تحقق الهدف المرجو.

لابد أنها توقعت احتمال ولادة طفل من هذا اللقاء.

حدّثني حدسي برهاناتٍ جسيمة ومقلقة في الفرضية التي تطرحها بـصوتها الـرزين دون أن تقـدّر كـل مـا يحفهـا مـن ورطـات. دعـتني هـذه الأوراق للجلوس إلى طاولـة اللعـب وأنـا أجهـل قيمـة الورقـة الرابحـة التـي فتحتها.

شـهدت حيـاتي تأرجحـاً جديـداً خلـف الأسـرار الـصغيرة الـتي كـشف النقاب عنها سابقاً وبعيداً عن أرشفة الوثائق.

"يبدو أننا أمام لغز، ترك الكاتب بعض الإشارات عمره ومهنته كما لو أنه لا يقصد أن يختبئ تماماً وكأنه يقترح رسالة أكثر تعقيداً ويدعو إلى ملاحقته.

لم تطلـق أفكـاري أمـسية الأمـس العنـان لي فاكتفيـت بهـذه العبـارة المبهمة. لاحظت أنها لم تتمكن من الإجابـة علـى سـؤالي: تـرى هـل تجهـل فترة شباب زوجها كلياً؟.

ارتسمت بعد لحظة ابتسامةٌ على وجهها لم تعبّر عن الفرح وسألت:

"سيد زافار" هل تقبل أن تمدّ لي يد العون لفك رموز هذا النص؟".

هـاهو أخـيراً مـا كنـت أصـبو إليـه منـذ أن اكتـشفت الـنص، فانحنيـت باحترامٍ لقبول العرض:

"إن عهـدتِ إليَّ بمثـل هـذه المهمـة إذاً أظـنّ أنـني سـأذهب في ثلاثـة اتجاهات.

Twitter: @ketab_n

أولاً بالطبع سأحدد الأشياء، أعثر على قائمة الموانئ وأحدد ميناء المدينة العالية. لابد أن أعرف لماذا آثر كتابة هذا النص بعد وقتٍ طويل في حين قبض ثمن سكوته إلى الأبد.

بعد ذلك ولأتمكن من الإحاطة بالمشهد ومعرفة إن تمت حقاً لقاءاتٌ على هذا المنوال لتفادي خصوبة زوج وضمن أي تقاليد، وفهم سبب أن يكون المبلغ المدفوع "الأكاليل الثلاثة الذهبية".

أخيراً لابد لنا من العثور على المرأة لنعرف إن نتج عن هذا اللقاء طفل ومعرفة فكرة عن أصولها".

هل يتيح لي صمتها الإسهاب بكلامي المرتجل؟ ولكن ضمن هذه المعطيات يشكل الاانفعال حالة لا رسالة.

تصبّبت عرقاً ولم أعرف ما السلوك الأكثر لباقة أن أدع جبيني رطباً أو أن أخرج منديلاً. الفكرة التي قد تعبّر عنها هذه الظاهرة الفيزيولوجية غير لائقة فطردتها للتو.

استعادت الأرملة الحديث:

"لا يجب أن يشاع هذا النص ولا البحث الجاري، حضّر السيد توكر مشروع عقدٍ للقيام بهذا التحقيق شرط التزام السريّة التامة".

أجرت اتصالاً هاتفياً فانضم إلينا جون توكر.

هل كان عليّ أن أمعن التفكير أكثر وأنا بالكاد أطفو دون أن أثير ضجيجاً في هذه المدينة اللامبالية بين خيبات الأمل التي تحوّلت لحيلٍ والفشل المكرّر الذي ضار يأساً .رفضت المساعدة التي قدمتها لي عائلتي وأبناء عمومتي لأعرف قدري حق معرفة والنتيجة واضحة لا يخطئ بها أحد. لا يعيق كبريائي وضوحي مع نفسي.

كان عليَّ أن أوقّع العقد بعد برهة وفي الطابق الأسفل، إلا أنني انكببت على العمل بهمّة.

Twitter: @ketab_n

"تُرك هذا النص الغامض مرمياً في درجٍ ما. هل كان توماس كولبيرت معتاداً على مثل هذا النوع من "الأحجيات"؟

لم أعِ حماقة سؤالي حتى سمعته يخرج من فمي. تنحنح جون توكر وقال:

- "كلا، قطعاً لا. لم يكن كولبيرت مشاغباً أبداً. بالحقيقة، أظن أنني عرفته حق المعرفة إلا أنني ما لمست فيه ما يوحي بهذا السلوك.

- هل يهوى جمع العملات؟ هل لديه أكاليل أو قطع ذهبية؟

- كلا. يتطلب الثراء الكدّ والسعي لا النوم في صناديقٍ دون جدوى.

أشعر أنني في هذا الفضاء الهادئ كأليس في بلاد العجائب، لو خرج أرنبٌ أبيضٌ ينظر إلى ساعة جيبه أو بائع القبعات المجنون من ثقب في فنجان الشاي ليعطي رأيه برسوّ البحّار لما فوجئت. أنا مثل أليس أشعر تماماً بوجود منطقٍ عميقٍ في سلوك مخاطبي هادئي الأعصاب ولكنني مثل أليس أعجز عن فهمه. أفرغت ببطء كأس الماء قبالتي والذي لا ينقصه سوى عبارة "اشربني!". لم يختفِ لا الفاصل الزجاجي المدخّن الموشّى بالذهب وأرضية الرخام ولا الأثاث المصنوع من البليساندر الأوكومة. لكن عكس أليس فلدي وجهة وهدف واضح: أعتمد على هذا النص وعلى هذا البحث المطالب بهما لأرتقي بها فوق حياتي الحالية كالمصعد.

تابعت بأسئلتي: هل كان فظاً بعباراته؟ هل كان يستخدم كلمات بذيئة؟

- كلا، لطالما كان لبقاً. أحياناً يقسو بكلماته لكنه يبقى محافظاً على هدوئه وحدوده. لم يكن يرفع صوته أبداً بل يبدو في بعض الأحيان خجولاً، لم أسمعه أبداً يستخدم... هذه الكلمات المكتوبة في النص.

- هل تعرفانه منذ زمنٍ بعيد؟

Twitter: @ketab_n

أدهشتني الحدّة التي تبادل فيها الأرملة وتوكر النظرات، وبعد لحظة من التردد، أدركت أن لا أحد منهما يرغب بالإجابة، ابتسم السكرتير الخاص رغماً عنه وقال: حوالي عشرين عاماً. يمكنكم افتراض التغيير الذي يطرأ على المرء أثناء الشيخوخة؟ لعلّه كان أكثر عفوية أو أقل تمدّناً في شبابه؟ لمَ لا؟ هذا ممكن. البحث مسؤوليتكم.

ساد صمت طفيف قبل أن يدعم حديثه بقول:

"ستحلل وتتحرى، تفكّر وتقيِّم فرضياتك وتحدد ما قد يكون صواباً في هذا النص وتحرّر تقريراً".

زرع توكر نظراته في أحداقي وما تمكّنت من استخلاص معنىً ولا قسوة. بدا لي تلك اللحظة أنه يداعب تلك المتعة الصغيرة بإظهار الاحتقار العميق الذي يكنّه لي، ثم أدركت لاحقاً الرهانات الأكثر أهمية في نظرات الذئب التي تلمع في مقلتيه.

- "لو شئت سيكون عملنا كما يلي".

أشحت ناظري فلا أظن أنني بالحجم المناسب للصراع معه. أصغت الأرملة إليه وهو يقود الحديث دون تدخّل، لعلّها تجد فيه تسلية.

"إنني بحاجة لأتعرّف على السيد توماس كولبيرت بشكلٍ أفضل".

توقّع بالطبع هذا الفضول منّي، فأخرج من صندوقه الصغير ظرفاً ووضعه على الطاولة: - هاك أول تعارف. سيرة السيد الكبير العملية وبعض التفاصيل الخافية عن العامة.

تتلاعب ربطة عنقه بين الذهب والرمادي والحرير تاركةً نتوءاتٍ ككثبانٍ موشاة. تبدو لي شركاً أخشى أن أقع فيه.

"لابدّ من سد ثغرات سيرته. يعد ذكر العمر إشارةً. إن كان بحاراً حقاً يجب العثور على الإبحارات التي قام بها وكتابة قائمة بأماكن الرسو لمعرفة المدينة العالية التي تطلّ على الميناء.

قال توكر: - سنكون إذاً ضمن الحقيقة لا الخيال؟

Twitter: @ketab_n

- ليس من الضروري، ربما كان من السهل عليه بدء مقاله بذكرى محددة ترسو في زمانٍ ومكانٍ ما من حكايته الشخصية. بعض الكتاب...

- لو سمحت دعنا بقصة توماس كولبيرت؟

تقبلت العودة لصيغة الأمر بجفاء وتابع قائلاً:

- إن لم يكن بحاراً أبداً ولم يطأ ميناءً قط، يمكنك أن تستخلص إذاً أن هذا النص ليس سوى مقالاً ... أدبياً؟"

لفظ هذه الكلمة بنوعٍ من الازدراء مصدره الأدب أو أنا أو كلاناً معاً.

- لا أظن الأمر بهذه البساطة أيضاً. يمكن لهذه الحكاية أن تكون حقيقية ولكن ضمن ديكور قريةٍ في الجبل وكولبيرت ذو الثلاثين عاماً، حافظ على الأمور الرئيسية ولعب على الديكور لطمس الآثار أو رزانةً يواجه بها بياض الصفحات.

برطم توكر ببضع كلماتٍ مبهمة، لم أجرؤ أن أطلب منه تكرارها. تابعت برهاني دون أن أعرف إلى أين أمضي.

- لم يتم نشر هذا النص باسمٍ مستعار في مجلةٍ ما، لقد قام توماس كولبيرت بتحريره في تاريخ ما أو ربما باليوم نفسه؟ أو بعد عشر سنوات؟ ثم وضعه في درج مكتبه، إنه يعرف حق المعرفة أن اكتشاف هذه الصفحات الثلاث سيكون له وقعاً مفاجئاً.

- وإذاً.

- إنه يتحدث فيه عن نفسه أو بكل الأحوال بما أن النص لا يضم أسماءً ولا توقيعاً فإنه يقصد "الأنا" الموجودة التي قد تعبّر عنه.

أصغى إليَّ بانتباه ملفت للنظر. هل أعرف أنا نفسي إلى أين ستصل بي براهيني؟ ولماذا تبقى الأرملة في منأى عن الحوار؟.

- وإذاً؟

- إذاً إما أن المقال يروي ذكرى بالضبط أو أن مفارقات سيرته لها معانٍ وتشكّل جزءاً من الرسالة.

Twitter: @ketab_n

قدَّر إجابتي ولم يبدُ مقتنعاً تماماً، فكان عليَّ أن أنعشه.

- ألم تعثر من جانبك على ما يدل متى حُرِّر هذا النص؟

- كلا، فالسيد توماس كولبيرت كان يقدس السريّة".

عليّ أن أكتشف حركات حميمية من هذا الحصن المنيع...

- مَنْ مِنْ مجلس إدارة شركات S.T.C يمكنه أن يصفه لي في عمر الثلاثين أو الأربعين عاماً؟

- لا أحد، لم يكن أحدٌ من المديرين الحاليين من مؤسسي الشركة الصغيرة تلك الأيام.

- ومن خارج المجموعة؟

- لم أعرف له أصدقاء من الطفولة ولا من الشباب.

استأت من الصمت الذي غرقت فيه هيلين كولبيرت. بدت أسئلتي هزيلةً منذ أن استهانت بالإجابة عليها.

- وأنت؟

- لقد عملت لصالحه منذ قرابة عشرين عاماً وبناءً على طلبه سأساعد هيلين بعد وفاته. وافقت للعمل مدة ستة أشهر قبل العودة للعمل مع المجموعة.

- هل كنت قريباً من توماس كولبيرت؟

- كنت مستشاراً خاصاً للعمليات، قرب الرئيس – آه كلا، شكراً لذكر ذلك، مستشاراً للعمليات الخاصة.

ابتسم لطرفته التي وجدتها مبتذلةً وغير مضحكة.

- هل تبحث عن معلومات؟

- تماماً، لم أكشف النقاب عن شيء أبداً ولابد من معرفة كل شيء عن كل الآخرين.

لم أرَ ما عليَّ أن أواري من حياتي الخاصة ولا ما يمكن أن يثير الاهتمام بمعرفته.

Twitter: @ketab_n

تركت كاليفورنيا بعمر الرابعة والعشرين عاماً وهجرت المصير المرسوم الذي ينتظرني في شركة العائلة للمفروشات والإنارة التي يديرها أخي بشكلٍ فعّال، كنت أعمل فيها منذ أن بلغت السادسة عشرة خلال كل شهر تموز كبائعٍ له عمولة، لا بأس بنجاحه. لاحقاً شغلت مدير متجرٍ ثم بعد عدة سنوات سأكون مدير قسم ثم سأقيّد بلقب معاون المدير وبكل عذوبة لترسم مفروشات زافار Zafar أفق طموحاتي.

كلا، لقد قطعت السلسلة وغادرت إلى نيويورك دون احتمالات دقيقة متحاشياً توصيات والدتي التي أرسلتها إليَّ مع كل الأوساط اللبنانية، أثار غيابي قلقها بل افترضت وقوع خلافات بيني وبين أخي الأكبر، كيف يمكنني أن أقنعها بأنني لست غاضباً منها ولا من ميشيل؟

عشت لثلاث سنوات بشحٍّ، كان المنطق يتطلب أن أخفض جناح الذل وأستكين. استقبلني أخي دون عتاب، لم يمسكني سوى الكبرياء.

أقرأ في ندمهم على رحيلي الشكوى الشرقية القديمة: من يبتعد عن عائلته تضعف وتضعفه على الأقل لن تتبوأ باسم الهجرة مكانةً أكثر قوة حيث تهيمن المظاهر على أي اعتبار.

في نيويورك لم أكن الأخ الأصغر لميشيل زافار وابن المأسوف عليه إيميل زافار ولا ابن أخ الطبيب إدوارد زافار ولا حفيد النائب جول زافار. لم أكن شيئاً وهذا اللاشيء يناسبني تماماً.

فهمت لماذا وقع اختيارهم عليَّ لم يكن الدافع إمكانياتي المتواضعة أو حتى بوجودها ولكن ما دفعهم فقط هو أنهم لا يرغبون بشخصٍ رابع يكشف السر.

- لماذا كتب هذا المقال باللغة الفرنسية؟

- كان توماس كولبيرت يتحدث الإنكليزية بطلاقة لكنه يفكر بالفرنسية، لم يكن يعبّر عن نفسه إلا باللغة الفرنسية ما بين شركائه والمقرّبين منه وأعضاء المجلس الإداري ولا يأبه بأولئك الذين لا يفهمون شيئاً.

Twitter: @ketab_n

لو لم يكن مثلي ثنائي اللغة لما حصلت على هذا العقد.

- لم أنه بعد تصنيف الأوراق لقد أخبرتني أول أمس أن هناك وثائق أخرى في مقر إقامته الصيفية في "فيرمون".

- الأولوية للبحث الذي عهدت به هيلين كولبيرت إليك، ستنهي الأرشفة أولاً ومن ثم نرى.

لم يعد في جعبتي سؤال أطرحه، استعادت الأرملة الكلام بعد أن لاحظت صمتي.

- يبدو لي هذا النص الغافي في درجه آخر رسالة أرسلها إليّ. رغب أن أعرف بالأمر بعد وفاته، وها قد جرى ما حسب له، لقد قرأته ولم أفهمه أو بالأحرى لم أفهمه كلياً. لست واثقة أننا قد ندرك كل ما يحمله من معنى. لأعقب على جواب جون، لم أكن يوماً لا أنا ولا توماس من هواة الأحجيات، أتمنى أن توضح لي معنى هذه الصفحات الثلاث. لا تهدر جهدك ولا تقلق بشأن المصاريف سيقدم جون توكر لك العون عند الحاجة. إن كان توماس قد كتب إليَّ رسالة فلابد لي أن أعرف ما أجيب وكيف.

أخذت المهمة التي عهدت إليَّ بها أبعاداً أكثر مما تخيّلت وأكبر من إمكانياتي ومما أظن أن بوسعي أن أفعل. مع احتمال مكافأةٍ مجزية، لم أجرؤ أن أضيف شيئاً رغم الإحساس بالخداع الذي يراودني.

نهضت هيلين كولبيرت فنهضنا خلفها. قالت:

"سيد زافار، لقد عهدت إليك بهذه القضية المميزة بكل عفوية، آمل ألا أصاب بخيبة أمل".

Twitter: @ketab_n

- ٣ -

ليس هناك ما هو أكثر مللاً من الوثائق التي يحملها توكر. تتوعد هذه الكتيبات والإعلانات والملفات المصورة والمجلات بزيادة فوق المعتاد، مع غياب فظيع للمسافات والتحفظات.

كيف لشركة نقل بحري صغيرة أن تتحول خلال أربعين عاماً من السعي الدؤوب والصفقات الجريئة والأعمال السبَّاقة المضيئة إلى شركة عالمية لها ممثلين في مئات البلدان لمهنٍ لا تعد ولا تحصر. يرفق هذا المديح بصور أصحاب الأجور من المجموعة من كل الأعراق جميعهم شبان يرسمون ابتسامة على وجوههم ويحملون مواصفات مهنهم في ميدان العمل: الخوذة لعامل الرافعة على ارتفاع ٣٠ متراً عن الرصيف والمريول للمخبري أمام تجربته وبذة العامل في ورشته والبدلة البيضاء يرتديها الضباط على الجسر بين السفينة والرصيف أما المريول الحريري ترتديه موظفة الاستقبال. لم أكن أعرف أنهم ما زالوا يوظفون هذه النبرة الحماسية والساذجة خارج النصوص الدينية والحزبية. يلقي تكرارهذه الرتابة الباهتة في التعبير تأثيراً منوماً، رؤية العالم قبل ماركس بل قبل كاين وآبل وشعور بأن نكون على عتبة جنة مرعبة.ترى من تقنع تلك السعادة الاجبارية في الانتاج والتجارة؟ المساهمين والصحفيين والبنوك والشركاء والدائنين والحكومات؟

فوجئت بأنني لم أعثر على أي صورةٍ لتوماس كولبيرت، اقتصر الثناء على المجموعة لا على المالك، مازلت أجهل من يشبه، لابد أن هذا الغياب لم يكن محض صدفة. عادة لا يكره من يسعى إلى السلطة أن يكون محط الأنظار والكاميرات بل يبالغون في كثير من الأحيان. لم يكن لتوماس كولبيرت وجهاً.

Twitter: @ketab_n

بالطبع لم أفهم شيئاً مما أقرأ وأنا أتثائب في هذه التصريحات الرابحة بالحصول على منتجات جديدة والانضمام والاستيلاء وتطوير منتجات جديدة وطرحها في أسواق جديدة عبر حملات أو دعم. كما أن لا أحد يطلب مني فهم ذلك. غالباً ما كنت أسمع حشو كلام، مفردات عفوية حربية تخرج من فم أخي ليعبّر عن أن لابد أن يكون للعمل معنى ولكن ربما يقصد غيري لا أنا.

يصوّر أعضاء المجموعة في كل مكان وبالشكل نفسه دائماً: عشرة "التقسيمات الوظيفية" – ماذا تعني هذه العبارة العصيّة على الفهم؟ – تجمع كل تقسيم حوالي خمس عشرة شركة في جناحٍ وطني صغير. عوضاً عن تصويرها بطريقةٍ عمودية ضمن صفوفٍ منتظمة بينما تبدو التقسيمات ضمن حركات أنيقة متعرجة ومتموجة بخفةٍ على خلفيةٍ ضاربة لزرقةٍ فاتحة.

في الجهة التي يصوّر فيها مستشارو الاتصالات في مجموعة S.T.C شكلاً أقل ابتذالاً ونظاماً. رأيت عشرة أذرع على كل واحد منها ترتسم إحدى الشركات كمحجم، رأيت رأسيات الأرجل[1] وكلكنتا[2] وأخطبوط يكاد يغفو بين حوضين ماء ويحرك ببطء مجساته في السائل المغذي للاقتصاد العالمي.

قرأت في كتيب إعلامي صادر ١٩٨٢ وهو أقدم ما وصل إلي قولاً مبتذلاً لدرجة أن أبكاني قاله توماس كولبيرت في "أمواج النجاح". لقد سبق وكتب كتاباً إذاً؟ هل خضع لعذرية الصفحة البيضاء؟ ناديت توكر لاستفهم عن الأمر لكنه لم يكن بالصورة فاستعلم عنه. حمل إليَّ ساعٍ العمل بعد ثلاث ساعات إذ بقيت عدة نسخٍ منه غافيةً في قبو المقر.

---

1 – رأسيات الأرجل: نوعٌ من الرخويات.

2 – كلكنتا: نوعٌ من السمك قديم جداً اكتشف عام ١٩٣٥.

Twitter: @ketab_n

غيّرت لهجتي سريعاً فلا تكشف هذه السيرة الذاتية المجاملة والتي نشرت عام ١٩٧٣ النقاب عن أي سر بل ليست سوى سلكٍ ناقلٍ لتفكير مناسب حول سلطة الإبداع وتطوّر العالم الثالث. توصّلت لقراءة هذا النثر الذي لا نكهة له ولا روح متخطياً الملل الذي ينبع من مقاطعه التافهة.

يمثّل المقطع التالي صورة طفلٍ وحيد ومسكين يتيم الأب في مدينة منسية يجذبه عالم البحار. وصمته الحرب والمراهقة بالحرمان وبعد أن نال حريته اختار أن يكون بحاراً. أمضى في البحر ثلاث سنوات تأمّل خلالها العالم وحلّل تدفقه. أدرك أن المستقبل يتربع في الولايات المتحدة فهاجر إليها وأسّس مع أصدقائه شركته الأولى، صادف النجاحات الأولى دفعة واحدة، ساعدت خطة مارشال وحرب كوريا بشكلٍ مفاجئ لاستيراد سفن الشحن، فأطلقت شركة ثانية وثالثة وهكذا أصبح البحّار القديم بكدّه الدؤوب وأخطائه المتداركة بالطبع نموذجاً لعالم البحار، مقاول تاجر أخشاب وركاز[1] من منطقة الاستواء وتاجر بترول وعقارات مرفئية وخدمات بحرية، بنوك وتوزيع وإصلاحات بحرية.

من يتمكن من قراءة كتابٍ كهذا؟ لا ملاحظة ولا فكرة خاصة ولا دعابة، ثلاثمئة صفحة فارغة، سيرة ذاتية لا تروي شيئاً وهنا أيضاً لم أجد صورة للكاتب. أثبت لي ذكر رحلاته البحرية أنه يمكن أن يكون البحّار المذكور في النص.

شكر توماس كولبيرت في الصفحة ما قبل الأخيرة "جيم ف. بولينـدر الصحفي الشاب اللامع على العون الذي قدّمه لتحرير هذا الكتاب". باختصار، طلب عون أحد الزنوج. ربما سيتمكن هذا الشخص من إعلامي بالمزيد؟ فبدأت أتقفّى أثره وبعد يومين من البحث وجدته في "سيتل".

---

1 - ركاز: معدن غير خالص.

Twitter: @ketab_n

اتصلت به فَأَخَذَتْهُ الدهشة وهو يسمعني أغمغم طلباً لحوارٍ معه وانتهى به المطاف بأن قبل دعوتي على العشاء قرب منزله مع نهاية الأسبوع.

أدركت في اليوم نفسه أن هذا البحث يحتل وقتي وينهي القضية التي كنت أعمل عليها قضية "الزبون رقم ١٠٥" دون أن أقبل غيره بعد ذلك.

تنص أحد بنود العقد على منعي من الذهاب إلى مقر مجموعة S.T.C أو زعم أنني أعرف أحداً ما هناك. إن خالفت هذه التعليمات ستؤكد لي موظفة استقبال بعد أن تخفي ابتسامتها أنني أخطأت وأن لا أحد باسم توكر يعمل في هذا المبنى. وإن أصرّيت سيقترب مني رجلان شديدي البنية يعتمران قبعاتٍ مع حامية أذنان يرغمانني على الاستدارة وإن اضطر الأمر سيمسكانني من كتفي ويسحباني على الرخام الوردي ويرمونني خارجاً. سيجري التحقيق الذي عُهد إلي به بكتمان تام أو بالأحرى بنكرانٍ. بدا لي ذلك مسلياً في البداية.

كنت أعمل في منزلي بشكلٍ خاص في مقاهي ومكتبات عامة، بانتظار الذهاب إلى "سيتل Seattle"، تزوّدت بالوثائق حول الأكاليل الثلاثة لمواجهة ما قد يطرأ. لطالما بدا لي علم السكوكيات العلم الأكثر تواضعاً واختصاراً من تفرعات التاريخ بالمقارنة مع ما يلقى نتاج الإنسان من اهتمام عبر العصور : المعابد والأساطير والمدن والقلاع ومقالات المعارك والولائم والموسيقا...

لم تكن تستهويني القطع النقدية المعطرة بطفولة البحث عن الكنز أو قيمة العودة لأرباغون. أطّلعت دون يقينٍ مني على بعض الأعمال كطالبٍ سأم لدقتها. قادتني الملاحظات التي دوّنتها والمقالات التي قفزت فيما بينها لاكتشافين هامين للبحث الذي أقوم به.

أول قطعة أطلق عليها اسم إكليل كانت من صنع "هارلاد لوبيو" عام ١٣٥٩، الذي كان يُحكم جنوب النرويج الحالية وطبعت صورته على عملته ملتحي ويكلّل بالتاج.

Twitter: @ketab_n

تجعل الصفة المتواضعة لهذا السك هذه الفكرة المطروقة تشبه رسم طفلٍ: نصف دائرة تمثل اللحية ودائرة تمثل الوجه وخطٌ مظلّلٌ يشير للإكليل. ذاع صيت صورة الملك ذي الإكليل واسم الإكليل ذي القطع الفضية المتواضعة حول البلطيق وبحر الشمال وأوسلو ولوبوك وهامبورج وريجا وكوبنهاجن على مرّ العصور. كان الإكليل الذهبي في البدء إنكليزياً ولكن تلاعب ملوك إنكلترا في القرن السادس عشر بوزن وعنوان الأكاليل الذهبية مما انتزع قيمتها رويداً رويداً. كما توّج الدوق في ساكس وملوك بولونيا بأكاليل ذهبية ذات فاتورة فاحشة. الاستثناء الوحيد هو اللاتينية إذ فرّق دوق بارم مع بداية القرن السابع عشر أكاليل ذهبية ولكن أدى موته السريع واندثار الدولة لصهر الأكاليل سعياً لإنعاش اعتماد كنوز الدوق.

من بين كل الأكاليل الذهبية، اتفق الاختصاصيون على الاحتفاء بالإجماع وبمغالاة بالإكليلين من عام ١٦٨٣ الذين توّجا الكسندر أوغست دو جيرولستان أنهالت، طبع على وجه هذا النموذج منقطع النظير وجه الأمير الأمرد متألقاً بأعوامه العشرين يتوّج شعره المربوط تاجٌ صغير: مجرد صورة وجه وليس بتصوير مثالي. لم يكن ما حول النقش الاعتيادي الموجز لشكر الله برموز أحرفٍ ولكن نقش بتقشفٍ زاه اسمه الثنائي أي الامبراطوران Aler August ثم حرف D ليشير لكلمة دوق. أما على الوجه فصوّر برجٌ مسنن يرمز للجبروت العسكري وإشارة لميله للعبة الشطرنج وصورة قصره المبني بطراز Fürstenberg. تمول مناجم الذهب شرق الدوقية والتي يتم التنقيب عنها بطرق حديثة أبهة البلاط ومجوهرات الدوقة وتشييد القصر وحدائقه. أبهرت الحياة الموسيقية في بلاد Fürstenberg أصقاع أوروبا وبشكل خاص الأوركسترا الإيطالية في البلاط والأورغ في كنيسة سان ماتيو حيث تسنّى لجان سباستيان باخ الفرصة العزف. أبدى الأمير تسامحاً ملحوظاً مع

Twitter: @ketab_n

الأوساط اليهودية، كما قام باستقبال عدد من البروتستانت الفرنسيين الذين طُردوا بإبطال مرسوم نانت ١٦٨٥ .

رسمت بفن وسكّت هذه العملة بعنايةٍ فائقة في مزيجٍ من أفضل عيار أكبر حجماً وأكثر ثقلاً من كل القطع النقدية في عصره، كانت تحمل هذه العملة رسالةً سياسية قبل أن تكون وسيلة للدفع. يبرهن أميرٌ حكيم ما بين بروسياو بولونيا عن سلطةٍ جديدة. لم يخطئ التجار الذين اشتروا بثمن باهظ هذه العملة الجميلة والنزيهة من فيينا حتى براغ ومن لندن إلى مدريد . قدّم لويس الرابع عشر دعمه له واستقبله بحفاوة في قصر فيرساي الذي شيِّدَ حديثاً وقتئذٍ ساور القلق بعض الملوك. بعد عدة تحركات دبلوماسية ورفض الزواج من أخته بشروطٍ مهينة وخسارة حربين وبالرغم من الدعم البعيد لفرنسا ومباركة البابا لهذا الأمير البروتستانتي اضطر الكسندر – أوغست زوج الأميرة البروسية أن يحرم ابنه الشاب لويس – سيزار من الميراث لصالح Hohenzollern. لقي مصرعه بعمر الأربعة والثلاثين غرقاً في إحدى بحيرات حديقة Fürstenberg حيث ألقى به جواده، وهكذا ازدهرت بروسيا باتجاه الشرق ووضعت نهاية لسك هذه العملة.

منذ ذلك الحين وعندما يذكر اختصاصيون كورون ذهبية بالشكل المطلق ودون أي تحديد فهم يرمون إلى هذه القطع الفنية.

لم يقبل لويس سيزار دو جيرولستان أنهالت Louis César de Gerolstein – Anhalt فرضية الحادثة واقتنع أن والده وهو الفارس المحنك قد صرع ورمي في الماء. ترعرع في بلاط فريدريك الأول ملك بروسيا وهو بالنسبة له ملكه وابن عمه الجرماني ويسرُّ في خلده أنه قاتل والده. في السابعة عشرة هرب من برلين إلى باريس بهدف أن يرتمي عند أقدام لويس الرابع عشر. بالطبع لم يستقبله الملك ولكن ذاع صيت الدوق الألماني الشاب الوسيم والبائس. أكد له جواسيس

Twitter: @ketab_n

غامضون أن قضيته تشكل المراكز العليا أما هو فقد أغرق أوروبا بذكريات طويلة باللاتينية ليرجح حقوقه. كان يمكن لحرب رابطة أوغسبورج أن تعيده إلى الدوقية ولكن تعهد لويس الرابع عشر بعدم دعم مزاعمه في إحدى الشروط السرية التي تنص عليها معاهدات ريسويك Ryswick عام ١٦٩٧.

لجأ الدوق الشاب إلى مدريد ولندن وستوكهولم وحتى إلى موسكو، كان مثيراً للاهتمام ويضفي جواً من التسلية لكنه غير مقنع.

استقبله في نهاية المطاف فيكتور أميدي الثاني ملك سافوا Victor Amédée، لم تهمل هذه الورقة الصغيرة في لعبة منزل سافوا المعقدة فالأوراق الرابحة قليلة. اعتنق لويس سيزار الكاثوليكية مما أثلج صدر البابا ومضيفه لكن ذلك ساهم في تجريده من أهليته. كانت بالنسبة إليه حرب ميراث إسبانيا الطويلة سلسلة من الفرص الضائعة والمهانات في رحلات طويلة للتقرّب من بلاد مختلف في أوروبا في حين أن مضيفه فيكتور أميدي استولى على عرش "سيسيل Sicile" في صلح "أوترشت Utrecht" عام ١٧١٣.

لم يتزوج لأنه لم يتنازل عن منزلة الدوقة في اختياراته ولم تقبل أي دوقة الاقتران به. استقبلته مدام وارنس Mme de Warens عدة مرات في شارميت قرب شامبيري حيث التقى به الشاب جان جاك روسو عام ١٧٢٨ وذكّره بشكلٍ عرضي وبطريقةٍ مغلوطة في عمله "اعترافات Confessions" كبارونٍ ألماني.

اندلعت عام ١٧٣٣ حرب الميراث في بولونيا ودفع فيكتور أميدي محميه كحملٍ لتبادل مع الملك المنتخب Stanislas leszczynski. إن نجح، كصانع ملوك، سيمتن لـ Fürstenberg وVarsovie وإن فشل فهو يأمل أن يفاوض.

Twitter: @ketab_n

سحب ربيبه مقابل مكانين أو ثلاث أمكنة قوية في الألب. لكن لويس سيزار توفي في توران Turan عام ١٧٣٥ ولم يكن له أي وزن في القضية البولونية. خصّ فولتير لويس سيزار بعدة أسطر لامه فيها على اعتناقه الكاثوليكية وكذلك ذكره مونتيسكو وتبعه الصدى الأخير عند توكوفيل Tocqueville والواحد تلو الآخر بتأملات مريرة حول الوزن النسبي للحق – السلاح الوحيد الذي كان بين يدي لويس سيزار – في مواجهة قوى الدولة الطاغية.

بعد مضي أكثر من ثلاثة عقود مازالت تلك القطع تتلألأ بعذوبة ويبتسم فيها الكسندر أوغست بشرودٍ لقدره الذي ظلّ مجهولاً، وهكذا امتثالاً بالخرافة امتنع أي أمير آخر عن تصوير قلاعاً على وجه العملة. إذاً فإن الأكاليل الثلاثة التي بحوزة البحار تعود إلى ثروة الدوق الشاب.

المفاجأة الأخرى كانت أدبية. أثناء بحثي عما يمكن أن تمثل الأكاليل الثلاثة لبحارٍ اكتشفت فيلماً من عام ١٩٦٨ لأورسون ويلس Orson welles "التاريخ الأبدي" ثم القصة التي أوحت به بقلم كارين بليكسن ونشرت في فترة ما بين الحربين.

يصف النص رجلاً مسناً فاحش الثراء ومستبد، استولى عليه الملل. بعد أن قرأوا وأعادوا قراءة حساباته ثم بعض المقالات سمع بحكاية البحار الذي دُفع له ليقضي ليلة مع مجهولة. وعندما شرح له "الأمين" أنها ليست بقصة حقيقية وأنها مجرد شائعة انتشرت في موانئ العالم بأسره إلا أن الملياردير النزق استشاط غضباً ولم يقبل بفكرة القصة الخيالية. لا يهمه وطلب أن تصبح هذه الحكاية حقيقية، فعرض على بحارة عابرين ثلاثة أكاليل مقابل مضاجعة مجهولة بالنهاية وافق رياضي اسكندنافي ساذج وتوفي المسنّ هانئ البال. ترى هل قرأ توماس كولبيرت كارين بليكسن وتمنى أن يروي الحكايا بشكلٍ مختلف من وجهة نظر البحار؟ أم أنه هو وكارين بليكسن قد كتبا النص انطلاقاً من نفس

Twitter: @ketab_n

الحكاية التي يتردد صداها على الرصيف الشاطئي مرة في موباسا ومرة في نيويورك؟

لن تحل المقترحات المضافة لأحلام اليقظة محل المنهجية. تذكرت التقرير الأخير الذي عليَّ تحريره فأرغمت نفسي على ضغط أفكاري.

أمضيت ساعات في المكتبات العامة أبحث عن المدينة وأسجّل قوائم، حذفت الموانئ ذات البروز والمسطحة بشدة وتلك ذات الأهمية المتواضعة. تصفحت أدلة السفر والروايات القديمة لأعرف طريقة الكلام في الماضي. استنتجت أن العبارة ليست سوى استعارة فالصعود من الأسفل إلى الأعلى لرجل من العامة وصل إلى طبقة البرجوازية من عاشقٍ إلى الملذات. في هذا المرسى الذي يلوح من بعيد، سمع البحار أصدقاءه يذكرون المدينة العالية حيث سحبته المغامرة في دروبٍ مجهولة.

نيس، تولون، باستيا... تأملت عبثاً في الخريطة وسرت مع ضفاف خط البحر المتوسط والمحيط الأطلسي وما عثرت على المدينة العالية. جرت أحداث توماس كولبرت عام ١٩٥٠ في ميناء يتحدثون فيه الفرنسية. استشرت غير آملٍ كتيب جغرافية نُشر عام ١٩٥٢ للمدارس الثانوية، انبسط الجواب في الغلاف بمسمى خريطة الأراضي الفرنسية.

ديغوسوارز، بابيتي، سايغون، مادراس، فورت دوفرانس... أجل سافرت في أراضي خط الاستواء لكنني ما عثرت أبداً على المدينة العالية.

ثم فوردوفان حيث يصف الدليل مدينة مرتفعة ومدينة منخفضة. تصفحت رواية عاطفية ١٩٦٦ يجري جزءٌ من أحداثها في منازل المدينة المرتفعة الجميلة الأوروبية في الحي سيء السمعة عند نهاية المدينة المنخفضة المدغشقرية. اعتقدت حرصاً مني ألا أستند على هذه الفرضية الوحيدة وتابعت أتعقب باصبعي على الخرائط خطوط النقل البحري في الزمن الماضي.

Twitter: @ketab_n

وأيضاً بورغ – تاباج، كان علي تفحص الخريطة بعناية لأتذكر أين تقع هذه المستعمرة الصغيرة والهادئة والمنسية.خصّ دليلٌ من ١٩٥٨ بورغ – تاباج ببضع صفحات ويشير بالإقامة في فندقٍ في المدينة العالية حيث الهدوء والهواء المنعش والإطلالة الخلابة خير من الحارات الشعبية في المدينة المنخفضة. يراودني شعور غامضٌ أن اسم هذه الجزيرة مألوف، اجتذبت أنظار الصحفيين إليها بإيجازٍ جرّاء اضطرابات سياسية دفعت لإرسال ذوي القبعات الزرقاء لوضع حد لحربٍ تكاد تكون أهلية.

(لا أحب ذوي القبعات الزرقاء، طالما لعبت أنا وأخي وابن عمي لعبة الحرب في لبنان ونحن نفاضل الكبار يجسد كل من الأولاد المشاكسين أحد الأحزاب أو السلطات التي كان أهالينا يسهبون بالتعليق على جبهاتها وتحالفاتها وتسليحها وخيانتها.عادة ما يناط الدور الغير المرغوب بالأصغر سناً أي لي أنا حيث كنت اعتمر القبعة الزرقاء بالمقلوب في حين يتنكر الآخرين كمحاربين من النخبة ويدججون بمسدسات من البلاستيك.كنت اتجول بحرية في ساحة الوغى وانقل الرسائل فيما بينهم ولكن لا يحق لي التدخل بالمواجهات.يحترم المحاربون إلى حدٍ ما حصانتي ولكن حين يحتمي خلفي احد الكبار اتلقى بعض اللكمات الموجهة له.لا اتمكن ابداً من استعادة الرهائن المهانة ولا أن اتمرد أو انضم لأحد الأحزاب).

Twitter: @ketab_n

- ٤ -

استأجرت في سيتل سيارة واتجهت بهدوء جنوباً، أخذت وقتي بالاستمتاع بالمناظر الخلابة. وهبت نفسي لحظات حبور بين المحيط الهادئ والجبال، ما بين زخات المطر والشمس السخية، اسرتني أشجار الأرز العملاقة التي تطاول السماء مترامية الأطراف لتلاقي البحر الزئبقي، هناك سألتقي بجيم ف.بوليندر كما اتفقنا عند الغروب في قرية الصيادين. خليجٌ صغيرٌ تداعبه مياهٌ داكنة تصافح الجُزر الأفق البعيد حتى تكاد تخفيه وغاباتٌ تتهافت حتى انحسار المد تلوح بينها منازلٌ مطلية بألوان صاخبة غافيةً على ضفاف الماء أو عند أقدام المنحدر وهناك ميناء ومرآبين وورشة بالإضافة لمطعم.

لم يخفِ بوليندر فضوله وشوقه للحوار بعد أن حيّره اتصالي. يبدو ميناء لوبستر هارباً من إحدى إعلانات مكتب سياحي، بجذوع الصنوبر السليمة والنوافذ المطلّة على الرصيف الشاطئي والمدخنة التي تنفث الدخان،يحتسي البحارة الأشداء بقمصانهم ذات المربعات وقبعاتهم التي تلتهم رؤوسهم النبيذ في الحانة. نهض أحد الرجال يناهز عمره الستين عاماً ويرتدي بذة باهتةً اقترب نحوي وقال:

"فيليب زافار؟ أود أن أهنئك. هذه المرة الأولى التي التقي بها بقارئٍ لكتاب "أمواج النجاح". هذا يواسيني عن انقضاء أيامي الماضية في الغرب، لم يذهب عناءي سدىً، أخيراً قُرأ عملي وبالكامل بكل عفوية؟ ألم يرغمك أحدٌ على ذلك؟ لا يمكنني أن أصدق".

لمست في أسئلته المرحة ولهجته المداعبة طيفاً من مرارةٍ لا توصف.

- بالحقيقة، ما يثير اهتمامي هو توماس كولبيرت.

- خمنتُ، لم يكن حب الرسائل الجميلة ما دفعك لقراءة هذا الكتاب. لقد كتبت غيرها وباسمي الصريح: ديوان شعر ورواية بوليسية

Twitter: @ketab_n

وتحقيق عن صناعة الخشب في القطاع. أظن أن لا شيء من كل هذا يعنيك، أنت قادمٌ بعد طول زمن لتتبع آثار كولبيرت. أن تتمكن من قراءةٍ كاملةٍ لمجموعتي الأولى هذا أمرٌ يستحق الإعجاب وكأس بيره.

سجل طلباً بدا معتاداً على المكان، ظننت أن يكون الأمر لطيفاً له، وضعت نسختي التي حملتها معي على الطاولة. استحوذ عليها بكل بساطة ليمهر على الصفحة الأولى توقيعاً ضخماً وإهداءً هازئاً:

"لا تشكرني".

لم أكن بحاجة لإنعاشه اكتفيت بسؤال: "هل يمكنك أن تخبرني كيف وصلت لهذا العمل؟".

- كان عمري سبعة وعشرين عاماً، أتسكع في أنحاء نيويورك مترعاً بالطموح ومقتنعاً أنني سأفجر موهبتي في وجه العالم وسيطلبني في اليوم التالي رؤساء التحرير كبار الشأن، أنت ترى النموذج.

رأيته أكثر مما يتصور.

"انقضت شهور قاسية وبدأت شهور غير بسيطةٍ أيضاً ، حتى رأف بحالي يوماً ما شخص قديم المعرفة واقترح علي هذا العمل: عقد لستة أشهر لمساعدة ربّ عملٍ على تحرير سيرته الذاتية. هل كان لدي خيار؟ وافقت من فوري ودخلت في مجموعة S.T.C".

يا للشبه الذي يجمع بين قصته وقصتي، لكأنني أتحدث بشفاهه. تلوح عبر النوافذ النيران الأخيرة التي تنفثها الشمس قبل احتضار بنورها أسفل مصطبة الغيوم الممزقة.

"لابد أن أذكرك بنيويورك عام ١٩٧١، لم تكن قد ولدت بعد. حاول أن تتخيل. سنوات نيكسون وحرب فيتنام. معارضة كلّ شيء، "البلاك بنترز Black Panthers والمخدرات والإباحية الجنسية والجامعات والرغبة بتغير المجتمع، دور المفكرين خاصةً في نيويورك. لم يكن أرباب العمل ساكنين وصورتهم المقيتة حتى في الكونغرس ونوادي واشنطن. لا

Twitter: @ketab_n

يمت ذلك بصلة لأيامنا هذه. قرر مدراء المجموعة ضرورة رد الجميل لرئيسهم ففكروا أن كتاباً – أنت تعلم، أوراق ملتصقة ببعضها البعض مع بضعة حروف مطبوعة في الحاشية – سيكون الغرض المطلوب وسيتم إهداء العمل منتهياً إلى الناس ذوي الاعتبار في الصحف والسياسة والأعمال. حقاً من أين عثرت عليه؟ في سقيفة منزل جدك؟

– في مقر S.T.C بكل بساطة.

– هل مازال هناك من نسخ؟

– بعض النسخ في أعماق القبو.

– آه، القبو... لا يُحذر أبداً منها. باختصار لقد تم تكليفي لأكتب كتابه. هل مازال على قيد الحياة ذاك المسن اللعين؟

– لقد توفي في مطلع هذا العام.

أفرغ بولندر قدح البيرة برشفة واحدة كرثاء للمرحوم، ثم أدركت لاحقاً أنه ليس في طور التعليق على هذا الخبر.

– بدا لي أمراً حسناً أن أرى شيئاً في الصحف، وهكذا كُلفت بسرد حياته وتحرير كتابه، زودت ببعض الوثائق والتقيت عدداً من شركائه. كل ذلك كان مملاً كتقارير العمل، استحال عليَّ استخلاص ما يكتب. قررت أن أغالي وأضيف وأخترع ولكن لم أحصد أي جدوى. في نهاية محاولتي الأولى التي توقفت عند خمسين صفحة، طلبت لقاءه، فطلبوا مني تقديم المخطوط بحالٍ جيدة ورسالة إلى السيد كولبيرت أوضح أهمية لقاءه. فقمت بذلك معتقداً أنني أتلف المهمة ولكن لا، فبعد مرور عشرة أيام استقبلني السيد الكبير لمدة ساعتين في مكتب لا بذخ فيه مجرد مظاهر عادية. وجهٌ مألوف وصوتٌ لا نبرة له، رجلٌ عادي كمن يسافر بجوارك في مقعد الطائرة. ذكاء ملحوظ في الأعمال، لا شيء أكثر من ذلك. من الصعب جعله بطلاً روائياً، بل كان يجيب على أسئلتي بكلمةٍ واحدة وكأنه يجيب على مضض.

Twitter: @ketab_n

فهم أنني أفرغت قدحي لنجلس إلى مائدة الطعام. تم تحضير العشاء الذي طلبه للتو.

"لاحظت مثلاً أنه ابن رجلٍ مجهول، ظننت أنه سيحدثني عن الأمر، اخترعت أن شاباً برجوازياً قد أغوى والدته وهي فتاةٌ بريئةٌ من الريف وأنجبت معه.

- وماذا بعد؟

- حذف كل شيء لدى قراءتها! كيف تريد مني أن أكتب السيرة الذاتية بمعلومات ضئيلة؟ لقد أمضى سنتين أو ثلاث كبحارٍ وليس بجعبته ما يروي؟ قل هذا لغيري!"

بضيقٍ، عجزت عن إخباره أي حكاية عبر بجانبها دون أن يدري. ولكن لا يأمل أحد إضافة ذيلٍ لكتاب نُشر منذ أكثر من أربعين عاماً. لم يكن ينتظر أي كَشفٍ بل إنه لم يلحظ الصمت الذي يلفّني.

رفع النادل صوت الموسيقا فكان عليه أن يرفع صوته لأتمكن من سماعه.

- "حاولت إقناعه بأن يعبّر قليلاً وأن يدعنا نلمح الرجل من خلال ربان الصناعة، أو مقال طفوليّ فله وقعه في النفوس وخاصة طفولة بائسة يتيمة الأب في بلدٍ يطحنها الحرب والاستعمار، حذف المشاهد المذهلة، للأسف.

- هل احتفظت بالنص الأصلي؟

- الله أكبر، كلا! يا لها من فكرة! لم أتعامل على أنني ستيفنسون! دسست المال في جيبي وحاولت ألا أشعر كثيراً بالخزي، حصلت على بضعة نسخ فقدتها خلال ترحالي المتكرر. لم أذكر "أمواج النجاح" ضمن قائمة أعمالي أو في سيرتي العملية، حتى أنني كدت أنسى تلك المرحلة الضحلة حتى أيقظها اتصالك".

Twitter: @ketab_n

تحوّل نقاشٌ حامٍ في الحانة إلى شجار من وصل أولاً إلى مكان الصيد وقام بأشياء لا تجوز وآداب العمل بين روّاد البحر وطوّافات محددة. اضطر النادل للتدخّل وانضمّ بحارةٌ آخرون ودارت رحى جولة ثم هيمن الصمت من جديد رويداً رويداً.

دخلت امرأةٌ بوجهٍ حازمٍ، خاطبت زوجها وغادرت معه في موجة من سخرية أصدقائه، لاحت طاهية شابة من شق الباب.

- طلب منك رجل الأعمال هذا أن تكتب سيرته الذاتية ويرفض أو يلوم أي كشفٍ عن أسراره أو أي معلومة شخصية...

- هل يمكن أن يأخذ علي مأخذٌ فيما بعد دون أي مصلحة؟

- كيف تفسّر ذلك؟

- تحدثت بالأمر مع الزميل الذي وضعني بالصورة، بالنسبة له يرى أن كولبيرت يريد هذا الكتاب ليقدمه كهدية ويتردد صداه في بعض الأوساط ليبرهن عن إنسانيته فيقنع بذلك سبب بعض المرافعات والأعمال. افترض أنه لن يُقرأ لكنهم سيثقون به من حيث المبدأ.

- كان يجب أن يرى الكتاب النور لا أن يُقرأ.

- هذا هو، كما أن هناك رسالةٌ أخرى. ولد كولبيرت فرنسياً وكان عليه أن يثبت أنه أصبح أميركياً قلباً وقالباً.

- مع أن هذا البلد تضم أناس قادمين من كل الأصقاع.

تردد في هذه الملاحظة العادية صدى تاريخ عائلتي ورحيلنا من لبنان إلى فرنسا ثم إلى الولايات المتحدة. لم أتنزه قط في ربوع جبال لبنان لكن دروبها تهمس في أذني قصصاً أكثر من جبال "روشوز أي الصخرة" التي أمضيت فيها مراهقتي أياماً وسنين. كم جيلاً يتطلب جرح المنفى حتى يندمل ويتلاشى الحنين إلى بلد هجرناه وتركناه خلفنا؟...

- تعرفنا جميعاً على شرطي إيرلندي ورئيس عمالٍ بولوني وصاحب مطعمٍ إيرلندي ومحاسبٌ ألماني، أما فرنسي فما صادفت أبداً. لا تنس

Twitter: @ketab_n

تلك المرحلة حيث تدوّي تحديات الجنرال ديغول لليانكيس في كل أذنٍ. من هنا تأتي سرية الرسالة: لا أب ولا أخ ولا أخت، يهرب متى يستطيع ويبحر ويرى بلدان. توفيت والدته بينما كان في إحدى رحلاته البحرية فلم تعد تربطه بفرنسا أي عائلة، رمته الأقدار على ميناء نيويورك صفر اليدين كملايين المهاجرين الآخرين. هذا ما غفر له مجيئه من بلد النبيذ والعطورات. آه فيما يخص النبيذ، إن بيرتنا تنحسر.

جدد البيرة، وأتى بقدحين بنفس حجم الأقداح التي تحتسيها البحارة وهم يلعبون البلياردو. كنت أتقن مصادقة الجوار وتجاوز حدود استغراقي لكن لا يجب جعله يتوقف عن الكلام خشية أن أضطر للنوم في السيارة.

- ألم يروِ لك كولبيرت شيئاً عن حياته كبحّار؟

- لقد نسي أسماء أصحابه والبواخر والموانئ! بالكاد جعلته يقول لي أن الإبحار كان طويلاً في منتصف الكرة الأرضية الجنوبي. هذه هي أقصى درجة تحديد تمكنت من الحصول عليها! لم أعد أذكر ماذا كان يعمل بالضبط..

- كهربائي، حسبما ذكر في الكتاب.

- نعم هذا هو، كنت أتخيل مشهداً يعيد فيه السيد الكبير التيار إلى أعالي الباخرة أثناء عاصفة لينقذها من الأهوال. قطعت المونتاج! بصراحة، هل سيغير برهان عمله كهربائي أو مسؤول ديزيل أو نوتي إشارة في صورة الرجل الطيب؟

- ولماذا غيّر مهنته لدى رسوّه في نيويورك بالذات؟

- الرغبة بمشروع حر، أن يكون سيد نفسه، أن يرى علمه المرصع بالنجوم يرفرف في الهواء وكل هذه الحماقات. بذلت قصارى جهدي لأجعل لها مصداقية لكنني لست واثقاً من التوصل لذلك.

Twitter: @ketab_n

- وصل إلى نيويورك وشيَّد مشروعاً للنقل البحري، على أيّ مال اعتمد؟

- طرحت عليه السؤال. لا يمكن أن تمثل ادخاراته لعامين من راتبٍ شهري مبلغاً معتبراً ولا حتى ليستأجر سفينته الأولى، كيف أقول، لا أظن مبلغاً يدع الآخرين يتعاملون معه على محمل الجد ولا أن يستقبله صاحب بنك.

- إذاً؟

- حسب قوله، كانا اثنان، شريكه فرنسيٌ آخر أكبر سناً منه، ضمّا مدخراتهما، وكدّا بالعمل في البدء في ميناء نيويورك وبعد عامٍ تمكنا من اقتناء سفينة شحن صدئة وشرعا بالعمل. وبعد فترة من الزمن شقَّ صديقه دربه وحيداً. يا للغبي (يا للأحمق)! لو بقي يعمل بالمجموعة لأصبح اليوم ملياردير أ هو أيضاً!

- هل تذكر اسمه؟

- "هيا قل يا عزيزي، لقد أحييت لك حديثاً مضى عليه أكثر من ثلاثين عاماً! عجباً! يا للذاكرة وأسرارها، لقد خلت أن النسيان التهمها وهاهي الذكريات تتفتح شيئاً فشيئاً بشرط أن تروى التربة".

داعبه الفرح بهذه الصورة، فأفرغ كأس الجعة وطلب آخر. ترى هل سيتمكن من قطع خمسين كيلومتراً إلى سيتل دون عناء؟ شربت بدوري ربع كأسي متظاهراً بتضامني المتواضع.

"غابت كل هذه التفاصيل عن الكتاب بالطبع، لو شئت العثور على تلك الأسماء لابد من العودة لرأس المال الأول شركة كولبيرت، عليك البحث في الأرشيف المالي لولاية نيويورك، حقاً أيها الشاب ما اللعبة التي تستهويك؟"

لم أجب بكلمة تأملت أن يأخذ صمتي كإثبات كما أنني لا كذبة لدي لأخترعها، ركز في صحن البطاطا والتهم السلمون بشهية وشرب البيرة

Twitter: @ketab_n

ثم أرسل قبلةً للطاهية التي أنهت عملها وعبرت الصالة غير آبهةٍ لمزاح البحارة.

"لم أكن قد سمعت قط عن مجموعة كولبيرت، ولكن قبضت ثمن أن ألبس السيد الكبير وجهاً إنسانياً ولم أتوصل لذلك، لم يكن خطأي بل خطأه".

- هناك، بعد كل حساب، ذاك المقطع حيث كان يتأمل في مقدمة السفينة أثناء عبوره مضيق توريس Torres ويستكشف La Groix du Sud وقرر ألا يبقى منفذاً طيلة حياته...

- كتبت هذا في مقهى "كوينز Queens"، تحيط بي روائح البيض المقلي والتبغ الدافئ، مقطوعةٌ شعريةٌ مسهبة تتمايل مع ريح الأرض التي تبعثر عبق الفانيليا والورق والأنغام في ليلةٍ استوائية جنوب إندونيسيا. الأسماك الطيارة حول البحار الشاب الذي يتأمل النجوم، مشهد فيلم، لم يبقَ منه سوى نصف صفحة.

- إذاً، لم يكن شيقاً؟

- كلا، على كل حالٍ، لا يُغفر الخطأ للأثرياء وأصحاب النفوذ ولا يبرر عشقهم. لم يكن كولبيرت من أولئك الذين يترددون على الممثلات وممن يشجعون فريق كرة قدم أو فرقة موسيقية، لا وجود لامرأةٍ في حياته حسب علمي. حياته مثيرة للملل حقاً، حُذف من الكتاب كلّ ما اجتهدت به.

فرغت الحانة شيئاً فشيئاً ونحن فرغنا من تناول عشائنا. يتحرك قارب صيد جيَّاب ويلقي بأنواره الكشافة بعنفٍ داخل ميناء لوبستر فيضيء وجه بولينـدر الذي سبق عمره بالشيخوخة. هل كان علي أن أظهر اهتماماً وأسأله عن مغادرته لنيويورك وعمله في سيتل ومجلته الأسبوعية الثقافيـة؟ لقد فات الأوان، كان يتوجب أن أبدأ من تلك النقطة. ترى هل يرغب جيم. ف. بولينـدر البدين والأصلع الذي يلحّ

Twitter: @ketab_n

عليَّ باحتساء الويسكي بمواجهة الصحفي الشاب الذي كانه يوماً أظنه كان رشيقاً كثيف الشعر؟ كلا، لم تكن ذكريات نيويورك ١٩٧١ المبهمة لتطاق لولا أنها تشعُّ من كوكبٍ آخر من نجمٍ آفل مازال ضياءه يداعبنا.

- لا تلومني على هذا العنوان: أمواج النجاح. لقد قدمت حينها ثلاثة اقتراحاتٍ فاتتني الآن، لكنهم اختاروا هذه الحماقة. أمواج النجاح! ولم لا في تيارات الدولار ومد المصالح وجذرها؟.

اتقد ذكائي بفعل الكحول أما بولينـدر فاتقد كلامه، إلا أنني بدأت أعاني بمتابعة حديثه، ربما غفوتُ بعينين مفتوحتين.

- على كل حالٍ أيها الشاب، رجلٌ مثل كولبيرت لم يخلق من أجلك. لا يمكن للمرء أن يصبح رجل أعمال وبداخله شابٌ لطيف. إن صادفت قرشاً كهذا لا تستغرب لو نهش ذراعك.

- ولكن، ماذا فقدت بلقائه؟

- التقيت به لساعتين في حياتي وعملت لستة أشهر من أجله ولحق بي الخزي لعامين. ذهبت إلى فيتنام حتى أسقط من ذاكرة من حولي، مكانٌ سيء ولحظة سيئة، كانت السنة الأخيرة في سايغون حيث تردد آخر صدى ثم أمضيت ثلاث سنوات في المكسيك. لدى عودتي، كنت قد سقطت من ذاكرة الجميع، ذاق الفتية الصغار الجوع، اتجهت إلى كندا،ثم عودة وطلاق. احذر الاقتران بمكسيكية يا بني. انشغلت بمؤسسة ثقافية في كاليفورنيا ثم هربت بعد عامين حين أدركت أنني أشارك بأعمال احتيال. ثم نفقات وزواجٌ ثانٍ. ولدين، نقل سكنٍ.

عندما تشارف على الخمسينيات تسأم من الحماقات وتجد لنفسك عملاً حقيقياً، ليس في نيويورك، في سيتل، ما يساعدك على دفع الفواتير، حتى ولو لم يكن الحلم الذي داعبك في العشرينيات. يكبر أطفالك وتدرك أنك نجحت بهذا على الأقل. أرأيت لو أنني ما صادفت

Twitter: @ketab_n

كولبيرت أبداً، لجلست على أريكةٍ من الجلد في نيويورك لأرهب الكتّاب بمقالاتي أو بصمتي...

أقبل علينا رب المطعم ليقول لنا أن وقت الإغلاق قد حان.

"حسناً، بيلي، مع كل المال الذي تركته لك، يمكنك ان تدعنا بسلام للحظة أخرى أليس كذلك؟".

نقل بيلي نفس الرسالة إلى بقية البحارة واستقبلوها بنفس السلبية ولكنهم أذعنوا شيئاً فشيئاً، لملموا أغراضهم وخرجوا مثيرين ضجيجاً صاخباً. لقد حصدت غنائماً أكثر مما حلمت، عليَّ أن أمد يد العون لصاحب الفضل.

- أظن أن علينا الذهاب، جيم. ستعود إلى سيتيل الآن؟

هزء وقال:

- لا تقلق، يا بني، اعتاد حصاني، إنه يعرف درب الاصطبل.

- أتود أن أرافقك؟

"لقي والدي مصرعه بحادث سيارة عندما كنت في الثالثة عشر من العمر، لم يكن قد أكثر الشرب ولم يكن متعباً ولم يكن هناك ما يعكره، لا شيء ينبئ بفقدان سيطرته على السيارة، صباح يوم أحدٍ من شهر حزيران على الخط الأيمن مصطدماً بدعامة الجسر، منذ هذه المآساة الغامضة وأنا أشعر بمسؤولية عابثة عن كل السائقين من حولي، لا أقلق من إثقال كاهلهم بنصائحي. لم تنقذ توصياتي حياة أحدٍ أبداً، عندما أجازف بإسداء نصحي مدركاً أنها سترفض، لا أنسى أنني أخاطب عبثاً سامعي. تشتت كلماتي الفارغة تحت قبة الكنيسة خلال المواسم الدينية طويلة الأمد أمام نعشٍ يلفّه علمٌ يتوسطه الأرز".

- اسمع أيها الشاب، أمضي عشرين دقيقة في طريقي، أفتح النوافذ وتلفح ريح المحيط الهادئ وجهي حتى تتبخر قطرات الكحول من دمي قبل أن أطأ عتبة منزلي.

Twitter: @ketab_n

عاد بيلي يلقي أوامره بحزمٍ أكبر. نهضت وقام بولندر بنفس الشيء.

- قللي، يا صاح، لم تخبرني بعد لماذا تريد معرفة كل هذا.

- إنني أكتب سيرة ذاتية غير مصرّحٍ بها.

غضب وقال:

- لا تهزأ من صوتي! رأيته وقد عاد جلياً بلحظة دون جهدٍ يذكر، لعلّي أكثرت من الشرب لكن العجوز جيم مازال يعمل. هل أرسلتك S.T.C ؟

شعرت بالخزي من إجابتي الوقحة الأولى، شلَّ شعورٌ غريبٌ مواهبي المتواضعة بالتحرّي: الاحترام. فكرت بسؤاله ونسيت شرط السرية بعقدي، قدمت له الحقيقة جزئية:

- ليس بشكل مباشر، أنا أعمل لحساب عائلته.

- توخى الحذر، أيها الشاب، حتى ولو طوى سلاحه، توخى منه الحذر ومن كل من يدور في فلكه.

وعدته بتوخّي الحذر، كنا عند الموقف، تنعشنا نسماتٌ رطبة.

- لا تنسى القاعدة الذهبية: مع هؤلاء الناس يا بني لا يأتِ شيء محض صدفة.

وصل إلى سيارته وعثر على مفاتيحه:

- لم أقل لك أن كولبيرت قد بعثر حياتي هباءً لأن ذلك غير صحيح. لقد وصلت وحدي لما أنا فيه. أيها العاهر، لماذا أقول لك كل ذلك وأنا لا أعرفك حتى يا فتى... ولكن لو لم يرى العمل من أجل كولبيرت النور لما كنت هنا هذا المساء. أتفهم ما أعني؟.

أكدت له أن الفكرة واضحة.

- اعتنِ بنفسك، يا بني. لست بالقوة الكافية، يمكنني مساعدتك للخروج من هذه الورطة... ولكنك ستتابع، أراهن؟

- لابد من ذلك.

Twitter: @ketab_n

- كنت لتحبطني لو قلت شيئاً آخر.

حملت نفحةٌ بحرية عبق الملح والشجر من الجزر المحيطة بالقناة. لقد أخذت إنذاره على محمل الجد ولكن يجب التوقف وأدعه يذهب للنوم.

- "جيم. لو استجد معي شيء، هل يمكنني أن أكلمك؟

- لا تتردد! هناك حسابٌ قديم بيني وبين كولبيرت عليَّ أن أصفّيه، بكل سرور. بعد ثلاثين وبضعة أعوام ولكن بكل سرور. هيا، وداعاً يا صاح".

انطلق أخيراً، استدار ولامس حافة الرصيف ثم غاب في جنح الليل بسرعة بدت لي خرقاء.

سرت لبرهة على الرصيف المقفر، دخل آخر قارب صيد في المضيق بين الجزر. تدرّجت في صورة توماس كولبيرت ألوانٌ غير متوقعة.

Twitter: @ketab_n

- ٥ -

ما الكيمياء التي سأقتحم فيها صدى هذه القصة؟ لاشك أن توماس كولبيرت لعب دوراً أساسياً في ذاك الرسو. وأنا متى سيتسنّى لي أن ألقي النرد على طاولة القدر؟

ماذا يمكن لشابٍ لبناني من كاليفورنيا أن يقول لهذا المليادير الفرنسي؟ أو ما عساه يحمل لأرملته؟

إنني في مواجهة لغزين لا لغز واحد وعليّ أن أعير انتباهي للأول كما للثاني وأن أتعلّم كيف أميّز بينهما. لم أعرف بعد كيف أحلّهما ولكن رويداً رويداً سأتجاوزهما.. اللغز الأول لماذا ومتى ولمن أختار صاحب الشركة أن يكتب هذا الاعتراف الظاهري الصعب والمتأخر وعديم النفع. أما اللغز الثاني فيقوم على معرفة لماذا تتحرى هيلين كولبيرت عن زوجها المرحوم عن طريقي؟

قادني البحث إلى باريس حيث قضيت ثلاثة أيامٍ أهيم في مواقع خاطئة موصدة الأبواب قبل أن أكتشف أخيراً وجود نقشٍ بحري.

لن تنال الإدارة الفرنسية يوماً حقها من الأبهة، منذ أكثر من ثلاثة عقود وهي تعد كل البحارة في إبحاراتهم المتتالية. قد تندلع حرباً على حين غرّة وفي أي وقت لذلك كان يستوجب معرفة إلى أين يبحر هؤلاء الرجال ليتم اللحاق بهم بالسرعة القصوى. يتم حصر الحالة الخدمية، تجارة أو صيد، في بطاقاتٍ من الورق المقوّى من العقد الأول كنوتي حتى عمر الستين.

شرحت لهم البحث الذي كلّفت به، فطلب إليّ تحرير وثيقة وفاة وتصريح من الأرملة.

زودني توكر الذي أطلبه للنجدة خلال النهار بالمفاتيح المطلوبة، لفتت نظري فعاليته وأكثر منها سرعته بتعبيد طريقي.

Twitter: @ketab_n

لقّم الساعي اسم توماس كولبيرت لجهازه فلم يظهر على الشاشة سوى اسم واحد.

بعد مضي ساعتين، أعطاني الملف وتركني وحدي في قاعة المطالعة المزيّنة بأشرعة لواقعات بحرية كبيرة مضاءة بمصابيح حمراء بضبابية الغرق.

توماس كولبيرت.

ولد في الثالث من آب عام ١٩٢٧ في بواتيي من أب مجهول والأم جان كولبيرت. الطول ١٦٩سم، الوزن ٦٥كغ، شعر بني وعينان سوداوان وفمٍ صغير، جبين مرتفع وذقنٌ بيضوية، لا علامات مميزة.

يمكن لهذه البيانات الوصفية التي لا صورة ترافقها أن تشير لأي كان، ثم قُدّم في الملف ملخصٌ عن سيرته العملية.

تم تسجيله كنوتي في الثامن من كانون الثاني عام ١٩٤٦ في بريست، حصل على شهادة ملاّح في الحادي عشر من حزيران ١٩٤٧.

١- أبحر من مدينة "هافر" في الريف الساحلي، ملاّح دون اختصاص، رسو في مرسيليا والسويس وديفوسواريز وبيروت...

(بيروت، مسقط رأسي.بمجرد ذكر اسم بيروت تعتريني الرعشة وأستحضر غصن شجرة التين. كان عمري ثلاثة أو أربعة أعوام، ربما في حديقة منزلنا؟ لابد أنني كنت أبكي وأضرب الأرض بقدمي وأنا في أحضان أمي أو إحدى قريباتي. أمام عيني الجاحظتين تتراقص ورقةٌ مسننةٌ مبرنقةٌ وزغبية تغطي تحتها ورقةٌ أصغر منها وبينهما يطلّ شموط بنفسجي كثيف اللب، وتينةٌ ناضجة بعيدة المنال. تتلألأ على أطرافها قطرة عصير. بكيت: ترى هل لدغتني نحلة؟ هل أثار حفيظتي أن يداي لم تكونا بالطول الكافي لتطالا الفاكهة الشهية؟ أم كنت أشعر بتحركات الرحيل دون عودة وحاولت التشبّث بهذا الغصن الهزيل؟ لا أعرف ولا أذكر أكثر من ذلك وفي الحقيقة لم أجرؤ أن أسأل والدتي

Twitter: @ketab_n

تحديد المشهد بدقة خشية أن أؤجج ذكريات أكثر خطورة. بيروت: دموعي أمام شجرة التين).

... الجزائر العاصمة، مرسيليا، فورت دوفرانس، هافر، سوثامبتون، هافر، فورد دوفرانس، هافر.

٢- إبحار في ٢٠ كانون الأول من عام ١٩٤٧ من Altaïr (تجهيز سفينة ستيلا ماري Stella Maris): ملاّح دون اختصاص. رسو في باناما، سان فرانسيسكو، فانكوفر، سان فرانسيسكو، بابيت، باناما، أنفيرس، ساوثامبتون، هافر.

٣- إبحار في الثالث عشر من آب عام ١٩٤٨، القبطان " بوديسان" (الريف الجنوبي للملاحة): ملاّح اختصاصي (كهربائي)، رسو في الجزائر العاصمة، السويس، مادراس، هانوي، سايغون، هونغ كونغ، سينغابور، بورغ تاباج، ليشبونة، فورت دوفرانس ونيويورك.

غادر في ميناء نيويورك في ٢٥ آذار ١٩٤٩.

إذاً، رسا توماس كولبيرت في بورغ تاباج حيث تطل المدينة العالية على الميناء. سألت الموظف المستلم إن كان بوسعي الحصول على معلومات أكثر، فأرسلني إلى أرشيف أصحاب السفن، غادر الملاح كولبرت من سفينة شحن في الريف الجنوبي للملاحة والتي لم تعد موجودة. أجرى اتصالين هاتفيين، ووضح لي أن هذه الشركة انضمت إلى الشركة العامة في مرسيليا.

شكرته وانطلقت في اليوم التالي إلى مرسيليا. شرحت الخطوة التي أقوم بها وقدّمت أوراق الاعتماد. تم إرسالي من مكتبٍ لآخر حتى عثرت على مسؤولة الأرشيف وهي شابةٌ تضجُ بالحيوية. شرحت قضيتي، فطلبت إليّ أن أعود في اليوم التالي. نكشت ملف توماس كولبيرت وكذلك الصحف البحرية الخاصة بالقبطان بوديسين في الفترة المطلوبة، أمرٌ ما فكّرت بطلبه. بالحقيقة، كان الملف إدارياً بامتياز: إبحارٌ في ١٣ آذار

Twitter: @ketab_n

١٩٤٨، عقد، بيانات وصفية، وضع الأعمال السابقة، السجل الطبي، ثم تقريراً مختصراً حرّره الربّان في ٢٧ آذار ١٩٤٩ لصالح الجمعية الملاحية والقنصل العام التابع لفرنسا في نيويورك. غادر الملاّح الكهربائي متن السفينة في ٢٥ آذار ١٩٤٩ ولم يظهر من جديد. تم تأجيل الإبحار من ٢٦ إلى ٢٧ صباحاً ولكن عبثاً. بما أن وجوده لم يكن ضرورياً لأمن السفينة، قرّر الربّان ركوب البحر وإعلان تخلّفه. كما أشار إلى أن أوراقه وأشياءه الخاصة قد اختفت مما يشير لهروب مخطط له.

كما أشارت رسالة القنصل العام للجمعية في ٢٤ نيسان ١٩٤٩ أن بحث الشرطة الجاري بطلبٍ منه في الإسعاف والمشافي لم يتمخض عن نتيجة.

وهكذا فُقدَ الأثر الإداري للبحّار كولبيرت.

أظهرت قراءة تلك الصحف البحرية أنه خلال الأشهر الستة التي كان فيها كولبيرت على متن هذه السفينة الشاحنة المختلطة، أبدى ارتياحاً ورضى. كما يشير تقرير معاون الربّان إلى سلوكه الشجاع في مواجهة حريقٍ اندلع في المطبخ، فحصل على سلفةٍ طلبها على الراتب. كما سجلت بضع مشاكل تهذيب في الموانئ.

مادراس ١٣ تشرين الثاني ١٩٤٨ : تأخر الملاّحين لوسكان وكولبيرت بالعودة إلى متن السفينة.

سايغون ٢٧ تشرين الثاني ١٩٤٨ : تأخير لوسكان وكيرفال وكولبيرت عن النداء، عودة كيرفال ثمل.

هونغ كونغ ٤ كانون الأول ١٩٤٨ : محاولة البحار كولبيرت تهريب كحول ودخان إلى متن السفينة، شكوك تدور حول لوسكان بتشكيل عصابة ولكن لا أدلة.

سينغابور ١٦ كانون الأول ١٩٤٨ : تأخير ووقاحة كلٌ من البحار لوسكان وبرونتي وكولبيرت وفان واترز - عاد هذا الأخير ثملاً للمرة الثانية.

Twitter: @ketab_n

بورغ تاباج ١٩ كانون الثاني ١٩٤٩ : تأخير خطير في العودة من اليابسة لكلٍ من لوسكان وكولبيرت كما عادا بثيابٍ مهملة بل ممزقة. التنبيه الأخير لكليهما! توبيخ لوسكان على الدور السيء الذي يلعبه في سلوك الشاب كولبيرت.

لم يذكر لاحقاً أي شيء بهذا الخصوص، بعد رسو في بورغ تاباج، عادت حياة الرئيس بوديسيني لمجراها الهادئ حتى ٥ آذار.

ذاك اليوم في عرض المحيط الأطلسي ما بين ليشبونة وفورت دوفرانس سُجّل افتراض وفاة البحّار لوسكان، لابد أنه وقع في البحر خلال الليل. أعطى أصحابه إنذاراً بغيابه بعد تخلّفه عن مكانه بالخدمة. لم يره أحدٌ عند تناول الفطور. استدار الرئيس بوديسيني ليبرء ذمته وأطلقت عمليات البحث استغرقت ست ساعات. لم تترك درجات حرارة المحيط الأطلسي في شهر آذار فرصة أمام ذاك البائس.

كانت تجمع أواصر الصداقة على ما يبدو مابين لوسكان وكولبيرت، بما أنهما يخرجان معاً خلال الرسو على اليابسة. كان عمر لوسكان يناهز اثنان وثلاثين عاماً لحظة وفاته. لعله كان بالنسبة له أخاً كبيراً أو قدوةً. أو شابٌ سيء متقد الذهن يجر صديقه الشاب إلى قضاياه المريبة.

ترى هل أثّر سقوط الصديق المفضّل لكولبيرت في البحر فيه لدرجة أن غادر مهنة البحار وهجرها؟ ولكن لماذا لم يهرب في فورت دوفرانس أول ميناء لامسه بعد المأساة؟ هل خشي أن يقبض عليه رجال الشرطة بسهولة؟ بالطبع يتمكن أن يختفي في نيويورك ويتلاشى بين الزحام فلا يتمكن أياً كان من العثور عليه. بالكاد يشكّل فرار بحار اختصاصي "كهربائي" حدثاً بل لعله عرقلةٌ اعتيادية.

بحثت في سجلات الضرائب الممرغة بالغبار في ولاية نيويورك فعلمت أن بحاران فرنسيان من سفينة "الرئيس بوديسين" قد ساهما في شركاته الأولى.

Twitter: @ketab_n

لوسكان وكولبيرت معاً في بورغ تاباج خلال الرسو. سجلت التواريخ ١٧ و١٨ و١٩ كانون الثاني عام ١٩٤٩، الحمولة: خشب استوائي، خام نحاس كما سجلت اسم الربان والضباط والطاقم. أجريت اتصالاً إلى باريس لتصلني معلومات بعد ثلاث ساعات أن جميعهم قد انتقلوا إلى رحمة الله منذ عشرة أو عشرين عاماً. ما من مسنّ لأتّجه وأسأله عن تلك الحقبة المنسية.

طلبت ملف لوسكان من "سفينة الرئيس بوديسين"، عارضت مسؤولة الأرشيف وقالت أنني لست موكلاً من أحد أفراد عائلته. حاولت إقناعها ورجوتها ثم ذكّرتها بساعاتٍ أقضيها في الطائرة لأصل إليها نجحت بالحصول على ضحكة ،وافقت أن تترك ملف لوسكان على مكتبها أثناء استراحتها. لكن لم أستخرج أي معلومة مميزة من هذه البطاقات المسجلة: الولادة في دونكيرك عام ١٩١٧، جُنّد في ١٩٣٩ وعاد إلى الحياة المدنية بعد غرق الأسطول في تولون، سلسلة من الإبحار، الوفاة في ٥ آذار ١٩٤٩.

بعد زمنٍ طويل، حين أمسك توماس كولبيرت بريشته لم يذكر بداياته في نيويورك ولا ولادة شركته ولم يتحدث عن مهنته كبحّار ولا عن الرسو في أرجاء المحيطات ولا الحادث المأساوي الذي تعرّض له صاحبه. يخفي النص اسمه وكانون الثاني ١٩٤٩ وبورغ تاباج ولا يلقي الضوء إلا على تلك الدعوة وذاك الشارع وتلك الغرفة وتلك المرأة التي وهبته نفسها.

٥

Twitter: @ketab_n

- ٦ -

طلب أحد الأطباء توماس كولبيرت للعمل بينما كان في حانة في بورغ تاباج. عليَّ أن أحظى بأحد زملائه ليغوص في ذكريات الخمسينيات علّه يؤكد لي شكوكي.

اتجهت خبط عشواء إلى أطباء نسائيين على رأس عملهم. أثارت صفة الروائي، التي اغتصبتها بلا حياء، دماثةً لا توصف أو ربما داعبهم بصيصُ أملٍ مبهم بأن تظهر أسماؤهم على قائمة الشكر الطويلة.

ولكن حين أتيت على ذكر المعارف العلمية والأخلاق والعادات وطرق الحياة والتفكير وأدبيات المهنة منذ نصف قرنٍ مضى، قوبلت بالإجابة نفسها حتى من الأكثر حماساً: طرأ على مهنة الطب تغيراتٌ جذرية...

يمكنني من الآن فصاعداً الحصول على عناوين لأساتذة موقرين، هم من أهلّهم، عسى أحصل على موافقتهم. حملت قائمة العنوان وجبتُ من "نانت" إلى "ليل" ومن "بورج" إلى "ريم"، يساورني الشك بأن يفتح أولئك المتقاعدون بابهم لشابٍ أرسله ذاك الطالب القديم أو ذاك.

الأول كان طاعناً بالسن، الثاني كان يمتثل بالطقوس الكاثوليكية التقليدية إلى أبعد حد، حيث كان يعالج العقم بالتساعية[1]. أما الثالث فرفض أن يفتح لي بابه بل وهدد باستدعاء الشرطة. استوعب الرابع أسئلتي بشكلٍ جيد وأنكر بكل هدوء معرفته أي شيء بهذا الخصوص. ماذا أفعل وكيف أغيّر نكرانه المهذّب؟

الخامس كان أصمّاً كالجدار وشرع يروي لي تفاصيل عملية استئصال الرحم. أما عنوان السادس فلم يكن مطابقاً لأي عنوان فهو مرآبٌ في منطقة صناعية.

---

1 - تُساعية: طقوسُ تقوية لمدة تسعة أيام.

Twitter: @ketab_n

كان السابع هو الجيد.

وصلت إلى ديجون صباحاً، تناولت طعام الغداء أثناء نزهتي ثم كنت على الموعد كما اتفقت باتصال هاتفي مع سيدةٍ عجوز ردّت بصوتٍ ضعيف: "حوالي الساعة الثالثة بعد القيلولة".

حافظ الدكتور "غرامونت" على هيئته الوقورة بعمر يناهز الثمانين عاماً. شعره أبيضٌ حسن التسريح وبزةٌ رمادية مع وسام شرف في عروة القميص وربطة عنقٍ غامقة اللون، تفرض شخصيته انطباعاً بالنفوذ رغم قامته القصيرة بينما يثبت صوته الناعم النقيض تماماً.

شرع بالكلام قائلاً: "سيدي، لقد أثار اتصالك فضولي. أتبحث عن طبيب نسائي لمناقشة الماضي، أليس كذلك؟

- نعم، أيها الدكتور، أشكر استقبالك لي، أنا أحرّر روايتي الثانية.

أصغى إليَّ دون أن ترفّ عيناه ولم يصدّقني. بدت روايتي الصغيرة مخادعةً أمام ناظريه فتشظّت وأصبحت مضحكةً ومؤسفة. لم يتفوّه بكلمة. تأمّلني وأنا أكذب..

أدرك أحد الشخصيات بعد عدة سنواتٍ من الزواج أنه عقيمٌ. والأمر هام بالنسبة لحبه لذاته ولمكانته ضمن إرثٍ وفير أن ينجب ، وهو الابن البكر، طفلاً قبل أخيه الأصغر سناً الذي سيُعقد قرانه عما قريب. جرى كل ذلك في أوساط البرجوازية التي عاشت في الخمسينيات. زوجته كانت مصرَّة مثله كما كانت تشعر بأن العقم منه وليس منها. طلبا استشارةً وعبّرا عن رغبتهما بإنجاب طفل، تخيل أننا عام ١٩٥٢ أو ١٩٥٣ وأنت في عيادتك. عمره حوالي أربعين عاماً وعمرها يناهز الثلاثين عاماً، ماذا كنت لتقول لهما؟

طلبت منا السيدة العجوز التي فتحت لي الباب الانتقال إلى غرفة استقبالٍ ضمن المكتبة. تلاشى وقع الخطى وكل الضجيج في السجاد وواقية النار النسيجية والستائر وغطاء الطاولة السميك والواقيات

Twitter: @ketab_n

والساتر الشرقي الغافي في الزاوية، قاومت في أعماق أريكةٍ من الجلد المهترئ النعاس الذي أطبق على جفني على حين غرّة.

فكّر الدكتور بسؤالي في صمتٍ تكسره تكتكة ساعة صغيرة من الميشور أعلى الموقد.

"لم تكن عيادتي قد فتحت أبوابها منذ زمن طويل عام ١٩٥٢. ولكن كنت سأحدد أولاً أصل المشكلة. تحليلٌ مجهري للسائل المنوي الخاص بالزوج قد يوجهنا"..

- أجري هذا التحليل وأظهرت النتائج دون شك: لا ينتج الزوج حيواناتٍ منوية.

- في هذه الحالة، سأكون عاجزاً عن فعل شيء، فليفكّرا بالتبنّي.

- كلا، إنهما يريدان طفلاً لهما، طفلاً تحمله الأم في أحشائها.

لم أجرؤ في هذا المجال أن أخاطر بعبارة أكثر وضوحاً.

- لا أجدُ... في الوقت الحالي يمكن للعلم أن... ولكن في تلك الحقبة...

- ألا يوجد حل أمام هذين الزوجين سوى بالعلم؟ إنك ترى يأسهما وألمهما، وتعلم أنهما أثرياء. أليس لديك اقتراح لهما؟ لا أسألك إن كنت قد واجهت حالةً كهذه، جلّ آمالي أن أعرف بفضل عونك القيّم ما قد تكون احتمالات الإجابة التي قد تقدمها حضرتك أو أحد زملائك الأقل تردداً.

- هذا ما فهمت من سؤالك.

اعتلت الحمرة وجنتي كما لو أنني قد تفوهت بحماقةٍ، مما أثار سخريته.

- اسمع يا عزيزي، جئت تستشيرني عام ١٩٥٢، ليس لدي ما أقترح، في أعماقك إنك لا ترغب أن يصدر الجواب من فم طبيبٍ في ديجون، الشيء الوحيد الذي يسعني القيام به هو إرسالك إلى زميلٍ لي أبعد قليلاً في فالانس أو ميتز مثلاً.

Twitter: @ketab_n

كان ينظر إليَّ بإلحاح وهو يتحدث بصوتٍ رنّان، لا يعبر وجهه عن أي انفعال. ولم يشر إليَّ بأن الحديث قد انتهى.

- أستميحك عذراً، أنا هو الزوج العقيم ماذا أفعل غير ذلك؟

لا يمكنني أن أبقى هناك، صالب ذراعيه وانتظر، هل عليّ أن أسأله عن اسم أحد زملائه الذي قد اتجه إليهم؟ احتمال أن أعثر عليهم وأحصل على اعترافات يكاد يكون معدوماً.

حسناً، لست من ديجون بل من ميتز أو من فالانس وأرسلني طبيب العائلة إليك. وصلت إلى ديجون، لا أعرف فيها أحداً، ووضعت مستقبل زواجي بين يديك، أقصد بين يدي طبيب نسائي في الخمسينيات.

رسم ابتسامةً على محيّاه وصالب ساقيه.

في هذا المجال، لدي دون شك ما أقول لك، سألمّح قليلاً لتتنبه أن الحل سيكلّف غالياً وسيكون صارماً.

- هيا يا دكتور أنا جاهز لسماع أي حل.

- نعلم أن العقم سببه الرجل لا المرأة ونعلم بمساعدة تقويم أيام الدورة الشهرية في أي فترة تكون فرصة خصوبة المرأة بأوجها، لنقل لتسهيل الأمر في الجزء الثاني من الفترة الطمثية. هناك حلٌ متوقعٌ، في حال كنت مستعداً لتضحيةٍ جسيمةٍ كهذه - أقصد كزوج.

- حسناً؟

- لقد حدث واستقبلت أشخاصاً بمثل وضعك. سأحاول العثور على رجل أسمر مثلك وله نفس القوام. سأتحقق من أن صحته جيدة. لجأ بعض الأزواج فيما مضى لمثل هذا الحل. لن يمضي الرجل مع زوجتك سوى الزمن اللازم جداً. لن يأتي إلا ليسدي خدمة فريدةً لأبعد حد، لا لأيّ غرضٍ آخر وهو يعلم. يمكن لزوجتك أن تتقنع وتتحجب وتتغطى ما أمكنها. ويجب فيما بعد أن يحاولا نسيان ما جرى. بعد أول محاولة أو بعد الثانية على الأكثر سيكون الحمل مؤكداً. بعد انقضاء تسعة أشهر

Twitter: @ketab_n

من سيذكر تلك الرحلة الملائمة إلى ديجون؟ هذا هو الحل الذي يمكن اقتراحه، ليس أنا من أقترحه طبعاً، فلا يمكن لأحدٍ أن يقول لك أنه يُسهِّل لقاءات كهذه. والأزواج الذين لاذوا بهذا الحل منذ زمن بعيد، لهم الحق في ألا يعلم أحدٌ شيئاً عمّا جرى.

ابتهجتُ، أخيراً انفلقت الصخرة لنصفين، أخيراً سأكشف النقاب عن السر.

- وكيف يتم اختيار الشاب؟

- بعناية وسريّة، رجالاً يتمتعون بصحة جيدة، شقرٌ أو سمرٌ، طويلي القامة أو قصيروها، عازبين حتماً، بعمر الشباب وأذكياء أيضاً، لكي يدركوا خطورة الرهان ويحترموا القواعد: الصمت والبقاء مجهولاً واللطافة الضرورية. أناسٌ من العامة، تهمّهم المكافأة. خدمٌ في مزرعة، عساكر، بائعين، ميكانيكيين، عمّال أو نجّارين، أناسٌ في ضنكٍ من الجيش يحصلون على يوم إجازة ثم يتجهون إلى الحمامات المركزية ويرتدون ملابس نظيفة، ليتم الأمر في فندقٍ صغيرٍ بسيطٍ وهادئ قرب محطة القطار. يحضر الطبيب الذي نظّم لهذا اللقاء ويضع المرأة في غرفة والرجل في الغرفة الأخرى ثم يفتح باب الاتصال بينهما.

- والزوج؟

- نحن أمام كافّة الاحتمالات بردود الأفعال، منهم من يأمّون الحانة ويشربون حتى الثمالة، ومنهم من يأتي لرؤية الشاب وأحياناً ليروه أثناء الممارسة ولكن يجب ثني عزيمته عن هذه الفكرة السيئة. منهم من يضاجعون نسائهن بعد ذلك فوراً، لكي يكون الأب أباً إلى حدٍ ما مما يضفي شكوكاً حول الأبوية وبالطبع يُخلق الشك.

- ألم تحدث مشاكل أو حوادث؟

- بلى، بالطبع. أزواجاً تخلّفوا عن الموعد ونساءً رفضن في اللحظة الأخيرة وهنا يجب أن يسلك الشاب كرجلٍ محترم... لمرتين أو ثلاث

Twitter: @ketab_n

مرات تخلّف الشاب عن الموعد. حدث أن رفض الزوج الشاب واعتبره أنه مختلفٌ جداً عنه فحسب ألا يشبهه الطفل في شيء. لكن الزمن كفيلٌ بحل كل شيء وكذلك الملامسة والمال. يعاني هذان الزوجان البائسان المجروحان ،يدرك الشبان هذا فيحاولون القيام بالمطلوب بسريةٍ تامة، حتى بالنسبة لهم لن يكون الأمر بهذه السهولة، فربما ينتج عن هذا اللقاء أطفالٌ لن يروهم أبداً ولن يعرفوا عنهم شيئاً، سيقدمون على ذلك مقابل المال لكن المال لا يشتري كل شيء.

- وكيف تطلبون منهم هذا العمل؟

- ليس بالأمر السهل. بعض الأطباء وفي أغلب الحالات يلمحون صدفةً حسب الحاجة للمال أو أحياناً يشير من يتوقف لشخصٍ يحل محله، لابد أن يكونوا - لا أجرؤ على القول - حسب الصور ولكن لابد أن يتحلّوا بجسدٍ مميز طويل القامة وعينان ملونتان وشعرٍ جميل. يستحوذ كل موعدٍ على اهتمام خاص يمتزج بمشاعر ودية عذبة. بعدها يذهبون - كما يقال - كلٌ في حال سبيله إلى فالانس أو ميتز أو إلى ديجون ولن يتحدث أحدٌ عن شيء.

دخلت السيدة العجوز بهدوء وبإشارةٍ من زوجها قدمت لكلٍ منّا فنجاناً من البابونج ثم انسحبت.. هل ساورها الشك بموضوع حديثنا؟ هل كانت تعرف؟

(كان يتردد من وقتٍ لآخر رجالٌ ذوو وجوه معتمة إلى منزلنا، يغلقون على أنفسهم الباب مع والدي في مكتبه. علينا أن نتحاشى إصدار ضجيجٍ أو إزعاجهم ولو قليلاً.

قبل أن نخلد للنوم، يحمل أخي صينية مع كؤوس وأنا أقدّم الحلوى. تتوقف أحاديثهم لدى دخولنا ونحن نضع بزهوٍ الضيافة على الطاولة ويكافئنا والدي بابتسامة أبوية. أحياناً يطبطب أحد الرجال ذوي الوجوه المعتمة على رأسي بشكلٍ عابثٍ ويثني عليّ ثم يسود الصمت ريثما نخرج.

Twitter: @ketab_n

لم أكن أتساءل عما كان يتحدث أولئك المجهولون مع والدي، لكن الأولوية التي يقدمها لهم كانت تثير الغيرة في نفسي.

عانيت لوقت طويل حتى أفهم أن آباء أصحابي في المدرسة لم تكن لديهم مثل هذه الزيارات).

- إذا رتّب لمثل هذا الموعد وفي اللحظة الأخيرة تخلّف الشاب، هل يتوجب على الطبيب إعادة كل شيء والبحث عن بديلٍ في اللحظة الأخيرة؟

احتسى الدكتور بعضاً من المغلي ليفكّر كيف يصيغ جوابه.

- أنا متشوّقٌ لقراءة روايتك. يبدو لي من الصعب إيقاف شخصٍ في الشارع لتقول له دون مقدمات: تنتظرك امرأة في غرفة في الفندق لتتعرّف عليها بشكلٍ توراتي مقابل مبلغٍ جيد. سيعتبرون أنك مجنونٌ أو شاذ. سيحالفك الحظ بمن يهشّم وجهك قبل أن تقع على مجهولٍ يقبل بفك حزامه. كلا، يجب التأجيل.

- وهل حقاً يقدم ثوابٌ جيد على هذا؟

- ليس هناك تعرفة نقابية، إنه يكلّف الزوجان غالياً، يحصل الطبيب على مبلغ، إذ تناط بكاهله مسؤوليات جسام، فبإمكانك تصوّر ردّة فعل مجلس النظام إن شيع الخبر. أما بالنسبة للشاب فهو مبلغٌ جيد مقابل ربع ساعة عظيمة من... من العمل، إن كان باستطاعتي القول. ليس لدي رقمٌ في ذاكرتي.. إلا أنني أذكر أن أحدهم قبل بالمهمة مقابل ثمن دراجة، فعلاً وبعد ثلاث لقاءات، دُفع ثمن الدراجة ولم أره مجدداً. يدفع الطبيب المال للشاب لدى خروجه. حدث ذات مرة أن عاد الزوج لمقابلتي بعد عامٍ تقريباً كي أرسل شيك لصديق زميلي في ميتز أو فالانس،لكن التعليمات جائتني بالرفض. مكافأة الولادة جارحة - مكافأة النتائج - بل ومؤلمة. وما نفع أن تؤكد للشاب ولادة طفلٍ لن يتمكن يوماً من معرفته أو المطالبة به أو ضمّه بين ذراعيه؟

Twitter: @ketab_n

من الأفضل ألا يعرف شيئاً، ذاك أفضل لكل الناس. من الأفضل أن ينسى الجميع الموضوع. هل حقاً تم السفر إلى فالانس؟ الشيء المهم هو أن يترعرع المولود الأول في كنف عائلةٍ.

فكر للحظة وتابع:

- ما نقوله الآن أمرٌ عرفته النسوة على مر العصور. قبل التخصيب بطفل الأنبوب وبنك النطاف وقبل تفهم الأطباء، لطالما لجأت نساء الرجال العقيمين لحل: الخيانة، خيانة لهدفٍ سامٍ. ترتمي في أحضان شابٍ وسيمٍ غريب تمضي عدة ليالي حب مجنونة مع فريستها القوي ثم تقطع الاتصال إلى الأبد وتضرع إلى الله أن يمر الأمر بسلام. ولكن يا للخطورة ! أن تباغت متلبسةً عن سبق الإصرار أو أن تقع مع مصاب بالسفلس أو أن يتفاقم مزاجها العاطفي في قصص الحب الكبيرة وتبدأ بكتابة الرسائل. تدبر كل تلك الدسائس عبثاً، لم تحصل أبداً على طفل أو بالعكس تعجز عن إقناع زوجها بنزاهة هذا الحمل اليائس الحاصل أثناء معالجة في مدينة الماء... يقع على عاتقها اختيار التضحية وإلحاق العار بها ! الحل الذي اقترحه حديثٌ وصحيٌ وواضح لا رياء فيه ويقبل بها الزوجان برفقة الطبيب. حلٌ يخدش الأخلاق في البدء، ولكن ما هو الحل السليم لهذه المآسي العائلية؟ إذا كان بحوزة الطبيب جواب -كيف أقول هل يمكن بثّ الحياة- لمَ الرفض؟ بيده الجرعة لن يرفض بضع قطرات... أنت تعرف، لا يلقون بأنفسهم في خضم هكذا تجربة إلا بعد تفكيرٍ طويل.

هل لديك متسعٌ من الوقت؟

- كل الوقت، أيها الدكتور؟

- هل ترافقني في نزهتي.

نهض وأخذ معطفه من المدخل وقال لزوجته التي هرعت إليه أننا سنقوم بجولة. غيّر حديثه كلياً في الشارع وقام ببانوراما واسعة عن

Twitter: @ketab_n

منطقته منذ أيام شارل لوتيميرير[1]. يرد السلام بابتهاج عندما يحييه أحد المارة.

جلسنا في حانة وقال:

- سأسرد على مسامعك قصةً جرت منذ أكثر من ٢٠ عاماً، كنت على وشك التوقف عن مزاولة المهنة. طلب شابٌ مقابلتي وهو يلمح لموضوعٍ كهذا. استقبلته طوعاً وما إن وطأ غرفة الاستقبال حتى استشاط غضباً، خلت أنه سيحطم الأثاث وسنتشابك بالأيدي. نبهت الضوضاء زوجتي، أرادت الاتصال بالشرطة إلا أنني ثنيت عزمها. لابد أن نسمعه.

"كانت قصة حزينة، أخبرته والدته وهو في الخامسة والعشرين حقيقة عائلته. تزوجت برجلٍ ثري عاشقٍ عقيم من باب المصلحة. أدركت لاحقاً أن حقّه بالميراث هش ما لم يرزق بوَريث. لم تخف عنها عائلة الزوج التي استهجنت زواجهما ذلك. لاذ الزوجين لهذه الطريقة، فرأى مخاطبي النور، وبعد ٢٥ عاماً، طالب الزوج بالطلاق ليعقد قرانه على أمينة سر مكتبه المفعمة بالحيوية. فتحت الزوجة المهجورة كل أوراقها وحاربت من أجل النفقة فما كان منها إلا أن تبوح لابنها بسر ولادته. فجأةً لم يعد مديناً لذاك الرجل الذي طالما ناداه "بابا" إلا بالكنية وبعض الآمال الجدية، إن لم تبتلعها تلك المومس التي ستغدو زوجة أبيه وإن لم تلد توأمين من تلقيحٍ اصطناعي، لم تكن ترغب أن تفضح السر فقط بل أن تشدّه لصفّها. كما أنها أضافت على الرواية ما يجعله يعتقد أنها لم تكن موافقة ووصفت له المشهد كحادثة اغتصاب تقريباً. طلبت منه الصفح ودموع المأساة تنهمر من عينيها، اعترفت له لاويةً ذراعه أنها لطالما رغبت أن تبوح له بالحقيقة لكن تهديدات زوجها منعتها.

---

1 - الدوق الرابع والأخير لبورغوني في ديجون ١٤٣٣-١٤٧٧.

Twitter: @ketab_n

باختصار، أرادت أن تشوشه بشكل جدي وقد توصلت لمبتغاها تقريباً، في المشهد الثاني تركت اسمي كوسيط أو بالأحرى كشريك دنيء.

عندما هدأ من روعه، قدمت له القصة بشكلٍ أقل ميلودرامي وخاصةً مع قبول الزوجين. إلا أن فكرة سيطرة عليه وهي: العثور على والده الحقيقي. لماذا؟ أجهل السبب، ربما ليحدد نسبه الحقيقي، هذا على الأقل لا يهدد حصته بميراث والده والتي مازالت منطقية.

شرحت له أن الأمر مستحيل فلا أحتفظ بأرشفةٍ سرية في سقيفة منزلي، لا أدلة ولا مخاطرة بابتزاز أو إفشاء سر. لا يحتفظُ أحدٌ بسجلٍ لمثل هذا النوع من اللقاءات، بعد مضي أكثر من خمس وعشرين أو ثلاثين عاماً كيف نعثر على مارسيل أو لوسيان أو انطوان؟ ما طرحت السؤال على نفسي مهما بلغت رغبتي بمساعدته، فالجواب سيكون سلبياً لا محالة، حتى ولو حثتني أقوى إرادات الكون فليس بيدي حيلة.

بقي يائساً جداً، ظنّ أنني سآتي بقائمةٍ من الورق المقوّى وأعطه هوية والده الحقيقي ليعثر عليه في منزلٍ في الضاحية محاطاً بزوجته وأطفاله. قال لي معتقداً أنه وقع على البرهان المطلق:

"ولكن ماذا لو اقترنت بأختٍ لي!" الاحتمالات الجغرافية والاجتماعية تكاد تكون معدومة، انتهى به المطاف بقبول الواقع، كما أضفت أن والده البيولوجي لن يكون فخوراً بكسب النقود بهذه الطريقة ولم يعرف ما إن نتج طفلٌ عن ذاك اللقاء أم لا. مهاجمة شبابه وإلقاء النور على هذا الماضي الهارب لن يعود سوى بالإساءة والأذى للجميع".

خلصت بالقول: "هذه القضية ليس فيها سواك، وها أنتذا حكايتك أمامك، لا تحياها ضمن مكائد دسّها غيرك منذ زمن طويل، هل تصدقني؟ ثم غادر وهو يشكرني".

Twitter: @ketab_n

أفرغ الدكتور كأسه برشفة واحدة، حاولت أن أخمن ورطات تلك الحكاية في التحقيق الذي أجريه، تابع حديثه:

لن أنسى من كل أولئك الناس الذين يلقون عليّ التحية في الشارع ذاك الشاب البائس الذي جاء إلى هذا العالم. إنه لا يعلم ولن يعلم، يظن فقط أنه الابن الوحيد الذي ولد بعد سنوات طويلة من الزواج. يجهل الترنيمة الأصلية والتي من دونها لما رأى النور ولبقي مختبئاً مدى الحياة. أولئك الأزواج الذين منحوني ثقتهم لهم الحق بصمتي الأبدي - ذاك الصمت الأبدي الذي أدنو منه كل يوم رغم فناجين المغلي. ألتزم الصمت لأنه يجب عليّ التزام الصمت، السر الطبي. وخاصة أن البوح الذي قد أجاهر به لا يعود بالنفع لأحد.

استرقت التفكير خلسةً بالصمت المفروض ضمن بنود العقد الذي وقعته.

"أرأيت، لم أعد العب، كنت أستقبل الأزواج الذين يرسلهم زملائي وأعثر على الشبان المطلوبين وأدبر مواعيد، أنا فخور بعملي. أبطل تطوّر الطب هذه الوسيلة وهذا أفضل. ولو رجع الزمن لعدت لفعل ذلك، لقد حملت السعادة لخمسين أو ستين زوجاً وفتحت في وجههم سبل الحياة التي كانت موصدة".

حاولت مجازفةً أن أتملق له، لكنه لم يكن مغفلاً:

- لابد أن هؤلاء الأزواج قد كنّوا لك الامتنان مدى الحياة.

- كلا، يطوونني مع النسيان بأقصى سرعة، على كل حال، كنت أتمناه لهم، سيكابدون الكثير في صراعهم مع وساوسهم.

لم أتوصل لفهم المنطق العميق في هذه القضايا القديمة والسرية وتظاهرت بمتابعة ألغاز الدكتور.

- وساوس من أي نوع؟

Twitter: @ketab_n

- بالنسبة للرجل شكوك حول الشرف، لكن الشرف يحيا في النور في حين أن تلك اللحظة المقتضبة ستبقى طي الظلمات إلى الأبد.

- وبالنسبة للمرأة؟

- وساوس تتعلق بالدين. كنت أشير إلى أن هذا اللقاء لا يمت بصلة لخطيئة الشبق ويشدُ أزر غاية الزواج المسيحي وهي الإنجاب.

ابتسمت وأنا أتخيله يطرح براهينه وابتسم لي بدوره.

- يا لها من ذمةٍ رفيعة...

- أليس كذلك؟

- حين يراودني شك بأن حججي واهية، أضيف برهاناً لاهوتياً مفحماً. هل يحق ليسوع المسيح أن يحاسبها وهو لم يكن ابن جوزيف زوج والدته؟....

أخفض صوته لدرجة أنني بالكاد سمعت جملته الأخيرة بيد أنها صعقتني وبقيت مندهشاً للحظة وجامداً بعد أن أفحمني هول الصدمة.

- لكن هذا التقارب يعد بمثابة شتيمة.

- إلى حدٍّ ما، لكنني لم أكن أصيغ الجملة بهذه الفظاظة، لم يكن هدفي أن أسبب لهما الصدمة بل أن أقدّم لهما العون. كنَّ يصغين إليّ، لم يكنّ يرغبن بفهم تلميحاتي ولا إدراكها. لقد كان خيارهن، هنَّ وحدهنّ.

فكّر للحظة وناظراه معلّقان على انعكاس الزجاج الذي يلفَّ بين أنامله.

- لم تقل لي بعد لماذا أنت مهتم بهذه الطريقة، إنك بعد في مقتبل العمر حتى تبحث هكذا عن سر ولادتك..

- كلا، بالحقيقة، أنا الولد الثالث فلابد إذاً أنني وصلت بشكلٍ.. طبيعي.

- هل تكتب حقاً رواية؟ ما هو عنوان عملك الأول؟

Twitter: @ketab_n

ماذا أفعل؟ استسلمت. أكنّ للطبيب "غراموند" احتراماً فاجأني أنا نفسي وجعل قناعي مضحكاً.

- أنا آسف، لقد خمّنت، ليس عملي برواية بل تحقيق.

- هل أنت محققٌ خاص؟

- كلا، بل أجري بحثاً لعائلةٍ في الولايات المتحدة ولكن أتمنّى تفهمكم إذ لا يمكنني البوح بشيء، لا يحقُّ لي.

قاطعنا رجلٌ مسنٌ ألقى التحية بصوتٍ رنّان: "كيف حالك، أيها الزميل العزيز؟" ثم صافحنا بحرارة. ناسبني هذا التوقف المقتضب وأعطى لكلانا الوقت الكافي للتفكير.

- هكذا إذن، لقد دفعوا لك لتجمع معلومات أكثر حول هذه الطريقة الهاربة في بعض الذكريات ولماذا هذا الفضول عن زمنٍ ماضٍ وأسرار شديدة الخصوصية؟

ترى هل يمكنني أن أقول له أني أشاطره السؤال.

- لن تعرف ماذا ستجد إن كشفت النقاب عن هكذا مواعيد وهكذا ولادات. وازن ما بين الإيجابيات والسلبيات قبل أن تقدم على كشف المستور. المال لا يشتري كل شيء. يجب في بعض الأحيان أن تعرف متى تستسلم ومتى ترجح قيماً أخرى. إنني أكلمك بلغة لابد أنك لا تدركها حقاً ولكن كنت سألوم نفسي لو لم أقل لك. انتبه، انتبه لنفسك وللنتائج التي ستتوصل إليها.

لِمَ هذه اللهجة الرسمية المباغتة؟ لماذا هذا التحذير، على ضفاف أي نهر يلقي بي هذا الإنذار؟ كان عليَّ أن أجده فخماً في حين أنه دبَّ في قلبي خوفاً كنت قد تخلّيت عنه.

- كان بوسعك ألا تجيب على أسئلتي..

Twitter: @ketab_n

- ترددت ثم أدركتُ أنك تقفيت أثراً صحيحاً ورغبت بمعرفة سبب هذه الخطوة كما وددت ثمناً لبوحي أن أرغمك على الاستماع لتحذيراتي. هل سمعتها؟

- أعرف أنني لا أعرف كل شيء، كما أعلم أنني أعمل لصالح غيري ولكن ليس بحوزتي كل الأوراق.

فكرت بإجابتي وبدت مناسبةً، لكنه تابع:

- هل لديك أطفال.

- كلا.

- للأسف، ليس باستطاعتك فهم كل شيء.

ماذا يريد أن يقول لي؟

- لنعد إذا سمحت؟ سأثير قلق زوجتي.

عرضت عليه هباءً أن نستقل سيارة أجرة فالتعب نال منه على حين غرة وكأن هذا الحديث أثقل كاهله بمسؤولية إضافية عوض أن يزيح عنه ثقل أسرارٍ كتمها منذ وقتٍ طويل. إلا أنه آثر البقاء على الرصيف وأمسك بيدي بلا تكلّف.

بدأت هذه المغامرة منذ حوالي شهر، شهرٌ لم يفارقني فيه شعورُ الوهم.

ما معنى كل ذلك؟ أنا بيدقٌ ولكن ما شروط اللعبة؟ وعلى أي رقعة؟ هل يمكنني أن أتابع على هذا المنوال؟ هل بوسعي أن أتصرّف بشكلٍ مغاير؟ أعود بين موظفي أحد معارض مفروشات Zafar كمَخرجٍ وحيد من هذا النص ذي الثلاث صفحات الذي سيطر عليّ...

بدا الطبيب غرامون متردداً على عتبة منزله:

- ماذا لو طلبت منك أن تزودني بمجريات بحثك؟

- أخشى ألا يحق لي.

Twitter: @ketab_n

خلع معطفه، استأذنت وأنا أشكره فقاسني بنظراته وقال بالنهاية:

- أرجو ألا تخطئ الرهانات. غاب الشاب مع التاريخ بحوذته حفنةٌ من مال. كان له الخيار ألا يتحمل المسؤولية وأن يضحك ويبتلع المال الذي ربح. ما يهمني هما الزوجان فقط لا لأنهما من الأثرياء والشاب من الفقراء بل لأنهما المجروحان في هذه القصة ولن يخرجا منها معافايين كلياً، أخيراً أصبحا أماً وأباً لكنهما ميتان كلٌ بطريقته ولا يجرؤان على البوح بالأمر. الأبوة بالنسبة لكل رجلٍ فرحةٌ ومفاجأةٌ ووعد، وبالنسبة لأولئك الأزواج هي كل ذلك وهي أيضاً جرحٌ مجهول سيظلّ متقيحاً حتى الموت.

Twitter: @ketab_n

الجزء الثاني

العودة إلى بورغ تاباج

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

بورغ تاباج

كل حسنات الاستواء

دون أي عائق!

تربع البنيان الشهير بساحة ستراسبورغ محاطاً بأشجار النخيل وجكرندة[1] والجهنمية[2] أمام مرجٍ مرصعٍ بحجارةٍ من البازلت والذي أصبح على مرّ السنين كالكتدرائية أحد رموز المدينة.

لم تكن هذه الجملة الصغيرة الزاهية تميل للاستمرار ولا للبقاء هنا. رفضت هيئة التنظيم اللافتة التي تخيلها حاكم "جاي انزيس" لجناح المعرض الاستعماري إذ رأت فيها نقداً للمستعمرات الأخرى الأكثر نفعاً. طلب الحاكم في برقيةٍ لاقت شهرةً، تحكيم الوزير ولكن لم يلقَ جواباً. أبحر الصرح الخشبي على متن باخرة "بروفانس" دون أي رسالة. في يوم افتتاح معرض "فانسن Vincennes" نصب الحاكم نقشه في ساحة ستراسبورغ محاطاً بحقول السِّباخ[3].

صفقت كل المدينة رياءً، وعندما انتهت احتفالات العاصمة، اتجه وفدٌ من المجلس البلدي إلى الحاكم رجاءً منه أن يبقي النقش في الساحة. برج إيفل الذي شُيِّدَ مؤقتاً من أجل معرض عالمي ألا يحمل بكل فخر ومنذ أربعين عاماً العلم ثلاثي الألوان؟ وافق الحاكم وشيّد ميدان. منذ ذلك الحين ويشكّل هذا الصرح المترف خلفيةً لصور الزفاف.

لم يتغيّر شيء غير أن هذه الأكوام المزهرة بحاجةٍ للتقليم والسقاية. عندما دققت النظر لاحظت آثار طلقات عند الزاوية اليمينية الداخلية

---

1 - جكرندة: شجرة أمريكية استوائية يؤخذ منها خشبٌ نفيس.

2 - جهنمية: جنبة متعرشة للتزيين من فصيلة الشبيات.

3 - السباخة: زراعة البقول في الأرض السبخة أي المالحة.

Twitter: @ketab_n

حيث تساقط الدهان الأبيض. يصعُب إضفاء قيمة استراتيجية لهذه اللافتة. أي مناضل من أي حزبٍ كان يتحلّى بروح دعابة عالٍ لدرجة أن أطلق رشقةً من رشاش على يقين حاكم جاي انزيس؟

مازال المقهى الكبير "غراند كافي" غافياً في شارع باريس مع انتصاف النهار. لم تستقبل الطاولات والكراسي المجدولة بالخيزران سوى ما ندر من عشّاق. تحرك مراوحٌ نحاسية ببطء هواءً منعشاً. مكتب الاستقبال لامعٌ مصنوعٌ من خشب الدلب الهندي، تنتظر الصحف على أعمدة خشبية طويلة أسفل المرآة كما في فيينا. يضفي الذهب الباهت ألقاً على تلك الشجرة الشاسعة بسحرها المعتق. يؤثر السياح الشرفة الظليلة. هنا تجرعت كؤوس الفشل، هنا في ملاذي حيث تصببت عرقاً بعد جولة طويلة في شوارع المركز بحثاً عن نُدب اضطرابات حديثة على الواجهات. عبثاً أجريت هذا البحث الفاحش مدركاً فحشائه بدت لي المدينة متصنّعةً، كل ما فيها ناصع. ما من بناء مميز. تنوف عدة مناظر سارة على البحر أو الحديقة وتخطفني نسمة بحرية عليلةٌ فاتنة. لم أفارق المدينة العالية.

- هلا سمحت لي أن أقدم لك فنجان قهوة؟

رفعت ناظري عن رواية حديثة بعد أن أُرهقت من سحر دليلي السياحي الباهت. رأيت رجلاً مسناً يرتدي طقماً وربطة عنق رغم الحرّ الملحوظ، اقترب منّي وانحنى قليلاً إلى الأمام وهو يبتسم في وجهي بقليل من العاطفة والحياء.

- ... أو لو شئت شيء آخر، اعتذر عن تدخلي إلا أنني لاحظت أنك وحدك وحزرت أنك قادمٌ من فرنسا.

- هل هذا جليٌ للعيان؟

- بآلاف التفاصيل. من يقرأ كتاباً سميكاً كهذا ويجلس بمفرده لا يمكن أن يكون سيئاً.

Twitter: @ketab_n

- أبداً. شكراً على القهوة.

طلب الرجل المسنّ الأنيق طلبه وجلس.

- بات الفرنسيون القادمون من فرنسا نادرين جداً في السنوات الأخيرة.

اعتذرت بابتسامة وقلت:

- بالحقيقة، أنا لبناني من كاليفورنيا..

أدركت أني جرّدته من متعة الأدلة أو المرافعة الجاهزة للاستخدام. جحظت عيناه كعالم نبات اكتشف وجود سحلبيةٍ[1] لم يتوقع وجودها في كتاب نباتاته.

"إذاً نحن نتشارك بموطن واحد ونتحدث اللغة الفرنسية".

حمل النادل فنجاني قهوة مظبوط.

- أكنّ لك الامتنان لقبولك أن أفرض نفسي بهذه الطريقة وأصيخ لك السمع. لكن الجمل القليلة التي تفوهت بها ليست مشبعةً بتلك اللهجة المضحكة أو المثيرة للغضب المؤثرة والمتباطئة والتي نكررها سهواً.

- لاحظت ذلك في الفندق وأيضاً في سيارة الأجرة.

- لا عيب أن نتحدث كصيادين أو كرجال السياسة، ولكن أترغب بالقول أني فرضت على نفسي أدبيات اللغة.

تردد للحظة ثم تابع:

- الناس القادمون من الخارج هم بالنسبة لنا بمثابة بئرٍ في صحراء! حقاً، فيما يتعلق بالصحراء، هل أخبرتك أن عليك رؤية "لوحة البدوية والبئر" و"جيروكولت في فيلا رايموند"؟ هذا ما يهون ساعات بالطائرة للوصول إلينا. اسمح لي أن أقول لك حللت أهلاً ووطئت سهلاً في بورغ تاباج. فضلاً عن ذلك، نسيت أن أعرّفك بنفسي: "الكسندر شانر"، أنا أشبه مؤرخاً محلياً:

---

1 - سحلبية: نباتات وحيدة الفلقة.

Twitter: @ketab_n

- فيليب زافار.

إنها الساعة العاشرة، تقرع أجراس الكتدرائية ويجب انتظار توقفها لمتابعة الحديث.

- مؤرخٌ لأي حقبة من تاريخ بورغ تاباج؟

- لا الإمبراطورية البيزنطية ولا الميروفانجيان[1]، تخيل! آثرت فترة الخمود ما بين الحربين، استهوتني الثلاثينيات: أهملتنا باريس وغفت الجزيرة برمتها دون مشاريع ولا مفاوضات. زمنٌ جامدٌ. تباينات صارخة ولكن لم يكن يطفو شيئاً على السطح. حتى الحاكم المشهور "جاي أنزيس" كان منسياً بيننا. ظل منذ عام ١٩٢٣ حتى ١٩٣٨ أي خمسة عشر عاماً عاشقاً لجزيرتنا الصغيرة كما شيع عنه إلا أنني عثرت على الرسائل التي كان يرسلها دون توقف إلى باريس يلتمس تعديلاً أو ترقيةً إلى أي مكان في أفريقيا في الهند الصينية أو في سانت بيرو ميكلون. غير أن الوزير لم يستجب. سأنشر هذه الالتماسات في العدد القادم من "تاريخنا السنوي" الذي سيصدر مجدداً أخيراً.

مرَّ كنّاسين مهملين لا يكترثا سوى لجزءٍ من الرصيف أمامهما حيث تبسط أشجار عندم هندي[2] ظلّها. عبرت الشارع سيارة شرطة ببطء، فتح بائع متجول عربته على بعد خطوتين ليبيع قطعاً من الأناناس، عجَّت الشرفة رويداً رويداً بالناس. جرّب كلبٌ شارد وسغب ومنقاد حظه بين الطاولات بعد أن فقد أي أملٍ بعد الزجر الأول الذي تعرّض له. امتزج لون السماء الأزرق المبهر بلون أبيض حليبي. يفوح من الحدائق المجاورة أريجٌ عَطِرٌ حلوٌ يذوب مع ضوعٍ شهواني وندي.

---

1 - هي السلالة الحاكمة في فرنسا وبلجيكا والمانيا وسويسرا مابين القرن الخامس والثامن.

2 - عندم هندي: جنس شجر أحمر الزّهر.

Twitter: @ketab_n

- هلاّ سمحت لي بسؤالٍ شخصي؟

- على الرحب، بل سأعتبره علامة تقدير.

- لماذا ترتدي بدلةً وربطة عنق؟ تقارب الحرارة ٢٨° درجة والهواء رطب، لا أرى أحداً يرتدي بنفس الطريقة.

- لماذا؟ عندما بدأت بمهنة التدريس في ثانوية "بودان" مع العلم أن التاريخ هوىً لا مهنة، لم يكن أحدٌ من الطلاب يتخيل دخولي إلى الصف بملابس مختلفة، لم يتبدل الطقس، إلا أننا كنّا نتحمله حتى دون تكييف. رويداً رويداً بدأ هذا الزي بالتراجع ولم يعد طلابي الذين أصبحوا راشدين يحتفظون به في حياتهم العملية، كان بوسعي محاكاة الميول الدارجة، إلا أنني أدركت أنه يلزمني الكثير من الشجاعة لأحاكي الدارج أكثر مما يلزمني للثبات على حالي. اسلّم لك بأن هذا حماقة ولكن هو كذلك.

دخل ضابطان أرجنتينيان يعتمران بيريه[1] بلون أزرق يشبه لون ثوب فتيات مريم ويصدران ضجيجاً أثناء تأدية طلباتهما عند طاولة الاستقبال وراءنا بالضبط.

"هل بزتي مضحكةٌ أكثر من بزتهم؟"

لحسن الحظ، لم يكن ينتظر إجابة، ترى ماذا يفكّر بكل أولئك الجنود القادمين من أصقاع الكوكب لتأمين الأمن في الجزيرة بعد "الاضطرابات"؟ وماذا أفكّر أنا نفسي؟

وإن كان أولئك الجنود يأملون بأن يعودوا بالنفع فذاك أن قرار منظمة الأمم المتحدة يضفي معنىً لوجودهم. أما أنا فلا أعلّل نفسي لا باليقين ولا بالأوهام، لا شيء أقل وضوحاً من الوكالة التي ألقيت على كاهلي. ترى كيف كان الطقس في كانون الثاني عام ١٩٤٩، حين نزل

---

1 - بيريه: طاقية صوفية مدوَّرة ومسطحة.

Twitter: @ketab_n

توماس كولبيرت من سفينة "بريزيدانت بوديسني" برفقة صديقه لوسكان؟ لابدَّ أنه صيفٌ جنوبيٌ حارٌ بنسماتٍ مستقرة لو صدق الدليل. طقسٌ ممتعٌ، امرأة مقنعة تنتظر البحّار في غرفةٍ في الفندق، كل حسنات الاستواء دون أي عائق...

- هل كنت تعرف بورغ تاباج مسبقاً؟

أجبت ذاكراً الكناية المتداولة في الإعلانات السياحية:

- إنها الإقامة الأولى لي في "بلد الآفاق التركوازية".

رسم الكسندر شانر ابتسامة مصطنعة.

- إذاً هل تقبل اعتذاري من أجل ذاك الأدب المشرَّب بالسكر.

- ؟...

- هذه العبارة مقتبسةٌ من ديواني الأول. أرأيت إنها ليست كالماضي الجليل "بلد الصباح الهادئ" أو "بلد الغيوم البيضاء المترامية".

- هل تمجّد قصائدك بورغ تاباج؟

- إطلاقاً! إنه ملامُ أبٍ لابنه، ملامٌ للأسف لم يتفوّه به والدي قبل فوات الأوان:

لا تهزأ من بلد الآفاق التركوازية.

من الإهمال ومن الكلاب الشاردة ومن الفجر الرمادي...

الأول مؤلف من خمسين بيتاً "دستيك"[1]، كنت أنظم حينها شعراً مقفّى أعاد الناشر تسمية تلك المقاطع وكذلك الديوان، دون موافقتي، بهذه العبارة التي ذاع صيتها فيما بعد ولكن كان معناها مغايراً.

تلذذت بالشعر الذي تسرّب بشكل مفاجئ في صباحٍ لزج من شدّة الحر.

- بيتان فقط؟ هل تأملت بأكثر من ذلك...

---

1 - دستيك: بيتا شعر متكاملا المعنى في اللغة الفرنسية.

Twitter: @ketab_n

- هنا أيها الشاب، لا شيء دون مقابل. أطلبت بالمقابل فنجان قهوة.

- تمت الصفقة!

انتظر بوقار أن أنفذ شرط العقد، شرب فنجانه ثم ألقى:

" صه وأنت بين أنامل شمس كانون الأول المطلقة ...

لا تهزأ من بلد الآفاق التركوازية

آه حسناً، كأنك اشتريت، لقد دفعت ثمن بيتي شعرلكن خاتمة القصيدة تكرر مطلعها، حسب التعرفة المتعارفة هذا لا يساوي سوى نصف فنجان. توخّى الحذر من العقود التي قد تبرمها في بورغ تاباج.

لو لم يلبس هيئة جديةً جداً لكانت هذه الدعابة مضحكةً جداً. فهمت أنه يلقنني درساً عن أمرٍ آخر غير الشعر إلا أنني ما عرفت في أي مجال أطبّقه. سبق أن طلب مني جيم بولندر والدكتور كراموند توخّي الحذر وها هو هذا الرجل المجهول يحذّرني أيضاً. هل أبدو ساذجاً إلى هذا الحد وهشّاً؟

- هل ستمضي بيننا بعضاً من الوقت؟

- إنني هنا في عملٍ، أظن أنني بحاجة لخمسة عشر يوماً. عليّ القيام ببعض الأبحاث، كما أنني سأولي الماضي اهتماماً خاصاً، لن أفتش في حقبة "الاضطرابات" بل بأعوام الخمسينيات. لست واثقاً، لكن يبدو أن الحظ حالفني بلقاء مؤرخٍ...

- يسرّني أن أضيء دربك بأنواري الخافتة.

اتفقنا على تناول العشاء معاً في أمسية قريبة. سلكت درب الفندق لآخذ حماماً ثالثاً اليوم وقيلولةً لم أستسلم لها ولم أبددها. أمضيت ما تبقى من الأمسية في تنظيم أيامي القادمة ثم أرغمت نفسي على السباحة في مسبح الفندق حتى اندسست في فراشي دون أن أتناول طعام العشاء.

Twitter: @ketab_n

كما وصف الشاعر، في البدء ينثر الفجرُ لوناً رمادياً، بالحقيقة رمادياً مفتتاً في منظر يلوح من شرفة غرفتي: أجراماً مشوشة ترافق استدارة شبه جزيرة، يعانق الأفق البحر المنبسط، ترسم حديقة المدينة مستطيلاً معتماً، تتبعثر هنا وهناك مصابيح تشير لرسم طريق ولقوس الشاطئ وتراقص خيال فندقٍ ضخم وظلّ ميدان. تعبث نسماتٌ مجردةٌ من القوة والوجهة بفكرة العذوبة. طيلة الليل والجدجد يصرصر ترافقه الجراد وحشرات أخرى مع صخب الأمواج المصم والمنتظم وهي تتكسر على صخورٍ خفية، أنغام أوركسترا جهيرةٌ ومستمرة تلامس الأنفاس العميقة لجزيرةٍ تطفو في أحضان المحيط تنضم الآن تغريدةُ عصفورٍ تأنُ من بعيد وصراخ ديكٍ غاضبٍ وضجيج محرك ينطلق. انطفأت أنوار المنارة في الأفق، لترد الألوان بتصعيد بطيء يكشف إحساسها، ينبثق من قلب الليل لون أخضر نباتي يختلط بزمردٍ مبهمٍ يتمايز شيئاً فشيئاً. تضع بحيرة مرجانية أزرقاً لازورياً في لونٍ رمادي غامق وكأن سوء تفاهم وقع بينهما، هناك عند كشح الوهد يختلط التراب الأحمر البني بأوردة المشاغل. تبسط السماء البيضاء الحرير الخام في الأرجاء، يزداد كثافة وخفة بتقزحٍ رهيف. اختار لون الاسفلت بدوره أن يكون لوناً حقيقياً بعد أن نثرت عليه قطرات المطر لونها المخملي بألق حجارة الميكا. بعد مضي أكثر من نصف ساعة يلوح اللون الأصفر. تقترب الأعماق بعد التدرجات فأرى الجبال من أعالي الهضاب وظلال الوديان وخاصرة الجبال والجروف الصخرية الصغيرة. تحمل النسمات المستقرة الآتية من عرض البحر نكهة يودية خفية إلى عبق الأوراق الرطبة الحلو. تمتزج أصوات المدينة الصاحية من نومها كتنهيدات غامضة في المنام.

لم تشعّ الشمس بعد إلا أنها بسطت سلطانها لتلقي النور رويداً رويداً على المنظر المدني المعقد المتربع بين الجبل والمحيط. تحوّل ركام الأدغال في حديقة الفندق لخبيزة ضاربة للون البرتقالي وإبرة الراعي والغار

Twitter: @ketab_n

وردية اللون والخيزران الأحمر والياقوتات الصفراء وأزهار نبتة الجهنمية[1] البنفسجية وأزهارٌ زرقاءٌ مذهلة لا أعرف اسمها.

الحرُّ؟ مداعبةٌ لطيفة على صدري العاري. تصل النهشات والفظاظة التي تهدد بها الشمس باكراً وتهيمن دون منازع، فترضخ الألوان لها مسحوقة بثقل الأشعة متلاشيةً في خضمها، ليتذوق كل واحد عذوبة الهواء كمهلةٍ هاربة.

أخيراً افتتحت مائدة الفطور في تمام السادسة.

تقع خدمة الأحوال المدنية في الطابق الثاني من البلدية تطلُّ على ساحة داخلية مزدحمة بشاحناتٍ صغيرة تفرقع. طرحت موضوع بحثي بالخطوط العريضة لسيدةٍ قصيرة القامة باسمة لكنها تعاني من بعض الصمم، تمكنتُ من الوصول لسجلات سوداء طويلة محفوظةٌ بدقة منذ أيام الاستعمار.

حدث المشهد الذي رواه توماس كولبيرت، آخر يوم من رسو «بريزيدانت بوديسين» في ١٩ كانون الثاني من عام ١٩٤٩.

في تلك الحقبة، لم يكن الناس يسكنون سوى مراكز المستعمرة. إذاً لن أدقق في السجلات المدنية العائدة للقرى الأخرى أو ذات الأهمية الضئيلة.

أتوقع الولادة ما بين ١٥ أيلول أو ٣٠ تشرين الأول إن تم الحمل بمدةٍ طبيعية. تبعاً لحسابات الخصوبة التي ذكرها الدكتور "غرامون" فلا يمكن لتقريرٍ واحدٍ أن يفلت من هذا الحمل أو أنه قد انتهى بولادةٍ خاطئة. مهما كانت النهاية، لابد أنها سجلت بسلبيتها أو إيجابيتها في وقائع الولادات.

المعيار الأول: المدة ما بين تاريخ الزواج والولادة. لابد أن الأب والأم قد عقدا قرانهما لنقل منذ سبع سنوات على الأقل.

---

1 - جهنمية: جنبة متعرشة للتزيين من فصيلة الشبيات.

Twitter: @ketab_n

المعيار الثاني: ترتيب الولادة. يجب أن يكون الطفل هو المولود الأول لهذين الزوجين وإلا فكل القصة لا تهم.

المعيار الثالث: المستوى الاجتماعي. فرض المشهد المذكور قلقاً تجاه اللياقة ووسائل مادية تكشف عن مظاهر برجوازية واضحة بسعة. سيستثنى إذاً الوالدين الذين يقطنان الأحياء الشعبية مثل بوت روج والكتدرائية وبور وشالون.

تحصي سجلات أيلول وتشرين الأول عام ١٩٤٩ مئتين وثلاثين مولوداً في أيلول ومئتين واثنا عشر مولوداً في تشرين الأول، أي أربعمئة واثنان وأربعون مولودا.

ساعدني المعيار الأول على استبعاد خمسة وثلاثين ولادة، يبدو التحقق من المعايير التالية لكل ولادة عملاً مثيراً للضجر. شيئاً فشيئاً عثرت بين السجلات على أخٍ أو أخت أكبر سناً، لم أعثر على طفل جاء بعد أكثر من سبع سنوات زواج، عدا واحد، يسكن والداه المدينة العالية.

ما قيمة برهاني؟ لا أعلم، لكن يبدو لي أنها تدعم فرضيتي قدر المستطاع.

أربعة أيام من العمل الدؤوب لاكتشاف اسم: بنجامان توبيا تاجر من مواليد ١٣ تشرين الأول ١٩٤٩ في بورغ تاباج، الأب روبرت توبيا، من مواليد ٥ آب ١٩٠٧ وإرنيستين جوليت من مواليد ٣ شباط ١٩١٦، تاريخ الزواج ١٥ تشرين الثاني ١٩٣٨ ويسكنان معاً في منطقة "فيلا رايموند". إنه الابن الوحيد، ذكر سجل الولادة زواج بنجامان في ٣ شباط ١٩٨١ ووثيقة الوفاة في ٥ أيلول ١٩٩٩.

أغرقني هذا الاكتشاف بالأفكار. أغلقت السجلات وهمْتُ على وجهي أمشط الدروب نحو" بوت روج" ثم نزلت إلى رصيف الشاطئ. جلست في شرفة إحدى الحانات الوحيدة التي لا تسقي زبائنها موسيقا أميركية منبعثة من الداخل، أمعنت التفكير باكتشافي. بالطبع علي أن

Twitter: @ketab_n

أضع توكر بالصورة، إذ أعطاني تعليمات بأن أوافيه بتطورات بحثي بانتظام. فرض تقريراً عن المرحلة نفسه، ستقرأه هيلين كولبيرت ثم ستقول لي إما أن أنطلق أكثر في بحثي أو أن أعود من فوري إلى نيويورك أو الله أعلم.

يدفعني شعورٌ مبهمٌ لأكون موظفاً أميناً ومثابراً. دون مآرب خاصة أو أهداف محددة إلا أنني تلذذت بأن أخذت وقتاً متقدماً عليها وأمتلك سراً مازالت تجهله، لا أعرف بعد قيمته تماماً ولا مداه إلا أنني أعرف وهي لا تعرف.

إن تمكنت من الاستمرار بتوجيه قاربي بشكلٍ جيد بغضّ النظر عن المياه التي أبحر فيها فلابد أن يكشف البحث النقاب عما فيه فائدةٌ أعمق من رسائل الحب المخبأة وانحرافات السلوك البسيطة التي عثرت عليها عند زبائني السابقين.

وضعت قدمي في العصيان، هنا من هذه الشرفة المطلّة على الرصيف الشاطئي. لا تشكل كل هذه المعلومات المبعثرة المملمة من سويتل وباريس ومرسيليا وديجون وبورغ تاباج لوحةً متكاملةً. إذاً هي لا تعنيني، سأرتبها عندما يحين الوقت لا عجلة، بدايةً، عليّ أن أعطيها معنى.

خطرت لي فكرةٌ غريبة بهذه الأثناء وهي أن طريقتي بالعمل عُرضة للنقد أو بالأحرى أنا لا أعمل وفق منهجٍ، أرفرف من مدينةٍ لأخرى بمشيئة الصدف وفق مآرب تقريباً غير مدروسة، وفقاً لذلك سيكون ملخص المهمة مفككاً أيضاً، سيستاء شركائي الذين لم يطلبوا مختصاً بالتحرّي؟ ولكن ترى هل يرغبون حقاً أن آتيهم بإجابة؟ ألن يهنأ بالهم أكثر لو لاقيت الفشل؟

كان والدا "بنجامان توبيا" يقطنان فيلا رايموند. أكدت لي النادلة أنها تحولت لمتحفٍ صغير، لم تزره قط وتعجز عن وصفه. ينصح الدليل

Twitter: @ketab_n

السياحي الصادر عام ١٩٨٢ - والذي لم يُعَدْ إصداره مجدداً بسبب الأحداث- بزيارة ذلك المتحف:

"فيما يتعلق بالإرشادات مخصصاً بشكل ضعيف متحف الحضارات، نؤثر تمضية وقت ممتع في فيلا رايموند الخلابة".

بنى هذه الفيلا ألبيرت توبيا عام ١٩٢٥ وهو أحد رجال الأعمال البارزين في فترة ما بين الحربين وأعطاها اسم زوجته. ورثها ابنه من المستعمرة بشرط ألا يتم تغيير الداخل وأن تصبح متحفاً فيما بعد. منذ ذلك الحين وشأن هذه الفيلا يتبع لإدارة المعارف العامة مما قد يشرح أوقات الزيارة غير المتوقعة والمزعجة بآن واحد.

تتفرد هذه الفيلا بحديقتها المزروعة حصراً بالأشجار المثمرة وخاصة ثلاثين نوعاً مختلفاً من الحمضيات. أدى بناء مفرق جديد للوصول إلى الشارع المجاور لاقتطاع جزءٍ من البستان ومن السحر الخارجي للفيلا، رغم ذلك فإن الناس تتنزه في الممرات أمام المدخل لرؤية جدران الفيلا الوردية المنيفة على المدينة المنخفضة والخلجان والبحر.

أما قبو الحديقة فيقدّم درساً بالفن التطبيقي بصفٍ مؤلف من غرفة الاستقبال الاستعمارية والتركية وغرفة الموسيقا بالإضافة لحجرة الغرائب.

الصالة الاستعمارية عبارة عن غرفة ترفيهية شاسعة، تم تنفيذ النجارة والأثاث في حرفية حي "شالوب" نفذها "ر.ب.سيمون وفول" بطلب من ألبيرت توبيا. وهكذا رأى تقليد صناعة الأثاث النور ومازال راسخاً حتى يومنا هذا. لم يستخدم سوى خشبٍ محلي ورسوماتٍ لفنانين من مدرسة "الفن والديكور"، حتى ولو كانت براعة هذه العناصر أقل قيمة أحياناً إلا أن التناغم والنجاح الذي يغطي الكل صارخٌ.

أُريدَ للصالة التركية أن تكون كصندوق حليّ لفارسٍ من ديلاكروا وبدوية في آبار جيريكولت. هذان الرسمان الاستثنائيان اللذان يتحاوران

Twitter: @ketab_n

مع رسم "إنغرس" ومنظر خلاب لصحراء "فرومانتاز" ورسمان مائيان لـ"ماجوريل" مع سجادٍ وزجاجٍ ملون، ليحمل بعض الأثاث المنخفض الزائر إلى أحلام الشرق.

تفتح هذه الصالة على مكتبة صغيرة ممتعة.

تحتوي غرفة الموسيقا بالإضافة لأول بيانو قيثاري وصل إلى بورغ تاباج على لوحات وصور تمجد عذوبة العيش في سنوات ١٩٢٠.

أما حجرة الغرائب والتي كانت غرفة رايموند فتضم بشكل خاص مجموعةً مسلية من المراوح.

ثمة ملابس واقية، دروع وخوذ تعود للقرون الوسطى في طابق الفيلا بالإضافة لمجموعة من العملات القديمة وهو هوىً آخر لألبيرت توبيا.

أما مكتبه الذي بقي على حاله منذ الثلاثينيات فهو مجموعة شيقة من خطّافات وأشياء تعود لصيد الحيتان والتي ظلّت فعّالة حتى مطلع القرن، كما تجد إعلانات بالبيت تمجد بورغ تاباج أو مؤسسات توبياس.

تطلّ غرفة نوم السيد بزخرفتها الفنية العذبة وفي طرفها صورة كاملة لرايموند توبيا أمامها طاقة زهر.

تتضمن الزيارة الكراج إلا إذا كان مزاج الحارس جيداً عندها سيسمح لك أن تعجب بسيارات بانهارد ١٩٣٤ وهيسبانوسويزا ١٩٣٨ ورولزرويس ١٩٤٧."

ورث روبرت توبيا من والده مجموعة النقد الوحيدة المنظمة في بورغ تاباج والتي تثبت أنه الزوج العقيم الذي وصف لي الدكتور غرامونت عذابه.

أخذت وقتي بالتنزه في المدينة واستكشاف بورغ تاباج وأحياءها المختلفة سيراً على الأقدام: الكتدرائية وشالوب وخليج البحارة وبوت روج والمدينة العالية...

Twitter: @ketab_n

قمت بعدة نزهات انطلاقاً من الميناء. تؤدي الشبكة الرئيسية إلى شارعٍ يعجُ بالحانات: لوكابستان، الأميرال، رومور كور، فالبارايسو، روزدوفان. اتجهت نحو المدينة العالية خلال عشرة دقائق تقريباً وحاولت أن أكتشف وجود منزلٍ عادي بطابقٍ على الأقل. قد أعثر عليه في مكانٍ ما في هذه الشوارع عديمة السحر التي تشبه شوارع مرسيليا. نزلت مجدداً نحو الميناء واخترت عبثاً وجهةً أخرى في شارعٍ صغير متعرجٍ قذرٍ يتجه نحو شالوب، أمام كل باب تقف فتاة متبرجة بثياب فاضحة تهب نفسها لمن يرغب. في عمق مدخل يتحدث جندي يعتمر قبعةً زرقاء بصوتٍ منخفضٍ مع فتاة سمراء طويلة القامة تلف ذراعها خلف رقبته.

لابد أن مثل هؤلاء الفتيات كنَّ موجودات في نفس الأماكن على بعد خمس دقائق من مخرج الميناء. إلا أن حباً محدد التعرفة ومختلفاً كان بانتظار البحّار.

سرت على خطى توماس كولبيرت الذي حاكى بدوره عن بعد خطوات رجل أنيق، إلا أنني لم أكن في كانون الثاني ١٩٤٩ ولم تكن سفينة "بريزيدان بوديسين" بانتظاري عند المرفأ، ماذا كنت لأقول من جهة أخرى لو أنني عثرت على ذاك المنزل المجهول وتلك الشقة الصغيرة وتلك الغرفة ذات الستائر المعلّقة؟ لا يمكنني التعرّف على شيء من خلال الصفحات الثلاث في جيبي ولا يمكن لها أن تكون بوصلتي نحو المدينة العالية.

أوقفتني حافلة "بوت روج" أسفل فيلا رايموند، بالغ الدليل بوصفها التفخيمي. لقد بدت بعيني أقل بهاءً. تشارف الحديقة العمودية على النهاية لمراتها الحصوية وكتلها المصطنعة. لم أرَ ما يستحق الاهتمام سوى الصالة التركية بلوحاتها الرئيسية والصورة الجميلة لرايموند توبيا. أمعنت النظر في المكتبة لأفهم اهتمام صاحبها إلا أنني ما لمحت

Twitter: @ketab_n

عنواناً مهماً في انتقاءاته الخالية من المجازفة أو حتى الخيال، ليس من بينها "كارين بليكس". تغفو القطع النقدية القديمة التي جمعها روبرت توبيا في صندوقٍ مغلقٍ في خزائن خشبية ثقيلة لا تعرض للعامة. تكفي نصف ساعة للقيام بجولة تنتهي بشعورٍ يوحي بأنك خرجت صفر اليدين. بدأت الأمطار التي كانت تتوعد عند مجيئي بالانهمار بعذوبة، سرت عدوى الغيوم الرمادية التي خبت تحت جنحها ألوان اللوحات والزخرفات. ترى هل يضم المنزل أوراق العائلة بما أنه لم يشهد تغيراً منذ مغادرة توبيا؟ سأطلب التحدث مع مسؤول.

وافتني سيدة ذات شعرٍ رمادي بعد لحظة وأكدت لي أن أرشيف عائلة توبيا يرقد هنا في إحدى الحجرات في الطابق العلوي وأن الأرشيف ليس متاحاً للاطّلاع. أصرّيت، ولكن كلا. أخبرتها أني وصلت بورغ تاباج لهذه الغاية إلا أنها أصرّت على الرفض. أضفت أنني صحفي في مجلة أسبوعية ثقافية مهمة في سويتل. أطلقت تنهيدة قوية مقابل إصراري والعلاقات التي اقترحتها وقالت أنها يجب أن تفكر.

تنهمر الأمطار الموسمية بغزارة لتفيض مجاري المياه وتعلو فوق الأرصفة والعتبات. تسير السيارات ببطء، سحب الباعة طاولات العرض وأضاءوا مصابيحهم.

تطير طيور النزاغ بعلو منخفض متخبطة، يستسلم المارة المبللون لدفق المياه الدافئ. حاكيتهم متلذذاً بشعورٍ لطالما حرمتني إياه أمطار أوروبا الباردة. صادفت ثلاثة نرويجيين يعتمرون القبعات الزرقاء وقد أصابتهم الدهشة أكثر مني لدى رؤيتهم قطرات المياه تسيل على سواعدهم. تلاشت كل الأصوات الأخرى أمام طقطقة قطرات المطر على وجه برك المياه وعلى صفائح السطوح لتملأ الأصقاع بقوتها ورتابتها. هل هذه هي ضوضاء "بورغ تاباج أي ضوضاء الضاحية"؟

Twitter: @ketab_n

تناولت طعام العشاء مع الكسندر شانر يوم الخميس مساءً كما جرى الاتفاق. وقع اختياري على أفضل مطعم في "بورغ تاباج" إلا أنني أدركت بعد فوات الأوان أنني أخطأت الاختيار. وصلت قبل الموعد بقليل، انتظرت في أريكة قبالة البحر، يتناهى لمسامعي حوارٌ نشيطٌ لمجموعة موظفين في جمعية إنسانية. وصل المؤرخ الشاعر في موعده المضروب. رويت له تسكعي في المدينة دون ذكر الدافع لها وتبادلنا بعض الدعابات.

دخلت بصلب الموضوع عندما جلسنا إلى المائدة عند طرف الشرفة المطل على الصخور عند المحور المحاذي لمداخل الميناء، تلوح أنوار سفينة شحن مع الأفق بانتظار بزوغ الفجر أو التصريح بالدخول.

"أمضيت طيلة تلك الأيام بالعمل، لم أخرج كثيراً خلا بضع نزه. أنا بحاجةٍ لنصحك ولتزودني بخبراتك. إنني مهتمٌ بأمرِ شخصٍ لابد أنك تعرفه، إنه في عداد الموتى الآن، اسمه بنجامان توبيا".

قرأت بوجه مضيفي تعبيراً مصطنعاً ومندهشاً بآن واحد. ما الشيء الغير لائق الذي تفوهت به، تظاهرت أنني لم ألحظ شيئاً وألحيت:

"بنجامان توبيا من مواليد ١٩٤١. عائلة توبيا في فيلا رايموند، سبق وأن سمعت بهذا الاسم، أليس كذلك"؟

تمالك نفسه وعذرني لأنيَ غريب وآثر الاستهزاء، لن أنسى ما حييت تعبير الدهشة الممتزج بالحزن والاضطراب الذي اجتاحه عندما سمع ذاك الاسم.

هاك ما يضعنا في مكاننا الحقيقي في الكوكب، إننا نظن أننا محور العالم وأن مآسينا تُبكي الأرجاء. ولكن لا، إن آلامنا لا تهمُ غيرنا وإن احتضاراتنا لا صدى لها، فلنبقى متواضعين حتى في الحداد".

سأجيب على أسئلتك:

Twitter: @ketab_n

"بنجامان توبيا رجلٌ سياسي. توفي عام ١٩٩٩ بقذيفةٍ تحت سيارته بعد بضعة أسابيع بدأت الاضطرابات".

هكذا إذاً لعب ابن توماس كولبيرت دوراً في تاريخ بورغ تاباج، لم ينظر مضيفي إليّ وهو يتحدث، ثم تابع:

"الاضطرابات، حتى الكلمات تنصب لنا أشراكاً. اضطراباً، هذا لا يعني شيئاً مرحاً، فتاة شابة مضطربة أمام شاب، ورقات يانسون تلامس الماء العذب، لحظةٌ ضيقٍ في المجتمعات الجيدة. يا صاحِ ما جرى لم يكن اضطراباً، لقد تعرضنا للاغتصاب والقتل والطرد والنهب، لقد انتُشلَ مستقبلنا وسعادتنا، إلا أننا لم نرغب أن نتسبّب بالضيق لأحد ولا أن نثير ضجيجاً، فعزفنا أنغامنا بعذوبةٍ ودندنّا أننا نعيش حالة اضطراب..".

- ولكن ما الكلمة الأخرى التي قد تستخدم؟ أنت تعلم بأن التعبير واضح وأن لا أحد يفكّر بمعناها الحرفي.

- حسناً، لم يخطئ أحدٌ، لو قلنا "مذابح" لما تحدث أحدٌ عنها بلطف، ولكنني أجد أنني أثرت ضجرك لذلك سألوذ بالصمت.

ومع ذلك تابع للفور:

- أعرف كل ممثلي المأساة إلا أنني عجزت عن فهم ما جرى، لست واثقاً من أن أكون عوناً قوياً لك. تحدّى ما عشناه إدراكي، كان عليّ كمؤرخٍ أن أحلّله لكن كان مستحيلاً بالنسبة لي كمواطن رؤيته مباشرة، لم أرغب بقبوله.

الاضطرابات كانت عقوبة لنا إلا أنني لم أعرف ما الجريمة التي اقترفناها ولا من كان القاضي، ولم أفهم لماذا خُصص لنا القدر الأسوأ بين الأقدار المتاحة؟

ترى هل سيبدأ بتأملٍ مرير في التاريخ المعاصر؟ ليس من أجل هذا السبب دعوته لتناول العشاء.

(قرأت في اضطرابه أحياناً نبرة والدي، فهمت بعد وفاته أنه كان نموذجاً محترماً للهجرة وسعى دون كللٍ لإيقاف المعارك. نُفيَت السياسة

Twitter: @ketab_n

من الأحاديث العائلية، أذكر ترددد بانتقاء الكلمة المناسبة، حملتني الذكرى إلى صمته، لقد حُرمت مما رغب ببنائه، أحمل الحداد دائماً لما امتنع أن يفضي به إليَّ أنا ابنه صغير السن).

"كنا نتحدث عن بنجامان توبيا ...

- نعم، لم يكن هناك غير ذلك كبداية. لقد كان خلال خمسة عشر عاماً الأمين العام لجبهة دفاع سكان الجزيرة وأصبح لعدة مرات عضواً في الحكومة وفق الانتخابات ومعاهدات المجلس.

- هل هو ابن روبرت توبيا، رجل الأعمال الذي كان يسكن فيلا رايموند؟

تذوقت بمرارة سخرية سؤالي الضروري.

- لم يكن يأتي على ذكره أبداً، لقد توفي والده عام ١٩٦٠ وطواه النسيان كلياً، كان كثيراً ما يتحدث عن والدته.

- لماذا؟

- لأنها من سكان الجزيرة وهو أيضاً فهذا النسب يتناقل عبر الأم".

ترى هل لفظ كلمة "نسب" بدعابة أم باشمئزاز؟

- من أقدم على قتله؟ ولماذا؟

- لم يُكشف الفاعل، أسرَّ العديد من الناس فرحة بغيابه ومنهم حزبه، لكن الحقيقة بقيت هاربة.

- لابد أن هناك فرضيات وشائعات؟

- لا شيء يفوق خيالك: اتهم أصدقاءه أعداءه بالجريمة والعكس بالعكس.

بدا عدم الاكتراث الذي تفوّه فيه بهذه الجملة صادقاً ولاحظت أنه لا يعطي أهميةً لاسم المجرم. تابع حديثه قائلاً:

- كانت وقتئذٍ أول جريمة اغتيالٍ سياسي في جزيرتنا، فكان لها وقعاً عميقاً في النفوس، ثم اعتدنا على مثل هذه الأحداث بعد الاضطرابات التي أُعلن بدايتها بمقتله.

Twitter: @ketab_n

اعتدنا ...

عليَّ أن أبقيه على الطريق الذي اخترته:

- هل التقيت به؟

- ثلاث أو أربع مرات، ولكن لم نكن وحدنا فما كان ذاك الرجل ينال إعجابي لا هو ولا اختياراته ولا ديماغوجيته[1].

- لقد حملته النقابية إلى السياسة حسبما أذكر، أسس "جبهة دفاع سكان الجزيرة" وجمع حوله عدداً من شبّان المعارضة، لم تأخذه الأحزاب الأخرى على محمل الجد. لقد كان أول من أعطى للمرأة دوراً أساسياً في حركتهم. ترافعوا عن قضيتهم لسنوات حصدوا خلالها الفشل الانتخابي تلو الفشل. ثم حدثت فضيحةٌ، شخصٌ مرموقٌ لم يحضِّر خلفاً له فشبَّ خلافٌ في أحد الأحزاب التقليدية أودى إلى حصول "جبهة دفاع سكان الجزيرة" على مقعد ثم ثلاثة مقاعد ثم تشكيل مجموعة في مجلس النواب. بدأ صوتهم يُسمع في أصقاع الجزيرة وفي فرنسا وفي الخارج، حتى في النقابات وعبر الصحف وتقريباً في الكنائس.

غار صوت شانر وهو يتحدث شيئاً فشيئاً لا خوفاً من أن يسمعه أحد بل لأن هذا الإبحار في الذكريات كلَّفه غالياً. لم أجرؤ أن أطلب منه رفع صوته. لاقى جعلٌ زمردي حتفه بلهب المصباح الذي ينير مائدتنا.

"سيد زافار، ما هو بالضبط هدف بحثك؟"

- لم أفكّر بشرط السرية ولكن يتوجّب عليَّ توخّي الحذر من هذا الشخص المجهول وأنا في هذه الجزيرة الخارجة من الاضطرابات حديثاً، فقلت:

"أنا صحفي من مجلة أسبوعية أميركية وأحاول فهم الموضوع بكل أبعاده".

تذكرت وأنا ألفظ هذه الكلمات أنني أطلقت كذبة أخرى في لقاءنا المنصرم إلا أنه لم يكشفها، أجاب وهو يزن كلماته:

---

1 - ديماغوجية: سياسة تملّق الشعب لتهييجه.

Twitter: @ketab_n

"كان بوسع بنجامان توبيا حمل الكثير لبورغ تاباج، إنه المفتاح لما حصل لنا منذ أكثر من عشرين عاماً، عشرون عاماً من السير نحو الهاوية في ضلالة عمياء. عشرون عاماً كان فيها هو مركز الحياة السياسية، لا أقصد سياسياً في المركز حسب المصطلحات النيابية ما بين حزبين معارضين بل أقصد يتقلد المركز كالشمس: يتبعونه أو يلعنونه. يُعرف الجميع تبعاً له.

- ما كانت معركته؟

- أنت تعرف تماماً.

تجنب الإجابة لا من باب المجاملة بل لأنني أطلب منه إيقاظ آلامٍ لم تخمد بعد، هذا ما فهمته فيما بعد إلا أنني ألحيت:

كما يشير اسم الحركة "دفاع سكان الجزيرة"، كان بنجامان توبيا من سكان الجزيرة. لا يمكن لأحدٍ أن ينكر قدرته على إقناع الحشود. شعبيٌ عديم الذمّة ونشيطٌ للغاية. إنه يمثل الجبهة أما غيره فيهتمون بالمعاهدات والمباحثات والتمويل.

سلّح العنف المكرّر في عباراته قوى الفصائل المختلفة بعد اغتياله، تجسدت خطاباته في الاضطرابات، لو لم يشعل الجمر لما اندلع الحريق، ماذا أقول؟

لم يكن هناك جمرات، سنَّ بعزمٍ وبلا تروٍّ الشروط التي عبَّدت الطريق لما جرى فيما بعد، مع أنه كان أول الضحايا لكن لا يمكنني أن أغفر له. كان رجلاً حاذقاً ويعرف تماماً ماذا يفعل، من يزرع الريح يحصد العاصفة.

- دفاع سكان الجزيرة.. ولكن ضد من؟

- كان يجدر طرح السؤال عليه، لم يهاجم أحدٌ سكان الجزيرة، ولكن من كثرة ما كرروا أنهم تعرضوا للاحتقار والتلاعب والإهانة، زوّدهم بشبكة قراءة تفصّل كل شيء البطالة ومشاكل السكن والمشاكل التي

Twitter: @ketab_n

تعترض تسجيل الطفل الأخير بالمدرسة، الفساد في البلدية والعنف الذي يمارسه رجال الشرطة والمطالبة بالأجور... كيف يمكن رفض شرحٍ إجمالي للعالم.. عذراً، أقصد عالمنا الصغير الممثل في جزيرتنا؟ كيف يمكن تفكيك جدله وكشف سوء النيّة؟

كان عليه أن يواجه سياسيين من نفس القيمة لم يكونوا متواضعين، فكّروا بالتملّق له فنصّبوه وزيراً لفترة لكنه لم يقع في شركهم الأخرق، تابع معركته وهو وزير، وضع حكومات التحالف بشكل متناقض دائماً للحصول على امتيازات تثبت استراتيجيته. لكن لا يمكنك أن تفهمه دون أن تسمعه وهو يخطب بين الجموع. سترى ذلك هناك أفلام تُباع في كل مكان، تصوّره في قاعة الاحتفال في بورت روج، مؤثر جداً، خطّاءٌ جداً وخطيرٌ جداً.

يأخذ شانر بنجامان توبيا كالمسؤول الوحيد عن الضغط الذي تبعته الاضطرابات، من يتفاخر بأنه مستعدٌ أو حليمٌ عندما تطرق المأساة الباب وتعيث اضطراباً في الأجواء العائلية؟

- وأنت، هل أنت من سكان الجزيرة؟

- كلا، والدتي وصلت إلى هنا بعمر الثامنة على متن قاربٍ آتٍ من فرنسا، لذلك أنا لست من سكان الجزيرة، تستبعد المعايير التي حددتها الجبهة ذلك مطلقاً وبالحقيقة أنا لا أشعر أنني منهم.

- هل كان توبيا من سكان الجزيرة عبر والدته، أليس كذلك؟

- نعم، اسم عائلة "جوليت" هو قطعاً عائدٌ للجزيرة.

- لكنه ترعرع في إحدى الفلل الأكثر جمالاً في المدينة العالية؟

- كما رأى أيضاً أن زواج والده من جوليت جرَّ عليهم الانتقادات، لم تستقبل بعض الأوساط البرجوازية والدته فهم لا يستقبلون سوى ذوات أصل الجزيرة الطيبات. لدى وفاة والده، لم يمد أحدٌ يد العون للأرملة واليتيم على ما يبدو. ربما لأنها من أصلٍ يعود لهذه الجزيرة وابنها

Twitter: @ketab_n

أيضاً؟ أو لأن توبيا خلّف ديوناً كبيرة في كل مكان؟ أو لأنها رفضت أي دعم؟ لا أعلم شيئاً عن الأمر. تخيّل الصبي الذي انتقل من فيلا فخمة إلى شقة عادية ومهيّأ لكل أنواع الدحض. أتاحت له السياسة حتماً أن يأخذ بثأره ويبث الرعب في نفوس من قابل والدته بالاحتقار، ويرفع من قدر النساء.

بنجامان توبيا ابن بحارٍ عابر وامرأة من الجزيرة.. ألقى هذه الجزيرة في طاحونة الثورات باختياراته السياسية، لاحقاً بعد وفاته كُشف عن فرنسي صنع ثروةً في الولايات المتحدة.

لابد أنه يجهل الأمر، عندما جال في خلدي كل هذا قلت أنني أخالف كل الوسائل وأجيب بمكانه، ترى ماذا كان يعرف عن ظروف ولادته؟ ترى هل كشف له والده أو والدته السر؟ أعطاني الدكتور غرامونت مثالاً جيداً عن ذاك الشاب الذي كُشف له السر بعد طلاق والديه. يتنبأ الأطفال بما لا يدركونه يقيناً. هل يرشح شيء ما من مشهد كانون الثاني عام ١٩٤٩؟.. إيحاءً أو ندماً أو سراً عائلياً طفا على السطح، كرهاً أعمى لذلك الذي لم يكن أباً أو علاقة توحد مثلاً مع الأم وهويةً ثائرة تعود للجزيرة، تعبيره النقابي ثم السياسي، حركات، أحقاد، انتخابات، محاولات اغتيال ثم اضطرابات...

أطلقت لنفسي العنان في تأويلاتٍ نفسية فاتنة تعتمد على دلائل هشّة. استحال استحضار الأصداء السياسية التي شهدتها بورغ تاباج جرّاء ذاك الموعد عام ١٩٤٩ بل لا يجب أن يحدث. لم أرغب أن أقوم بهذا الربط وأتحمل المسؤولية والعبء.

هل برهن بنجامان توبيا عن ذلك؟

قدّر الكسندر شانر صمتي الذي قاطعه النادل بتقديمه الطبق، لم نكن نشعر بالجوع، احتسيت النبيذ دون متعة.

"واليوم، مازالت معركة سكان الجزيرة مستمرة".

Twitter: @ketab_n

تفوهت بكلماتي بسرعة دون أن أزينها، تجهَّم وقال:

"لا تطلق لنفسك العنان لتجوب دروباً مهترئة، ليس الأمر بهذه البساطة. لم يُهمَّش سكان الجزيرة ولم يُطردوا أو يُستبعدوا. هذا الوصف المقروء في خطابات بنجامان توبيا لا يمتّ للواقع بصلة. منذ أكثر من نصف قرن، ويأتي من سكان الجزيرة محامين وأساتذة، منهم من جنى ثرواتٍ طائلة من تجارة التجزئة وتجارة الخشب في الموانئ. يتوزع سكان الجزيرة في كل الأحزاب لم يكن حكراً على حزب الجبهة. منهم من كان في الصفوف التي درستُ فيها أو في قاعة المدرّسين في ثانوية "Boudin بودان". حتى أن شاعرنا الأكثر شهرة هو من سكان الجزيرة، لكن أرأيت لقد وقعت أنا نفسي في الفخ.

- أيّ فخ؟

- هاأنذا أُصنِّف وأنخب، لم أحسب هذا الحساب يوماً منذ ثلاثين عاماً، بدأ كل شيء مع بنجامان توبيا، لقد تفرّقنا بسببه، بثَّ روح الفرقة في كل شيء.

- إلا أنها حقيقةٌ في جزيرتكم، أليس كذلك؟

- إنك لا تفهم الأمر، حقيقةٌ، فقط لأن توبيا قرّر ذلك ولأن تحليلاته تفوّقت.

- لا يمكنك أن تنكر أن غالبية سكان الجزيرة يسكنون الأكواخ المصنوعة من الصفائح المبعثرة على سفوح الهضاب وأنهم هم من يطيلون الانتظار في مكاتب التشغيل.

لم يتكبد عناء الإجابة على ملاحظتي المتواضعة وتابع تأملاته.

- حقيقةٌ أصبحت معياراً، معياراً تقوّض أمامه كل شيء.

صمت، اعتقدت أنه أنهى كلامه، حاول أن يفرض مرارته. جرّني هذا العجوز الظريف ذو ربطة العنق الداكنة بإلقائه المؤثر ورفضه لفهم أيامه إلى الكهف الذي انبثقت منه مآسي بورغ تاباج.

Twitter: @ketab_n

- "لم يكن أحدٌ يعير انتباهاً أكثر لقضية الأصل من الفرق ما بين اليمينيين واليساريين قبل أن يظهر بنجامان توبيا في المشهد العام".

- ومع ذلك فقد أخبرتني أن هناك بعض المنازل التي لا تستقبل سكان الجزيرة.

- ثلّةٌ من الحمقى تصرفوا على هذه الشاكلة. لم يُرغم أحدٌ على الدخول بهذه النظرة للعالم أو إلى هذه المنازل، خلال الاضطرابات...

بدا لي التعبير غامضاً وكأنه يدافعُ عن قضيةٍ معقّدة وهو يقدّم لوحةً مثالية لكنها مفككة. لاحظ لا محالة أنه لم يقنعني فحاول لمرتين أو ثلاث إضافة شيءٍ ما دون أن يجد الكلمة المناسبة. ما هي الأسرار التي يتحاشاها؟

تنهّد بعمقٍ وشاح بناظريه وبعثرها على وجه البحر.

"تستيقظ صباح كل يوم، لم تعد تفهم، لم تعد تتعرف على المدينة ولا تتعرّف على شيء فيها. لا تفهم كيف بات ذلك ممكناً. تتمنى لو تغطّ بنومٍ عميق حتى تهرب من هذا الكابوس، لكن النوم لا هروب فيه وترفض أن تلوذ للمنفى. تتعلم أن تميز بين أصوات الأسلحة المختلفة. يتعرض أصدقاؤك للإصابة أو حتى للقتل، يصبح ارتياد المقاهي أمراً نادراً. يغيب الأطباء والصيادلة تقريباً. لا خروج بعد اليوم في المساء. ماذا جرى؟ لم نعد نشهد مجيء أحد ولم يعد أحدٌ يفعل أي شيء؟ عبور المدينة من حي إلى حي لم يعد نزهة بل معجزة، ملحمة بطولية؟. هل هناك مكانٌ آخر أُلقي فيه قدرٌ مشؤوم ومعتم يشبه قدر بورغ تاباج؟ أرضٌ ملعونة. مدينةٌ محكومة بالموت. مدّعي النبوّة. سماءٌ فارغة. لقد عشنا لثلاثة أعوام في منطقة ميتة لا أمل لها".

دبَّ الرعب في قلبي. هناك على الطاولة المجاورة المضاءة بشموع تنبثق من طاقات زهرٍ قزمة يبتسم عاشقان وعيناهما مزروعتان بعيني بعض. على مقربةٍ ،هناك عائلةٌ تحتفل بعيد ميلاد صبي مرح بدين. ترى هل طردنا من هذه السعادة البسيطة؟ مازال الكسندر شانر

Twitter: @ketab_n

يتحدث مع الأطياف. فاحت رائحة الضريع[1] والأصداف والفوقس[2] التي اعتلت الصخور السوداء الكبيرة في مواجهة الأمواج أسفل الشرفة.

تابع حديثه فجأة وبصوت متهلل:

- ما عرفت ألماً أشد قسوةً وحميمية من هذا الرعب: حين تسمع أحد السياسيين يعلن أنك لست من هنا، لم يقل أنه سيطردك أو سيستبعدك أو سيهددك قال ذلك بكل بساطة أمام حشدٍ يخبط بقدميه فرحاً ويصفق لأن هذا وذاك ليسوا من هنا. تعرف وأنت تصغي إليه كما يعرف الجميع أنك جزءٌ من أولئك الذين يشير إليهم. أعطى هو وأترابه لأنفسهم الحق بنخب الناس وقطع ما كان متجانساً حتى ذلك الحين، أن يفصلوا ويضعوا أنفسهم في الجانب الجيد مع الناس من أصل الجزيرة. وأنت في الجانب الآخر من الحاجز الذي نصبوه هناك، في مكانٍ ما ولكن ليس من بين سكان الجزيرة الأصليين.

وأنت بالطبع، لا تحتاج لأكثر من والدك الطاعن بالسن وأختك وجارك في آخر الحديقة والبقّال والسائق والمدرسة.

ومع ذلك، وبشكلٍ مطلقٍ ووَجِلٍ، تدرك أنك، ودون تصريح من كائنٍ من كان، من هنا وتعجز ألا تكون كذلك. ولدت هاهنا، كل ما تملك هنا، كل أصدقاءك ومشاريعك وذكرياتك وطموحاتك وندمك.

من جهةٍ أخرى، إن لم تكن من هنا، فمن أين أنت إذاً؟ أي مدينة هي مدينتك؟ وأي الشطآن تعود إليك؟ بدأ ذلك كبرهان عبثي ثم تحوّل وبسرعةٍ هائلة إلى شعورٍ بالذنب لا يطاق. ليس لك أصلاً هناك ولكن كيف تبرهن ذلك، كيف تثبت أنك من هنا بكل وضوح؟

يا صاح، لم يكن أحدٌ ينتظر منك الإثباتات. ولا أحد يشير إليك بشكلٍ خاص. انتقل موضوع "الناس من أصل الجزيرة" من منابر

---

1 - الضريع: نباتٌ أخضر خفيف يقذفه البحر.

2 - الفوقس: نباتٌ أخضر خفيف يقذفه البحر.

Twitter: @ketab_n

السياسيين إلى المناشير ليصل إلى مطالب بعض النقابات وبريد القرّاء وفي أحاديث السوق والتعليقات على الأحداث اليومية. أثار هذا الموضوع احتجاجاتٍ وسخط متفقٍ عليه وإشاعة شعورٍ دائمٍ بالاتحاد، إلا أنه جاب الشوارع وتردد صداه في الأرجاء. الناس ذوي أصل يعود للجزيرة وأولئك الذين أشاعوا ذلك ليسوا موافقين جميعاً لكنهم لم يعبروا بما فيه الكفاية. إنهم من هنا، زميلك في العمل، شرطي الحي. جارك في الطرف الآخر من الشارع الذي يقدّم لك ما يفيض عن حاجته من مانغو وموز، الخادمة المياومة والخبّاز. أنت تعرف ذلك وهم يعرفون أيضاً ويعرفون بأنك تعرف. لكنك لم تعد تراهم كالسابق بل عبر ذاك الموشور، ترى هل هم موافقون تماماً أو نوعاً ما مع هذا السياسي، هذه المناشير ورسائل القرّاء المحمّلة بحماقة مؤثرة؟ مع ذلك ليس بمقدورك أن تطلبه في وجههم وهكذا تراهم بعينٍ مختلفة وتحاول فك رموز سلوكهم الذي لم يتغيّر قيد أنملة وتسعى لأن تستنتج من ابتسامةٍ عابرة، من حركة يد، من استحضار ملاحظةٍ ما إن كانوا يرون فيك شخصاً غريباً. تفتقر منذ ذلك الحين لعلاقاتٍ معهم خاليةً من سوء النيّة، انتصب بينك وبينهم جدار لم تره يتعمّر ولكن مهما حدث لن يتحطّم. هم أشخاص ينحدرون من الجزيرة وأنت من الخارج.

لم يشهد هذا الميدان أي حدث، ولا أي نوعٍ من العنف أو اللامساواة، إلا أن كل شيء تم. إن الاضطرابات باتت هنا كبذرةٍ لنبتةٍ متوحشة على أهبة النمو ولكن لا يلحظها أحد. تستمر الحياة، الأعراس والاستثمارات والإضرابات والمباريات والحفلات. يعلم كل امرءٍ أن هذا الجدار موجود وبأي اتجاه هو. هناك أشخاصٌ طيّبون وسيئون في كلا الطرفين وهناك حبٌ وتعاطف يتخطّيان الحدود. يمكننا تجاوز العقبة ولكن لم يكن هناك عقبةٌ لتجاوزها سابقاً.

يكفي أن يلفظ سياسي جملة "ليسوا من هنا" حتى يتغير كل شيء. هناك بعض التفاعلات في الفيزياء أو في الكيمياء - مع أن هذا ليس

Twitter: @ketab_n

مجالي مطلقاً - التي تمارس نفس التأثير: تؤثر بحقلٍ لا يتغير وتبنيه ضمن حدود التأثير ولكن هذه التفاعلات عكوسة ويتمكن العالِم ذو المريول الأبيض إقامة حالةٍ وسطى بينهما.

أما بالنسبة لنا فقد طال الخراب كل شيء بشكلٍ لا يعوّض. ستظل هذه المواجهات والجهود المبذولة للسلام والشقاق وتفجيرات العنف ووصول ذوي القبعات الزرقاء محفورة في ذاكرتنا لخمسين أو مئة عام بعد انتهاء الاضطرابات. سيُكتب التاريخ وتُصدر الأحكام ضمن جدول القراءة هذا: الأصليون والدخيلون. سأقول رغم كل شيء حتى آخر نفسٍ ثم في غياهب قبري إلى يوم الحساب الذي لا أؤمن به: أنا من هنا، أنا أيضاً كسائر الناس، لا أكثر ولا أقل، لا أريد أن أقول وكأنني أطلب الصفح من نفسي أن ما من أرضٍ أخرى هي أرضي بعيداً عن هذه الجزيرة، أنا أطعن بالتعابير السلبية، لقد ولدت في بورغ تاباج وسأموت فيها، أنا منها.

لا معنى لأي خيار آخر ولا أي تبعية أخرى. ليس لديّ ما أثبت به أقوالي في مواجهة الخطابات الغير مسؤولة والجانية التي ألقيت منذ عشر سنوات. أنا من هنا حتى الأزل مهما جرى. أنتسب لهذا البلد. يمكن لهم أن يقتلوني ويطردونني وينزعوا أملاكي وينزلون بي أشد العذاب ماذا بوسعي أن أقول، على ماذا عليّ أن أعتذر؟ ربما يغتصبون لحدي ليدنّسوا جثماني ويرموا عظامي في البحر، أنا من هنا، أنا من هنا، أنا من هنا.

هبّت نسماتٌ عذبةٌ من الجنوب. امتصت السماء السوداء أنوار المدينة المبهمة.. وبسطت جنحها على زقزقة النوارس والأمواج الطويلة المنتظمة القادمة من كبد المحيط لتتكسر على بعد عدة أقدام من شرفة المقهى. أجهش الكسندر شانر ببكاءٍ يلفّه الصمت.

Twitter: @ketab_n

- ٩ -

تصفحت في المكتبة العامة عدة كتب عن بنجامان توبيا . لم أعثر بمدى نظري إلا على ما كتبه مواليد الجزيرة يترافعون عن قضيتهم وحكايتهم بأسلوبٍ شيقٍ وأخرق ويتمسكون بآمالهم بعد الاضطرابات. رويداً رويداً انبثق في كلّ مجال شعورٌ بأن هذه المواجهات التي لا نهاية لها لن تخرج بمنتصرٍ. بسطت أنانية القوى الكبرى جناحيها بأدق التفاصيل في الأمم المتحدة قبل أن يقرر على مضض ولعدم توافر الأفضل إرسال القبعات الزرق. لم يكن سوى وقف إطلاق نار دون هدف ولكن هذا ما أمكن. المبعوث الخاص للأمين العام - وهو دبلوماسي كندي لامع كان يعزف بالمزمار في حديقة المحافظة ويتحدث عن نفسه وكأنه مساعد الملك - أبدى موهبةً خاصة بإقناع الطرفين للجلوس إلى طاولة الحوار ويطرح عليهما سبلاً للحل. كان عام "إحلال السلام" وإلقاء السلاح وتحديد الهوية المعمارية المؤسساتية القادمة ولجان "الذكرى والسماح" ومساءلة أمراء الحرب السابقين وسنّ إنزال عقوبة المنفى الاختياري لمدة عشر سنوات وسمح لهم بمغادرة الجزيرة والهرب من المقاضاة كما أقام أول انتخابات بلدية. حلَّ محلّه في سنة الاستقرار التالية وزيراً قديماً من موريس بارع ورافق المعطيات السياسية الجديدة وبدايات الازدهار الاقتصادي. إننا الآن حسب المخطط المنظور في سنوات الإعمار. أثبتت انتخابات مجلس النواب منذ ثمانية عشر شهراً تقرير القوى الموجود منذ ثلاثين عاماً على الأقل.

تجتمع كل تلك الكتب على نقطةٍ مختلفة: بدأت صورة بنجامان توبيا بالتلاشي في صفحات كتب التاريخ. لم يعد بطل كفاح أو فتيل شعلةٍ غير مسؤول لكنه أصبح اسمٌ من الماضي.

Twitter: @ketab_n

اتصلت بي مديرة الفيلا مساءً وأخبرتني بموافقتها. يغلق المتحف أبوابه للعامة يوم الاثنين وكان الحارس بانتظاري. حذرتني من الإيتاء على ذكر هذا المعروف غير العادي - كررت: غير اعتيادي تماماً - بأن سمحت بأخذ صور وتصوير نسخ ولمس الأغراض وفتح النوافذ. ستجري يوم الثلاثاء صباحاً تفتيشاً تفصيلياً - كررت: تفصيلياً - لتتحقق أنه لم يتعرض شيء للأذى. كما أنها تنتظر بفارغ الصبر نسخة عن المقال الذي سيتم نشره.

أجزلت لها الشكر على صنيعها.

أجريت بعض الاتصالات الهاتفية مع "جبهة دفاع سكان الجزيرة" متذرعاً أنني صحفي من مجلةٍ في سوتيل، وإن أرادوا أن يتحققوا نوعاً من الحيطة، لزودني بولينذر بما يغطيني أنا واثق من ذلك. بعد نقاشات مملّة تمكنت من الحصول على موعدٍ في مقر بوت روج يوم الأربعاء القادم للتحدث عن المؤسس الغائب.

يُباع فيلم خطاب بنجامان توبيا الذي أشار إليه الكسندر شانر في المكتبة مقابل الفندق، فاشتريته غير آبه لما أبدت البائعة من رفض. ترى هل رفضت بسبب محتوى الفيلم أم يبدو جلياً أنني عابرٌ وأني أدنس هذا الرفات المقدس بفضولٍ غير شرعي؟ أعادت لي ما تبقّى من مال بشفاهٍ مشدودة دون أن تتفوه بكلمة.

ما رأيت في حياتي مشهداً يشابه هذا المشهد. يؤكد كل الشهود صحفيين وسياسيين وزوّار قادمين من البعيد أن أداء بنجامان توبيا لحظةٌ فريدة، سحرت المشككين به حتى خصومه. تخونهم الكلمات بسرد ما رأوا بل ما أذعنوا له تقريباً. يتحدثون عن سحرٍ غريب، عن فصاحةٍ منقطعة النظير وعن تشاركٍ عميق مع الشعب. في كل مرةٍ يكرر ذات المشهد والطقوس عينها.

Twitter: @ketab_n

ستارة مسرح عادية، منصةٌ مع بضعة كراسي بإضاءة خافتة، لم يأتِ لا قبله خطيبٌ ولا بعده. اعتلى المنبر بخطىً بطيئة منحنياً قليلاً، أضفى عليه جبة العمر وشرع يخطب بصوتٍ خفيضٍ وبطيء:

"بنجامان. اسمي بنجامان توبيا. بنجامان، معنى اسمي الطفل الأخير أو الأخ الصغير، وأنا الأخ الأصغر لكم جميعاً".

نزل نحو الصف الأول من الجمهور وقبّل طويلاً سيدةً عجوز وقال:

"أنا أخوك الأصغر، يا ماما".

كانت تبكي عندما ابتعدت من بين أحضانه، والدموع تسيل على وجهها المجعّد.

اقترب من رجلٍ مسنٍ فاضلٍ يعتمر قبعةً عريضةً من القش، وقال له:

- "أنا أخوك الصغير أنت أيضاً أيها العجوز".

عانقه طويلاً ثم عَبَر الممر توقف قرب زوجين شابين يحملان طفلة في أحضانهما.

توجّه لمراهقٍ بعيدٍ قليلاً يتباهى بعضلاته المفتولة: أنا أخوك الصغير أنت أيضاً.

اعتلى المنصّة موجهاً مداعبات لذاك وذاك:

"وأنت أيضاً وأنت أيتها الشابة التي تحمل طفلاً وحتى لهذا الطفل المولود حديثاً والذي يمدّنا بالإلهام. وأنت أيضاً أيّها الصيَّاد الذي لوَّحته الشمس. وأنت أيضاً أيتها الخادمة المياومة. وأنت يا من منعتك قضبان السجن أن تكون بيننا، ستسمع صوتك في صوت أخيك الصغير، أنا الأخ الأصغر لكل سكان الجزيرة، إنني أصارع من أجل كل سكان الجزيرة. في الخارج أنا الأمين العام لجبهة الدفاع عن سكان الجزيرة أما هنا ما بين إخوتي وأخواتي الكبار فأنا الأخ الأصغر الذي يصغي إليكم ويتحدث باسمكم لكل العالم.

Twitter: @ketab_n

قفز إلى المنصّة بحركة مدهشة برشاقتها ليست بغريبة على رجلٍ بقوّته وشرع يسير بإيقاعٍ وكأنه يرقص على أنغام كلماته.

يشرح لكم السياسيون بسيارات الليموزين الضخمة أن لا حلّ أمامكم ولا وسيلة لعيشٍ أفضل متاحة، لا أعرف أكثر مما تعرفون، تعلمت كل شيء في بورغ تاباج لا في أي مكانٍ آخر. أنا لست برجلٍ ذكي ولا غني ولا ذي نفوذ ولا مثقّف. عشت بكدّ يميني وقاسمت الضيق الذي يكابده إخوتي وأخواتي الكبار، إنني أكرر الكلمات التي قالوها لي، لا أكثر ولا أقل.

حين أتبوأ قيادة الجبهة وأطأ مؤسساتها التي أعارضها وعندما أدافع عن قضيتنا في الخارج فأنا لست ذاك الرجل الذي يرونه. أنا أخوكم الصغير، أنا لست سوى واحداً منكم، أتمنى في كل مرة لو تكونوا برفقتي لأفسح لكم المجال فتتحدثوا عوضاً عني ولتتدخلوا جميعاً فتسردوا عناء حياتكم".

في البدء، كان كلامه بطيئاً مبهماً، بصوتٍ خفيضٍ ثم علا بشدّةٍ ليصبح جهوراً وحاداً يتسارع شيئاً فشيئاً بتصعيدٍ قاسٍ مُلحّن بشكلٍ مدهش. دوّت في مسامعي لهجة بورغ تاباج، لهجة ذاك الشعب الذي لا يحبه الكسندر شانر. ألقت الكاميرا الضوء على وجوهٍ مضطربة.

"هذا أنا، هاهو ما أنتم عليه هذا المساء على هذه المنصة وغداً في كل ما أنا مقدمٌ عليه. غداً، عملٌ وملفّاتٌ ورسائل ومواعيد، غداً سيمضي الأخ الأصغر إلى العمل لأن عليه أن يعمل من أجلكم وباسمكم. هذا المساء ليس لدي عملٌ ولا نقاشات، ليس لدي ما أترافع له أو أحصل عليه ولا أسعى لإقناعكم. هذا المساء في حي بورغ تاباج يعود الأخ الأصغر لحضن العائلة ويلاقي أترابه. يصغي لإخوته وأخواته الأكبر سناً وينهل من حكمتهم ما ينير دربه.

Twitter: @ketab_n

سنتحدث وستتحدثون لكن ما يهم الأخ الأصغر هو أن يمضي أمسيةً في كنف العائلة.

اسمي بنجامان، بنجامان توبيا، أنا أخوكم الصغير".

حددت هذه الجملة خاتمة الاستهلال، تردد التصفيق بموجاتٍ طويلة طنانة.

يمكننا أن نحكم على هذا الخطاب بأنه مضحكٌ أو بسيط ولكن لا يمكن لأحد أن ينكر حدّة الانفعال التي تشاطرها الحاضرون وهم حوالي مئتي شخص.

الكل وكأنه في دوامة رعب، أحداقهم مزروعة عليه، يهزون برأسهم ويتنهدون ويأنّون في كل استراحة. أشار بإيماءة بطيئة ودائرية نحو الجمهور وعلى إيقاع يده الممدودة ترتفع أمواج من تلك الأجساد المتوحدة.

ذاك المساء - مثل المساء الماضي والمساء القادم ومثل كل يوم منذ أن اعتلى المنابر تحدث بنجامان توبيا عن سكان الجزيرة وعن الآخرين. لم يقل من هم أولئك الآخرين، فالكل يعرف في بوت روج وفي سالوب، أمام ورش النشر ومواقف الحافلات البلدية أو مع نساء المطاعم.

هل يحصل ساكن الجزيرة على مكان في البلدية أو في صيدلية أو في إدارة السينما أو في مكتب الثقافة أو عند ضباط الشرطة؟ كلا ردت الحشود برثاء.

- هل يوجد من بين سكان الجزيرة من هو قادر على شغل هذه المراكز؟

أجابت الحشود مؤكدة: نعم.

- فلماذا إذاً إن كانوا بهذه الكفاءات عليهم أن يكابدوا البطالة أو يشغلوا المراكز الثانوية؟

كررت الحشود: لماذا؟

Twitter: @ketab_n

طرق بنجامان توبيا وهو يقول: لماذا؟ لماذا؟ حان دورنا الآن. فليتنحّى الآخرون جانباً، هل هم من هنا؟

أكدت الحشود: كلا! كلا!

إن لم يكونوا من هنا، هل دعوناهم؟

احتجت الحشود: كلا! كلا!

هل فتياتنا اللواتي حباهن الله هذه الوجوه الجميلة مرغمات على القبول بمن يتقدم لهن؟

هتفت الحشود: كلا.

وعندما يتعرض الجنود الفرنسيون لتلك الفتيات الشابات أليس من حقنا أن نستشيط غضباً؟

زمجرت الحشود: نعم.

وأسعار أراضينا الذي حلَّق، لماذا هذه المضاربة؟ من يشتري أراضينا؟

صرخت الحشود: الآخرون!

- يمكن للآخرين أن يجرّبوا حظهم بعيداً. ونحن يمكننا الذهاب بعيداً؟ هل يجدر بنا الذهاب بعيداً؟

صممت الحشود وقالت: كلا! كلا!.

- لا نستطيع فعل ذلك ولا يجدر بنا فعله بل لا نريده. حان دورنا الآن.

- أين سيحيا مستقبل سكان الجزيرة؟

تهللت الحشود: هنا، هنا!

- هنا في بورغ تاباج، تضرب جذورنا في هذه الأرض، ماضينا ومستقبلنا هاهنا، هل سنسمح لغيرنا - للآخرين - أن يقرروا مكاننا؟

هاجت وماجد الحشود وهي تصرخ: كلا!

إذاً، اقترحت الحكومة الأسبوع المنصرم خطةً لتأهيل الشباب، لماذا لا نقول بكل بساطة أن سكان الجزيرة فقط لهم الحق بالمساعدة؟ هل

Twitter: @ketab_n

تذكرون الوعد الذي قطعته على نفسي، هل تذكرون شعار العام المنصرم؟ حان دورنا الآن!

هتفت الحشود فرحاً بالعثور على أرضٍ معروفة:

حان دورنا الآن! حان دورنا الآن!

أحاط بنجامان توبيا فيما بعد بأسئلة حول الصحّة، مشادة كلامية غامضة في البلدية حول "السوق الكبرى" واستمع لشكاوى الصيادين وقضايا السكن والأكواخ ودائماً وفق منطق واحد. تابعتُ حتى النهاية مصدوماً مشدوداً متأثراً بل مفتوناً رغماً عني. يتمتع هذا الخطيب الشعبي بهبةٍ فريدة. لن يجابه الرشاد ولا البراهين العقلانية أو التاريخية التي يدلي بها شانر هذا الدفق من الكلمات الآسرة للنفوس.

الابن الوحيد، يعلن نفسه الأخ الأصغر لشعبٍ كامل.

هل هذا كان ثمرة حب مدفوع ثمنه بين بحّارٍ فرنسي وامرأة من سكان الجزيرة متزوجة من رجل أعمالٍ ثري؟

Twitter: @ketab_n

حضرت يوم الاثنين إلى فيلا رايموند، استقبلني الحارس، وهو شاب صنديد مبتسم، بلا كلفة وجعلني أزور الغرف المقفلة للعامة. في الطابق العلوي قرب الرسم الكامل لرايموند توبيا، هناك بابٌ يفتح على درجٍ وتخشيبة السقف المجهزة.

يشغل أرشيف العائلة شقّةُ جدارٍ في الغرفة الثانية ذات النوافذ المنخفضة المطلّة على البحر البعيد. استنشقت الهواء وشرعت بالعمل.

لم يلقِ أحدٌ نظرةً على هذه الأوراق منذ نصف قرن. أنا قيّم الوثائق الخاصة، أعرف هذه الفوضى وآمل أن أطوّعها، فتحت الدروج والملفّات خبط عشواء فعثرت على دعوات إلى حفلات ومقالات من صحف ودفاتر روبرت توبيا المدرسية، فواتير، رسائل مرسلة أو مستلمة من كافة الأصقاع وتقارير تجارية وصحف مصفرّة اللون. يضم رفٌ كاملٌ بشكل أساسي أعمال روبرت توبيا الخاصة بالمسكوكات: مراسلات مع الباعة ومشاريع مقالات حررت بانتظام ورفضتها المجلات المختصة بتهذيب.

شُطبت المقالات المرفوضة ونُقّحت وأُعيد إرسالها مجدداً حسب إيقاع سفن "الرسائل" وتم رفضها من جديد. حازت واحدة منها على شرف الطباعة في المجلة البحرية الاستعمارية المعتبرة من عام ١٩٣٧ تحت عنوان "عالم المسكوكات والميداليات في المستعمرات"؟ تحدّث بشكلٍ ظريف عن المصاعب التي تواجه تكوين وإدارة مجموعة من القطع القديمة من نصف الأرض الآخر، إلا أنه لم يحدد طبيعة كنزه. روى في نصٍ سابق أُرّخ عام ١٩٣٥ لكنه لم ينشر كيف وصله عشق العملات.

عندما بلغت سن الرشد عام ١٩٢٨، سمح لي والدي بدخول مكتبه وقدّم لي ثلاث قطعٍ ذهبية على أحد وجوهها أميرٌ متوّج وعلى الوجه الآخر برج. بدت لي كسفرٍ بجمالٍ أخّاذ. بعيداً عن وزن الذهب الذي

Twitter: @ketab_n

يكوّنها فهي تبثُّ طاقةً إيجابية ورغبةً بالإيمان بالإنسانية. شرح لي أن هذه الكورونات الثلاثة سكّها الأمير الكسندر أوغست دوجيرولستان أنهالت - الذي عرفت بوجوده ذاك اليوم - وقد رافقته منذ وقت طويل وأنها ستكون من نصيبي يوم يوارى الثرى. لم تكن أختي سيمون قد رأت النور بعد لكن أخي جيلبرت هنا فاعترضت وقلت له إن لأخي الحق بنصفها، إلا أن والدي وبجدية باغتني وأخذ مني يميناً بألا أعارض مشيئته وأنه سيعوض جيلبرت بأملاك عقارية أو ببعض المواقف، المهم أن أحافظ على هذه الأكاليل الثلاثة معي، الولد البكر، لم أدرك سرّ إصراره الشديد على هذه النقطة في حين أن ابنه الثاني يرهق نفسه من أجل نسخة لاتينية. مع ذلك قطعت له وعداً وأدركت لاحقاً كم تسحر هذه القطع من يملكها، بذلت ما بوسعي لأكون جديراً بها وهيأت نفسي ليوم وفاة والدي الذي سيجعل مني حارسها. نالت المسكوكات اهتمامي وشرعت بتشكيل مجموعة. لم تكن مقتنياتي الأولى حرّيةً بالاهتمام إلا أنني عرفت لاحقاً أين أتجه. رويداً رويداً انتقلت من اقتناء قطعٍ فضيّة إلى قطع ذهبية.

رتَّب روبرت توبيا على الرف السفلي مفكّراته الخاصة، وقد سجَّل عليها بضع كلمات لئلا يفقد تاريخ الحدث كمخطط صحف خاصة: افتتاح متجرٍ، هبوب زوبعة، اللقاءات والأحداث السياسية الهامة التي تهزّ فرنسا وجدولاً زمنياً بالولادات والأعراس والوفيات في العائلة.

فتحت المفكرة الخاصة بالعام ١٩٤٩ يوم ١٩ كانون الثاني:

شُطبت هذه الصفحة بخطٍ أسود مائلٍ طويل يغطي كامل الصفحة، إشارة يصعب فكّ رموزها لم أجدها في أي يومٍ آخر. لم يكن على ١٩ كانون الثاني ١٩٤٩ أن يكون موجوداً. لم يكن خط القلم غاضباً بل منسقاً مما يحمل تأكيداً.

Twitter: @ketab_n

جرى في هذا اليوم شيء ما غير عادي عجز عن وصفه كل من روبرت توبيا وتوماس كولبيرت. توصل كولبيرت لسرده بعد زمنٍ طويل. ما النص الذي قد يحرره ذاك الذي دفع لمجهولٍ ليكون أباً عوضاً عنه؟ ترى هل شطب الصفحة ليواجه الحكاية أم محاولةً للهرب...

في تاريخ ٢٠ كانون الثاني ١٩٤٩، كتب هذه الكلمات:

مكتب محطَّم

اختفاء عملاتي.

سجل في اليوم التالي: "شرطة؟ كلا. للأسف". أُلصق في هذه الصفحة بيان تم اجتزاؤه من صحيفة ٢٠ كانون الثاني يشير لحركة الميناء ليلة أمس ومغادرة ثلاث سفن من بينها بريزيدان بوديسين.

حتى ذاك الحين كنت أظن أن كولبيرت ذكر الحقيقة كاملةً عن المشهد المؤرّخ في ١٩ كانون الثاني من عام ١٩٤٩. فوجئت باختيار قطعٍ ذهبية من مجموعة لدفع أجرته، خِلتُ أنها تدلّ على قيمةٍ رمزية حسب كتابات روبرت عام ١٩٣٩.

تشكّل القطع التي قدّمها البيرت لولده يوم بلوغه سن الرشد والوعد الذي قطعه للوالد بألا يتخلى عنها نوعاً من الاحتفال بالنسب، دفعها للبحار ليشتري عجزه عن الاستمرار في العائلة فجعل دون علم من ذاك الشاب، في رمزٍ معذِّب، فرداً بالتبنّي من عائلته، هذا ما اعتقدته خلال ساعة.

انبثقت حقيقةٌ أبسط بكثير وهي أن هذه الأكاليل قد سُرقت. إذاً قبض كولبيرت المال نقداً ثم دون شك تبع بالزوجين دون أن يلحظاه حتى فيلا رايموند وخطّط لعملية السطو مع صديقه لوسكان. كانت الضربة جريئة ولكن لا مجازفة فيها فلو باغته توبيا هل سيخاطر باستدعاء الشرطة ليصغوا للتهريج الحاصل في الأمسية الماضية فيثير دهشتهم ثم سخريتهم؟ لم يلحظ لا توبيا ولا أيٌ ممن يقطن الفيلا شيئاً

Twitter: @ketab_n

خلال الليل. نهب كولبيرت ولوسكان كنز القطع القديمة فهي ثروة صغيرة خفيفة الوزن ويمكن مقايضتها بسهولة في أي ميناء. تسلقا جدار الحديقة ودخلا عبر نافذة تركت مفتوحة لليلٍ استوائي ، بحثا يمنةً ويساراً ثم كسرا قفل مكتبٍ، صرّا الكنز وهرعا إلى قاربهما الذي سيبحر في اليوم التالي. أذكر أن الصحيفة البحرية الخاصة بسفينة "بريزيدان بوديسين" أشارت لتأخرهما ولملابسهما الممزقة. عندما لاحظ توبيا السرقة لم يكن بمقدوره فعل شيء. حزر من اللص إلا أنه لا يعرف اسمه وأن سفينته قد غادرت. إحدى السفن الثلاث المذكورة في مقال الصحيفة المقتطع. ما الفائدة التي سيجنيها من إثارة السخرية دون أمل لاستعادة ثروته؟

في اعترافه المتأخر، جمل توماس كولبيرت مرحلتين، حصل على أجره بشكلٍ قانوني ثم أعاد تقييم الأجر على طريقته. الأكاليل الثلاثة التي بدت في النص السعر المناسب تلخّص وتمثّل مجموعة العملات والفضّة والمجوهرات المسروقة. *احذر دائماً من إبرام عقدٍ في بورغ تاباج.*

عُدت إلى الوراء واستعدت أعمال المسكوكات العائدة لروبرت توبيا التي انقطعت عام ١٩٤٨ . لم يشهد أي مقالٍ بعد اختفاء هذه القطع النور ولا أي محاولة كتابة ولا أي عملية شراء. تخلّى نهائياً حتى آخر يوم في حياته عن هذا الولع الذي شغله لعشرين عامٍ خلت.

في الصفحة التي توافق ٢٠ تشرين الأول ١٩٤٩ : "ولادة بنجامان. بنجامان!"

ولا أي تعليقٍ آخر عدا هذا الاسم، هذا الاسم المكرر والمُنقّط. لماذا عمّده بهذا الاسم بعد سنوات الانتظار الطويلة وبذل من أجله هذه التضحية؟

بنجامان يعني المولود الأخير أي آخر سلسلة الأخوة، لا جدوى من تخيّل ولع لمن يكبر بنجامان مثل فرانكلين وكونستان وديزرايلي... يدوّي

Twitter: @ketab_n

هذا الاسم كدعابة موصومة بالمرارة. بنجامان هو المولود الأول وهو بالضرورة المولود الأخير الأصغر سناً. لم يرزق بأطفالٍ بعده، ما من مواعيد أخرى في أحد بارات الميناء ثم في منزلٍ ما في المدينة العالية. الثمن المدفوع كان باهظاً جداً، بقي بنجامان وحيداً. هاهو معنى هذا الاسم الذي لا يدرك تهكمه سوى أبويه والطبيب، ولد بنجامان، بنجامان مزوداً بعلامة استفهام؟

تشفّ هذه المذكرات عن مسيرة قطار حياة روبرت توبيا، يدوّن فيها سهراتٍ في النادي المدني وعزائم على العشاء في منزله مع أسماء المدعوّين. ارتفعت وتيرة هذه الدعوات منذ عام ١٩٤٩، تضاءل عدد زياراته للنادي المدني ويستقبل الكثير في الفيلا، كان المدعوّون أشخاصاً مرموقين في المستعمرة أو أشخاصاً عابرين. تكرر اسم الطبيب سيرول ثم ليون سيرول أو ليون تقريباً كل يوم مع مطلع العام ١٩٤٦. ترى هل هو الطبيب الذي أحضر توماس كولبيرت ثم فحصه؟

رفعت رأسي لدى سماعي صرخةً حادة مكررة، صرخة حيوان، جلت بنظري بحثاً عن مصدر الصوت حتى عثرت أعلى النافذة على نوعٍ من العظاءة بيضاء اللون معلّقة بالسقف. تدخل رأسها في عنقها بفواصل منتظمة وتضجّ بنغمٍ واحد.

كيف أسكتها؟ رميتها بممحاة وكرة ورقية وقلم حتى تهرب ولكن دون جدوى. تتوقع خط الرمي ولا تؤت بحركة إن كان الاصطدام على بعد أكثر من سنتيمتر واحد وإلا لتحركت بما يدفع عنها الإصابة. أشارت إلى محاولاتي البائسة بصرخةٍ مكررة دون أن تنظر إليّ. ويدهشني الصوت الطنّان الصادر عن حيوان بهذا الحجم. أمضت طيلة النهار تظهر عدة مرات، تطلق عدة صرخات وتنظر بعدة اتجاهات ثم تختفي من حيث أتت.لفتت انتباهي علبةٌ من الكرتون سوداء اللون، كُتب عليها عنوانٌ ساخر: "جهنم" تضم الرسائل التي تم إرسالها لروبرت توبيا على

Twitter: @ketab_n

مرِّ حياته وسيفسر ترتيبها بهذا القبر التذكاري رويداً رويداً. لا ترابط يجمع بين الواحدة والأخرى لكنها بمجملها رسائل بغيضة ومزعجة بل ومؤذية: رسائل شتائم مجهولة وتهديدات من الدائنين واحتجاجاتٌ من الجيران على نباح كلاب الفيلا ورسائل تهديد بالمفهوم السياسي بالإضافة لصحيفةٍ مجهولة بكلماتٍ مقتطعة من صحف: إحدى سكان الجزيرة لا تضاجعها لا تتزوجها! أشارت الرسائل الدورية لانخفاض وتيرة الرسو في بورغ تاباج واحتجاج الزبائن، زد على رسالة إنذار حول مستوى بنجامان الدراسي في المدرسة الابتدائية ورسالةٌ من الحاكم يأسف فيها على عدم ترشيحه "لمنصب الاستحقاق الاستعماري" وتبادلات رسائل لاذعة ولطيفة حول استقالته أو استبعاده من النادي المدني.

هناك رسالةٌ عادية ولبقة يعود تاريخها إلى حزيران ١٩٤٨، لم يكن يجب أن توضع في هذا القبر التذكاري. قرأتها وأعدت قراءتها إلا أنني لم أفهم لماذا وضعها روبرت توبيا في هذا الخليط.

سيدي،

قبل مغادرة السفينة، أدين لكم بالشكر على الاستقبال الذي خصصتماني به أنتم وزوجتكم الرائعة. ليقفل بسهرة الأمس مع الأصدقاء حيث لم يفت اهتمامكم المرهف دعوة الشخصيات المرموقة وتقديم المأكولات الأشهى في مستعمرتكم. كيف أعبّر عن ذاك النبيذ والمشروبات الروحية التي استسلمنا لها ...

نالت إعجابي الفيلا بديكورها الأنيق ومجموعة العملات واللوحات. أبهجتني المقطوعة التي رافقت المقبّلات على بوق "جيريشو Jéricho" سأنقلها إلى الصالونات الباريسية في كل مرة أتمكن من ذلك. آمل أن تمر يوماً ما إلى فيرساي فأستقبلك بدوري.

Twitter: @ketab_n

هل هناك بين هذه الجمل المنمّقة جملةً واحدةً تفسّر سبب تصنيفها في ملف القضايا المزعجة؟ حاولت أن أفهم. أعدت قراءتها عدة مرات. الجملة الوحيدة التي بدت لي سخيفة تماماً هي "بوق جيريشو" ولكن لماذا؟ إنها إحدى جمل روبرت توبيا، لماذا لم تعجبه؟ ومن جهةٍ أخرى لماذا كرر مضيفهم هذه الكلمة؟ ذكرت جيريشو عدة مرات في الإنجيل. هل عليّ أن أتحقق من كل شيء أو البحث عن إيحاء معاصر أكثر؟

سجلت بضع ملاحظات ثم تهيّأت للانتقال إلى الرف التالي. قرعت أجراس الكنيسة معلنةً منتصف الظهيرة، شعرت بالجوع يقضُ أحشائي. تفوح من الحديقة رائحة الحضميات. عند المدخل، كان الحارس يقرأ كتاباً سميكاً، ترددت أن أزعجه حين رفع رأسه فطلبت منه رؤية مجموعة العملات القديمة.

"لدي مفاتيح الخزائن في الطابق العلوي ولكنها لا تحتوي على شيء، لم أرَ أبداً القطع".

- أين هي؟

- هناك تعليمات، إن سألني أحد السياح عنها أن أجيب بأنها مودعة في صندوق البنك الوطني للتطوير، أنت تعرف، البرج المرعب.

- شكراً، بالواقع هل هناك مطعم صغير جيد على مقربةٍ من هنا؟ إن لم يكن لديك ما يشغلك دعني أدعوك.

قَبلَ عن طيب خاطر وذهبنا سيراً على الأقدام.

- أعدك بألاّ أتفوّه بكلمة عن هذا الهروب أمام مديرتك.

- آه، على كل حال إنها نصف مجنونة، ما دمت أقوم بعملي....

- على ماذا يقوم عملك كحارس للفيلا؟

- جز العشب وتقليم الحواجز ثم تقديم العون في بيع التذاكر. التنظيف بعد مغادرة السيّاح والقيام ببعض التصليحات ورمي القمامة. أنا أقيم في سكن الحارس مما يتيح لي الدراسة.

Twitter: @ketab_n

وصلنا إلى حديقةٍ مغلقة حيث وضعت الطاولات بانتظار الزبائن. المسؤولة امرأة قوية تلفّ وزرةً على خصرها، قبّلت الشاب وقررت أن نتذوق وجبة المنزل الخاصة.

- أظنّ أنني أزعجتك أثناء مطالعتك.

- موجزٌ بتعريف الحيتان؟ إنه كتاب أعرفه عن ظهر قلب.

- هل تهتم بالحيتان؟

- نعم. كل صيف تمر في بورغ تاباج حيتان برفقة صغارها. تبقى الأمّات في مياهنا الدافئة وتسحب صغارها ثم يغادرون باتجاه الجنوب نحو المحيط "انتاركتيك" لتلتهم أطناناً من القريدس.

- شوّقتني للموضوع.

- طالما وددت الذهاب إلى فرنسا لدراسة علم المحيطات، لديّ ملف في البعثة، وكان أحد أبناء عمّي بانتظاري في بريست، أنهيت دراستي في نيكولا بودان...

- ؟..

- ثانوية نيكولا بودان على اسم الملاح الأكبر والذي قام بوصف الحيتان في رحلته حول استراليا؟ ثم بدأت الاضطرابات وعلّقت هنا.. وهاأنذا أعمل كحارسٍ للفيلا. عندما يحين فصل الحيتان، أمضي وقت فراغي في البحر لأقوم بتعريفها. حاولت أن أستدل على عائلات وأراقب عودة الأمّات مع صغار الحوت في العام التالي. يجب وضع علامات على الزعانف وتحدد الأفراد ثم تضع بطاقات لتقوم بتصنيفها. لم قد نتوصل للحاق بالسكان أرسلت النتائج التي توصلت إليها إلى المتحف في باريس مثل المراقبين الآخرين في كل مكانٍ في نصف الكرة الجنوبي. تمسكوا بالنتائج وفرحوا بالولادات الجديدة حين عرفوا العائلة.

Twitter: @ketab_n

حملت إلينا صاحبة المطعم صحنين كبيرين مليئين بسمكٍ بحجمٍ جيد ورز مزيّن بالزبيب والصنوبر وأنواع محلية من السبانخ، وتتمة الوليمة صحن من سلطة الملفوف البنفسجي والرمادي.

هددت حليماتنا الذوقية وصفة من الحساء الأحمر الغامق.

قالت لي: "حذار إنه حار. دع فريدريك يأكل، إنه بحاجة للطعام. عندما تنهيان وجبتكما، سأحضر لكما طبق الحلويات لتعطياني رأيكما.

قال لي باسماً:

- إنها خالتي.

- إذاً ماذا نفعل حتى نتمكن من رؤية الحيتان؟

- يجب أن تأتي في كانون الثاني، إنها الآن أقل عدداً من العصر الماضي حين كانت تزهو المستعمرة بها.

- وثروة لبعض الهواة الجريئين. اصطادت سفنهم مئات الآلاف منها في الجنوب. رُسم على شعار بورغ تاباج ذيل حوت مرتفع على أهبة الاستعداد للقيام بعمليات السبر.

- لاحظت ذلك لكنني ظننت أنه محض صدفةٌ.

ابتسم بتسامحٍ لطيف جداً وقال:

- حقاً إنها حيتان.. حيتان ذات حدبات أو ميغابترا نوفالنغليا Megaptera novaeangliae، أحياناً هناك حيتان حرة، حيتان من بلاد السمك Eubalaena glacialis.

- ألى تخشى الناس وهل تتيح لهم الإعجاب بها؟

- في بعض السنوات، كانت تبقى في عرض البحر فنستقل قارباً لرؤيتها، لكن حين تلج الخليج وتعبر مقابل "البولفار أي الجادّة" ترى المدينة برمتها ترتعد فرحاً. يصطحب المدرسون التلاميذ لمشاهدتها وإلا تسكعوا ونشروا الصخب في ربوع المدرسة. تصبح أوقات العمل في المكاتب والورش حرّة، وراهبات "ساكري كور أي قلب يسوع Sacré

Twitter: @ketab_n

Coeur" مع أيتامهم وجوقة البواقين البلدية بالزي الموحد والمتقاعدين والصينيين مع فوانيسهم وتنانينهم، النقابات وشعاراتهم ونادي السباحة "حيتان بورغ تاباج بالطبع" وصبية شالوب السيئين، يجتمع كل أولئك الناس على شاطئ البحر.تنبثق للتو أكواخٌ لبيع البطاطا المقلية والبيرة لتستفيد من أيام التسامح هذه في البولفارد. يقدم المختار في خيمة الأبهة الخاصة به المرطبات للمرموقين من البلد. حسب العرف الحولي، حتى الجنود المعاقبين يمكنهم مغادرة ثكناتهم في إذن الحيتان.

كانت تظهر الحيتان في الخليج فيجتمع المشاهدون على الشاطئ يتفيأون بظلال أشجار الفيلاو والجاكراندا ويراقبون خمس أو ست بل أحياناً عشر كتل ضخمة معتمة. بعض القوارب الشراعية رست وألقت المرساة ، كم تبدو صغيرة عن بعد. كان يقطع لون ظهور الحيتان الرمادي الغامق لون البحر الفضي الذي تداعبه النسمات. تنفخ إحدى الحيتان فتقابل نافورتها بصرخات إعجاب الحشود. تبقى صغار الحيتان أكثر حذراً إلا عندما تقرر الغوص تتموج ثم يرتفع ذيلها وبضربة قاضية قوية تسوط وجه الماء دون أن تصدر ضجيجاً أو حتى أمواجاً ثم تختفي، بعد لحظات تغوص الأمات بدورها، وبعد مرور نصف ساعة تقريباً تغفو معاً على سطح الماء.

يمنع وجود أي زورق في الخليج حتى القوارب التي تغادر الميناء التجاري تبتعد عن الطريق الخاص بالحيتان. بعد أسبوعٍ، تغادر الحيتان نحو الجنوب.

ترى هل رأى توماس كولبيرت لدى رسوّه في كانون الثاني عام ١٩٤٩ هذه الحيتان، ترى هل غادرت سفينة بريزيدان بوديسين الميناء عبر الطريق المائل؟

- إنك تتحدث بشكلٍ ملفتٍ للنظر لكنك تتحدث بصيغة الماضي.

- بالماضي...

Twitter: @ketab_n

- ألم تعد تأتي الحيتان؟

- مازالت حيتان بورغ تاباج تأتي.

لم أفهم لماذا جرحته ملاحظتي، فوجئت بجوابه الجافي، تأمل صحنه ثم تابع الحديث بصوتٍ مبهم دون أن ينظر إليّ:

جاءت الحيتان لتنعم بالراحة في الخليج ونحن في خضم الاضطرابات حين رافقت أصوات الأسلحة الأوتوماتيكية لياليناً، يطلق مجهولون النار على أهداف خفية. لم تأبه الحيتان بالجنون الذي مسّنا وانهمكت بتناول الطعام والنوم. أقدم بعض المغامرين على رؤيتها ثم المدرسة الابتدائية في البولفار ومتقاعدون يعتمرون الخوذ ونساء ومجموعات صغيرة ومكتب الأصدقاء الصينيين ونادي لعبة الكرة ثم نادي ألعاب القوى ثم نادي التزلج بالشراع كذلك نادي حيتان بورغ تاباج للسباحة تبعهم الأسقف والقس والإمام معاً وطلاب المدرسة الثانوية رغم أن أبوابها مقفلة منذ عدة أشهر خلت وصلت مجموعات، حتى سائقي باصات البلدية بالزي الرسمي ومتطوعي الصليب الأحمر. التقيت هناك بالمراقبين الثلاثة الذين لم ألتقي بهم منذ عامٍ على الأقل. صنعنا بطاقات المتحف بعناية، عندما شارف النهار على نهايته كان عدد الناس يقارب العادة.

الجو كان مختلفاً تماماً، لا صراخ ولا تصفيق ولا خيمة أبهة ولا أكواخ لبيع البطاطا المقلية. صمتٌ مطلق، لم تعد تحركهم سوى المراسم الجنائزية. حمل كل امرءٍ أثناء مجيئه لمشاهدة الحيتان كل حداد حياته السابقة والحنين لتلك المشاكل التافهة القديمة، جاء سكان بورغ تاباج لينثروا دموعهم على وجه البحر. مدينةٌ كاملةٌ غطّاها الدمع. حذّر السياسيون الكبار من الظهور، غاص صغار الحيتان ونفخت الأمّات الماء لكن كل حركة أثقلت أحزان الحشود أكثر.

في اليوم الأول غاب جميع الناس مع غياب الشمس في البولفار.

Twitter: @ketab_n

ساد الهدوء الليل، لم تتخلله طلقاتٌ نارية لكن عكس المتوقع عانينا باحتمال هذا الهدوء. في اليوم التالي، بقيت هنا واحترم الجميع تلك الهدنة الغامضة التي سنّتها الحيتان بمجيئها. غادرت في اليوم الثالث. الأسابيع التي تلت مغادرتها كانت الأكثر يأساً في حقبةٍ لا أمل فيها.

أعتذر لقد أسهبت بالإجابة، لكن أجل، عندما أتحدث عن عبور الحيتان في الخليج أستخدم الفعل الماضي عفوياً.

لاذ بالصمت واحترمت انفعاله. كل من خرج حيّاً من هذه الاضطرابات التي هزّت هذه المدينة يرزح تحت وطأتها. كان سهلاً عليّ أن أصل وأصدر أحكاماً بل أستهزأ ولكن ماذا أعرف عنهم؟ ربما فقدت مديرة الفيلا الشرسة زوجاً أو ابناً خلال المعارك. شهد الجميع مآسٍ تراجيدية خاصة أو جماعية وليسوا على استعداد لسرد معاناتهم أمامي أنا السائح العابر، لن أقدّر ما الذي كابدوه يوماً بعد يوم ولكن من يمكنه تقدير ذلك؟

قدّر فريدريك أن صمته أصبح ثقيلاً، تابع حديثه مراقباً صوته الذي لم يعد يرتجف.

في السنتين اللتين تلتا الاضطرابات لم تدخل الحيتان الخليج، تمكنت من القيام بالتوصيف على متن السفينة الجمركية بعد موافقتهم. عادت الحيتان في العام الماضي، ومضى أسبوع من الاستعراض أمام البولفار. أعلنت وازرة السياحة عن إطلاقها لمنتج "الحيتان" في الأسواق الأميركية والكندية، أتحدث اللغة الإنكليزية، سأجرّب حظي كدليلٍ سياحي، إن أعطتني المديرة إجازات بأوقاتٍ معينة.

عدنا إلى الفيلا، شكرت فريدريك وتركته لكتبه وأحلامه. اتجهت نحو العُليَّة، إذ لم أسبر سوى ثلث محتواها، تنتظرني ملاحظات روبرت توبيا والعظاة الصغيرة البيضاء الماكرة.

Twitter: @ketab_n

على الرف التالي هناك علبةٌ من الكرتون كُتب عليها عنوان "رايموند". تضم كل ما جمع روبرت توبيا عنها. لم تكن تلك الأوراق مصنفةً بل وُضعت وفق اكتشافها. خلتُ بادئ الأمر أنه جمعٌ قام به ابنٌ معجبٌ بوالدته على طول حياته. أدركت لدى رؤية دقة البحث وفوضى الملفات أن روبرت هو من قام بجمع هذه المواد بعد وفاة رايموند عام ١٩٥٤. قرأت هذه الأوراق وما وجدت فيها شيئاً مهماً خلا آلاف الإشارات تدل أن رايموند توبيا المرأة العشيقة واثقةٌ من حسنها وغناها، فخورة بمكانتها وزوجها. المساهمة ذات الأسهم الأكثر وصاحبة القرار في شركة فندق باريس، هي من أنشأ المؤسسة وقام بإدارتها خلال ثلاثين عاماً لتجعل منها مركز الحياة الاجتماعية في المستعمرة. كما كانت تدير بمهارة أعمال زوجها لدى غيابه والفيلا التي تحمل اسمها. لدى قراءتي لرسالة الرسام "راتمانوف" أدركت أن الرسم الكامل لرايموند وهي في الثلاثينات، كان بناءً على طلبها. من أجلها ومن مالها الخاص ليتم تعليقها في الفيلا. لم يكن لزوجها أي طرف بهذا القرار على عكس ما توحي إلينا رومانسية المكان.

عددٌ من جريدة "ماتان أوسترال أي صباح جنوبي" الصادرة عام ٥ أيلول ١٩٠٣، تم شراؤها من صاحب مكتبة باريسي مختص وتحمل فاتورة الشراء تاريخاً عائداً للعام ١٩٥٨. قلبت صفحاتها الأربع الخالية من الرسوم. يروي مقالٌ تفخيمي ما يلي:

"أحد الأعراس الأكثر تألقاً التي شهدتها المستعمرة على الإطلاق، هل هناك ما يثير الإعجاب أكثر؟ هل هناك أكثر من هذه الحشود السعيدة التي تضم كلَّ من في بورغ تاباج من شخصيات مرموقة وتجّار؟ هل هناك فرحةٌ مثل فرحة العريس يشاركه فيها والد العروس بكل احترام؟ أقام عم العروس الأب سيمون مراسم القداس في كنيسة تغمرها الزهور والأناشيد الدينية؟ الوليمة المقامة في النادي المدني حيث راقصنا الليل؟

Twitter: @ketab_n

والألعاب النارية من الغرائب النادرة في أجوائنا؟ كلا، إن أكثر ما استرعى الانتباه هو الجمال الأخاذ الذي تتحلى به تلك التي ستصبح رايموند توبيا. فرضت سحرها وأناقتها وابتسامتها على كل الأشخاص ذوي المنزلة الرفيعة. فُتنت النسوة بفستانها الذي حاكه لها مصمّمٌ قادمٌ من فرنسا وذُهلن بتسريحة شعرها متوّجة بثلاث قطعٍ ذهبية واللؤلؤ الصافي. بدا الانفعال جليّاً في نظراتها ونظرات والدها وكذلك في نظرات الرجل الذي قالت له أخيراً "نعمْ" بصوتٍ مؤثّر.

عثرت على ظرفٍ يحمل عنوان "سيمون" في داخله إخطارٌ بولادة ابنة ألبيرت ورايموند توبيا يوم ٢٣ أيلول ١٩٠٩ وبعض الصور والرسومات والدفاتر ونعوةٌ يوم ٥ كانون الثاني ١٩١٨.

عثرت على ملفٍ ثقيل اسمه "جيلبرت" مخفيٌ عند طرف أحد الرفوف محشور في زاوية الجدار. جيلبرت توبيا - الأب ألبيرت، الأبناء روبرت وجيلبرت. تشير القافية في الأسماء للنسب، جيلبرت هو الابن الثالث والأخير لزوجين. الملف الذي جمعه روبرت عن أخيه بدأ عام ١٩٣٨، في حين أن أخاه الأصغر ولد عام ١٩١٢ وغادر إلى فرنسا، لكن الملف لا يحتوي سوى رسائل جيلبرت الذي يتحدث عن إقامته في العاصمة لمشاريع دراسية غامضة. توحي بعض التلميحات إلى أنه ترك المكان "للابن المفضل" وأنه يتمنى ألا يدين بشيء لعائلته. كما يبدو أن فكرة زواج أخيه - أو بالأحرى أن خطيبته من سكان الجزيرة - لا تروق لأخيه الأصغر فآثر الابتعاد.. لدى اندلاع الحرب هرب جيلبرت من التجنيد في العاصمة فهو بين قوائم بورغ تاباج، بدأ عمله في صحيفة صغيرة وكان يرسل لأخيه الأكبر مقالاته عن المسرح وآخر صيحات الموضة، بعد الهدنة التي وصلت حتى بوردو جرّب حظّه في فيشي ونجح بأن يلفت الأنظار إليه وعاد إلى باريس ليعمل صحفياً في جريدة " Je suis partout أي أنا في كل مكان" ولاحقاً في راديو باريس. أخذت مقالاته

Twitter: @ketab_n

طابع الجديّة، يزعم أنه مختصٌ بشؤون المستعمرة معتمداً على اعتبارات جغرافية سياسية غير مؤكدة جمعت أوج التعاون والنظام الجديد. تحتفي الرسائل التي أرسلها لأخيه بين عامي ١٩٤١ و١٩٤٢ بانتصاراته وكان يرسلها بالتناوب ما بين سويسرا والأورغواي. انبهر الشاب بنجاحاته البسيطة، كان يخرج ليل نهار مدججاً بالتأثير الطفيف الذي يظن أنه يمارسه ويهنئ نفسه بسيرته المهنية اللامعة في مجال الصحافة وبصحّة اختياراته في حين كان روبير الحكيم يدير شؤون العائلة في الطرف الآخر للعالم. كان الأخ الأصغر يلح لكي يرسل له أهله وثيقة التعميد فبعض الدساسون يجدون لقبه سامياً جداً ويعود للعهد العتيق، نسبه إلى مدينة البندقية من جهة والده وبيكارد من جهة والدته لذلك يخمن أنه سيحتل موقعاً ممتازاً في الثورة الوطنية.

هناك رسالة مؤرخة بنهاية العام ١٩٤٢، تشكي وتبكي وتطلب المال، كل ما يمكن أن يرسل له أخيه من حصته بالميراث، ذكر أن هناك "مومساً" ستساعده بتبوّء مكانة مهمة وطلبت أن يأخذ احتياطاته وأنها بالطبع ستجعله "يقفز المراحل" إلا أن ذلك يكلّف ثمناً باهظاً وأن المخاطر تحدق بهذه الخطوة حيث تختبئ المجهضات. دعك روبرت هذه الورقة بين يديه حنقاً ورماها في سلة المهملات ثم عدل عن رأيه واستعادها وصنّفها مع باقي الرسائل. لابد أن الإعلان عن الإجهاض قد دوّى حزناً في اضطرابه.

بدا القلق جلياً مع مطلع العام ١٩٤٣ ورغب بأن يكون طرفاً في النزاع، صارت النصوص التي يحررها ملتزمةً أكثر فأكثر معتبراً أن "الرايخ الثالث Le Troisième Reich[1]" سوراً لكل الحضارات، تعرّض

---

1 - الرايخ الثالث هو الاسم الذي اطلق على المانيا النازية إبان حكم ادولف هتلر ما بين ١٩٣٣-١٩٤٥.

Twitter: @ketab_n

لتهديد الإرهابيين أي "المقاومة" التي يتباهى بها بتهوّرٍ في يومياته. لن يظلّ متفرجاً. إنه يأمل أن ينضم إلى جيش المتطوعين الفرنسيين على الجبهة الجنوبية. تردد، لم يذهب. عام ١٩٤٤، أدرك أن الحزب قد خسر وتوقف عن النشر ورسم مخططات لفترة ما بعد وصول الشيوعيين. يبدو له أن رحيله إلى سويسرا آمناً. كان يشتكي ويطلب العون والنصح بسذاجة من أخيه. تقارب الحلفاء وأصبحت التحركات أكثر صعوبة، علم بالمصير الذي لاقاه مساعديه في المناطق المحررة وكان على يقين أن اسمه مسجّل على القوائم.

حملت آخر رسالة أرسلها تاريخ ٥ تموز ١٩٤٤ أعلمه فيها أنه سيصل إلى إسبانيا وأنه سيرسل إليه رسائل تحمل أخباراً مطمئنة من مدريد.

لا شيء آخر، يبدو أن جيلبرت توبيا قد اختفى ربما بالتفجيرات أو بالمعارك أو تمّت تصفيته.

لم أعثر على أي إشارة من روبرت، لا شيء يسمح بالتنبؤ بمشاعره نحو أخيه الذي تربطه به علاقةٌ هشّة. روبرت الأخ الأكبر من بين ثلاثة أخوة من الزوجين "توبيا" لكنه الوحيد الناجي بعد الحرب.

أخيراً، آخر علبةٍ كرتونية تضم آخر رسالة بعنوان "البندقية" عثرت عليها صدفةً وكانت تضم العشرات من الأوراق الصغيرة:

بعض الملاحظات عن والدي ألبيرت توبيا.

ولد "ألبيرتو بياسي" في قرية قرب البندقية عام ١٨٧٣.

كل ما أعرف عنه، لا أعرف شيئاً سوى القليل مما رواه لي قبل وفاته.

بحّار، غرق في المحيط الهادئ. حوالي عشرين ناجٍ استقبلهم المبشّرون وأبحروا على متن القوارب القادمة (بعد انتظارٍ دام ستة أشهر مع فتيات الجزيرة) ترى هل لدي أخت أو أخ هناك؟ ولكن على أي جزيرة؟

Twitter: @ketab_n

رسا صدفة في بورغ تاباج، وجد عملاً، قرر البقاء.

سمّى نفسه ألبيرتو دياز أرجنتيني (لكنه لا يتحدث الإسبانية!) ثم ألبيرتو بياس.

بعد عدة أشهر غيّر الكنية: ألبيرتو بياسي ثم أصبح ألبير توبيا (وأنا، روبرت توبيا أنا أيضاً روبيرتو بياسي).

بسيط هذا كل شيء، شكراً يا والدي.

لا أعرف شيئاً عنه.

زواجٌ رائع من رايموند دوران ايسموند.

بنى فيلا رايموند عام ١٩٢٥، لست فيها سوى الحارس.

والدي لديه أبٌ.

المعرفة.

هل كتب لمحافظي المدن المحيطة بمدينة البندقية؟ لابد أنه حصل منهم على الكثير!!

شرطة موسوليني، محافظون من شيون.

؟؟؟

كُتبت الورقة التالية بوقتٍ لاحق وبحبرٍ مختلف.

قام بالتحقيق، نعم.

تحدث مع النائب الرسولي.

لأتأكد مما فهمت اتصلت مع الكسندر شانر. لم نشر إلى العشاء الذي تناولناه معاً ولم يشكرني، تلاشت أمسية الأسبوع الماضي باتفاقٍ مشترك.

سألته بدايةً عن "النادي المدني".

- مؤسسةٌ! يحظى العسكريون بناديهم الخاص بالضباط فأنشأت طبقة التجار البرجوازية النادي المدني عام ١٨٩٩ وهو عبارة عن نادي يتناولون فيه العشاء ويلعبون بالورق ويقومون بسرية ببعض الأعمال في

Twitter: @ketab_n

الحانة وفي ملعب التنس ويلتقون بشابات من العائلات الراقية. قُبل الدخول بكفالة كما أن المطعم كان ممتازاً بإطلالة على الشاطئ. ظلّ هذا النادي يضيء ليالي بورغ تاباج ، استمر بعد بناء فندق باريس ولعشرين عاماً تقريباً حتى وصول التلفاز الذي صرعه بسرعةٍ هائلة.

- ألف شكر، وماذا عن النائب الرسولي؟

- يمثل النائب الرسولي البابا حيث لا تبرر أهمية التجمع الكاثوليكي إقامة أسقفيةٍ بصلاحياتٍ كاملة. كان لبورغ تاباج نائبٌ رسولي حتى عام ١٩٧٣ تاريخ تسمية أول أسقف.

عبّرت له باختصارٍ عن امتناني وإعجابي بثقافته الواسعة وتابعت:

- ماذا لو سألتك عن بوق جيريشو Jéricho، هل تفكّر بشيء خاص يتعلق ببورغ تاباج؟

- آه! هنا، كلا. لا أذكر شيئاً! آسف.

شكرته وعدت للغوص في ذاكرة روبرت توبيا :

استقبلني النائب الرسولي وأصغى إليَّ وقام بتحرّياته.

بالنهاية، قال لي إنه سوف... لا أعرف بما أفكّر.

سنرى.

كلّفني ذلك درساً بالأخلاق.

ثمناً بخساً.

أما الورقة الثالثة فكانت أطول وكمثيلاتها لا تاريخ لها.

سأسجل بدءاً من هذا المساء ما زوّدني به النائب الرسولي الطيب.

استدعاني إلى مكتبه وأخبرني أنه تلقّى رداً على رسالته التي أرسلها إلى الكاردينال الأسقفي في مدينة البندقية، أوحى إليَّ أنه تكفلني أمام أمير الكنيسة هو النائب الرسولي في جزيرة منسيةٍ على بعض الخرائط.

سبل الرَّب والتعاليم الكنسيّة عصيةٌ على الفهم.

Twitter: @ketab_n

لا يمكن تسليمي الرسالة المرسلة من مدينة البندقية (بعد عام تقريباً).

أفهم.

لم تجرِ العادة.

أوافق.

ليس البريد الفاتيكاني بمصلحة الاستعلامات.

أقبل بذلك.

لكنه يحبني جداً.

ابتهج لذلك. نحن جديرون...

بعد بعض المقدمات، شرح لي أنه يسمح لي بقراءة. علي أن أتعهد له أمام الله وما بين الناس (ماذا ترغب أن تقول سيدي؟) ألا تكشف السر أمام كائنٍ من كان.

وعدت.

مد لي الرسالة.

قرأتها عشر مرات.

وعدت ألا أكشف النقاب عنها لا ألا أحفظها عن ظهر قلب.

البطريرك الأسقفي في البندقية.

البطريرك، النائب الرسولي العام.

إلى النائب الرسولي في بورغ تاباج.

البندقية ١ شباط ١٩٣٩

Twitter: @ketab_n

أخي العزيز بالمسيحية:

طلبت مني إن كان ممكناً تقديم معلومات عن شخصٍ يدعى ألبيرتو بياسي الذي لا تعرف عنه سوى أنه ولد حوالي العام ١٨٧٣ في قريةٍ تابعة لأسقفية البندقية. حقاً إن خطوتك هذه غير معتادة ولكن لم تكن لتقدم عليها لو لم تكن أسبابك قوية والصعوبة التي تواجهها بمهمتك البعيدة جداً كمبشر.

كيف لي ألا أجيبك وألا أحمل لك بكل تواضع عوني الأخوي؟

يوجد اسم عائلة بياسي شرق البندقية. تعد قرية "فيلانوفا سول مار" مهد هذه العائلة كبيرة العدد. لا تنضم للأسقفية براعية البطرك وإنما في "إيستري". كتبت إلى أسقف "بارينزو" الذي رغب بمد يد العون لك في بحثك.

حسب تعليماته، عثر كاهن الكنيسة الخورنية في سجلاته على وثيقة التعميد التي تخص ألبيرتو بياسي مؤرخة في الخامس من آذار ١٨٧٣، أكد لي أن الأم والأشبينة وهي خالة الصبي قد وقعتا برسم صليب.

اختفى هذا البائس في البحر عام ١٨٩٥ وهو أعزب.

انطوانيت أخته الكبرى وهي راهبةٌ تؤمن بصعود العذراء، في دير في فلورانس. أخوه الأصغر "جيوفاني" ورث مزرعة العائلة ومازال يعيش فيها، لديه ولدين "فرانسيسكو وأنطونيو بياسي" يعملان معه مع أطفالهما الخمسة.

إنه فلاحٌ طيبٌ وشريف، يتناول القربان في الكنيسة المقدس حسب قول الكاهن.

هذا كل ما يمكنني أن أعهد به إليك.

طلب مني البطريرك الأسقفي أن أحمل لك مباركته وصلواته.

التوقيع: غير مقروء.

Twitter: @ketab_n

كل هذا الاستشهاد بالذاكرة، لم يمت ألبيرتو بياسي في البحر، سيدي... وإلا لما كنت أنا هنا!

إذاً لدي عمّة قديسة وعم فلاح وابني عم جرمانيين في إيطاليا. لو توفيت أنا وأخي جيلبرت دون ورثة ستكون فيلا رايموند من نصيبهما أو نصيب أطفالهما الخمسة مع كل ما بقي من الإرث!.

هذه هدية قيمة لموسوليني؟

قلبت صفحات الأطلس، لم أجد قرية فيلا نوفاسول مار.

فاشتريت خريطة أكثر دقة لإيطاليا.

ثم عثرت على ورقةٍ منتزعة من مفكّرة، مكتوبةٌ بشكل كامل وتم شطبها سطراً سطراً بعنايةٍ فائقة بشكلٍ يعجز علينا قراءة النص المفقود.

بقيت الجملة الأخيرة فقط:

جعلتني وفاة والدي رجلاً وحيداً على حافة الهاوية.

(دوَّت هذه الجملة فيَّ طويلاً كنداءٍ بل كتحذير. أدركت اليوم أن أخي ميشيل حماني من هذه الهاوية التي أرعبت روبرت توبيا، تلك الهاوية التي رآها تفغر فاها في أحد أيام الأحد من حزيران.

تغير ميشيل بعد وفاة والدنا، أضفى عليه ألم الحداد شعوراً مجحفاً بالوحدة وقسوةً مباغتةً ابتلعت ألعابنا وتواطؤنا معاً. عنَّفني طوعاً ليحجب عن ناظري الهوَّة التي انبثقت على حين غرّة. لم يكن بوسعه أن يفعل شيئاً آخر وهو بالثامنة عشر من العمر).

صفحةٌ أخرى أيضاً، كُتب على نصفها الداخلي بالخط المائل:

أعدت قراءة تلك الملاحظات.

ناسياً تحديد أن في الوقت الذي غادر فيه والدي فيلا نوفاسول مار ليمخر عباب البحر كانت" إيستري Istrie" في كنف "النمسا - الهنغارية". هرب من طغيان "هابسبورغ" كما قال لي لاحقاً، كم فقدت

Twitter: @ketab_n

هذه الكلمات تحت ظل "الصليب في الجنوب" معناها! ترى هل مازال معتقداً بها؟

لم يبقَ أمامه سوى زراعة الذرة!

ولد والدي جنوب هنغاريا، زعم أنه أرجنتيني ليصبح فرنسياً.

عمي وأبناء عمي إيطاليون.

حصلت على خارطة طرقية حديثة لإيطاليا، عثرت على فيلا نوفاسول مار جنوب تريست وفيوم.

قيل إن الحرب وشيكة.

ما معنى كل ذلك؟

غداً؟

عثرت في تلك العلبة على قائمة مأكولات غنيةً جداً لحفل رأس السنة عام ١٩٤٠ في النادي المدني، كُتب على الوجه الآخر، حمامٌ برّي ومحارٌ من "جون بودان" ثم عدّة أسطرٍ غير مقروءة لاشك أنها كتبت بسرعة في خضم الحديث على أول ورقة عثروا عليها.

اشترى والدي أول لوحة بسبب الرِّق.

تشابهٌ مع؟

والدتي لا تعرف.

أخ أو أخت في الجزر؟

أي جزيرة؟

ترى بأي عمل فني افتتح البيرت توبيا مجموعة الفن الشرقي الخاصة به؟ نزلت إلى القاعة التركية لألقي نظرة مجدداً على لوحة "البدوية والبئر في جيريكولت". حتى ولو أن المرأة التي تحمل الجرّة تبدو شرقيةً بامتياز إلا أن العبد الذي خلفها ببشرته الغامقة الباهتة وشعره الأسود الطويل وعضلاته المفتولة ونهديه المكوّرين يوحي بمنطقة "غوغان" و"المحيط الهادئ" حيث دارت رحى أقدار ألبيرتو بياسي، منذ

Twitter: @ketab_n

ذلك الحين، يُقدم ذاك الاعتراف لروبرت - ولي أيضاً بما أنني أتقفى أثره - أثراً جديداً برز أمامه بعد وفاة والده. ألقى الغرق بألبيرتو في أحضان جزيرةٍ بقيت طي المجهول وأمضى فيها ستة أشهر وهو بعمر الرابعة والعشرين وعاشر هناك إحدى فتيات المنطقة، بعد زمن طويل حين طرحت أمامه الصدفة لوحةً تصوّر فتاة تشابهها إلى حد ما، اشتراها فوراً وجعلها نواة غرفةٍ فرشها وزخرفها بما يتناغم مع هذه اللوحة. لوحة رايموند في الطابق العلوي ولوحة العشيقة التاهيتية في الطابق الأرضي زد عليها المجموعة الشرقية، أثر خاطئ يخفي وراءه حديقةً سرية... إن التفاصيل سيكون لها عميق الأثر إن لم تحرّض بوجه روبرت توبيا إزعاجاً جديداً في مواجهة صون بقاء العائلة. لم يكن قد رُزق بطفل ولا أخيه أيضاً ولكن ربما مازال أبناء عمومتهما الألمان على قيد الحياة يعيشون عراةً، يصطادون عند ضفاف بحيرة شاطئية، أبناء عم لن يعثر عليهم أبداً لأن والده لم يترك أي تفصيل حول الجزيرة التي رماه البحر في ربوعها.

أما الورقة التالية، فكانت مكتوبةً دون شك بعد الحرب:

رسم الحدود.

استعاد تيتو ايستري وطالب تريست.

ماذا حلّ بأبناء عمومتي؟

آخر مخطوط:

يريد تيتو[1] والشيوعيون تدنيس كل إيستري المحتلة. طُرد الإيطاليون من المدن والقرى، تم تغيير أسماء الأماكن والسكان قسراً.

لم نعد نقول "فيومّ" ولكن ريجيكا. وفيلا نوفاسول مار أصبحت نوفيفارد ناموروـ. حتى أسماء العائلات تبدلت، لو نقلتُ بعض الأمثلة

---

1 - تيتو: هو جوزيف بروز تيتو ولد ٧ أيار ١٨٩٢ في كرواتيا وتوفي في ٤ أيار عام ١٩٨٠. قائد الحرب اليوغسلافية ضد النازية.

Twitter: @ketab_n

من الصحف مثل جيوفاني وفرانسيسكو وانطونيو بياسي - إن ما زالوا على قيد الحياة - لكانت أسماؤهم اليوم إيفان وفرانجو وأنطون بياسي.

أبناء عمي يوغسلافيون.

مرّ وقت طويل وما تلقيت أي خبر من جيلبرت. لقد اختفى، يا لجيلبرت المسكين غادر مأسوراً بفكرته وظلّت حتى النهاية ساحرةً ومتقلبةً وفوريةً وغير منطقية.

اشتاق للصغيرة سيمون كذاك اليوم المريع الذي انتشلها فيه المرض. اختي الغالية الصغيرة، ها قد مرّ ثلاثون عاماً على وفاة صغيرتي سيمون لكن ذكراها ما انفكّت تثير شجوني ولا يمضي أسبوعٌ دون أن أستحضرها أمامي. لو رزقتُ بفتاة لأسميتها سيمون، إلا أنني ما زلت دون أطفال. ارنيستين ترفض الحديث عن فكرة التبنّي كما أنني لم أتوصّل للقناعة بهذا التنازل: القبول أمام القاضي بتبنّي ابن زوجين آخرين. هذا لن يحصل.

يداعب ليون سيرون بصيص أملٍ أن نرى طبيباً آخر؟ ولكن من هو؟ ومن أجل ماذا؟

إن توفيت هكذا دون نسل لحاز الشيوعيون على فيلا رايموند!

هرب والدي من النمسا الهنغارية ولاحقنا طاغوت آخر.

ماذا كان ليفعل؟

ليس لنا عائلةٌ في بيكاردي من طرف والدتي. أقرب من أعرف هم أبناء عمومتي أولئك اليوغسلافيون، إلا إذا في منطقة الاستواء...

هل أوصي بالفيلا والأعمال وألقي عن كاهلي عبء المسؤوليات والتراث الوطني.

هل أوصي بكل ما كوَّن عائلة: الذكريات والأسرار والضحكات المجنونة الهاربة والصور والمشاعر.

هل أوصي بكل ما كوَّن عائلة: الاسم، ذاك الاسم الذي صنعه والدي.

Twitter: @ketab_n

خرجت من مكان الأرشيف وتجوّلت في ممرات الفيلا، أتلذذ بأريج ياسمين الليل يعبق في الجو. لم أفهم الكثير مما قرأت إلا إذا كان نسب هذه العائلة أكثر تعقيداً مما هو متوقع. هكذا كان يمكن لبنجامان توبيا أن يدعى بنجامان بياسي. بعدها كان روبرت وجيلبرت - بقي أن يختاروا نوربرت وشيلدبرت وغادلبرت - الاسم الذي اختاره الجيل الثالث، بعد الحرب ليشكل قطيعةً قطعية مع ذاك الماضي ولعبة الكنيات تلك - وكأنهما قطعا رابط الدم. على كل حال دوّن روبرت هذه الذكريات فما ترك الذاكرة التي اؤتمن عليها وحده تضيع هباءً.

ترى هل روى كل هذا لبنجامان الذي لم يتجاوز العاشرة من عمره لدى وفاته؟ أم أن إعلان ولادة ابنه كان آخر ورقة أودعها في هذا الملف لتكون الوثيقة الأخيرة كمؤلف مذكرات؟

دعاني فريدريك لشرب البيرة بعد أن تصبب عرقاً وهو يجزّ المرج. احتسيت البيرة سعيداً برفقته.

- حقاً، كيف وصلت إلى هذا العمل في فيلا رايموند؟

- عبر التنس.

- ؟...

- إنها قصةٌ طويلة.

- لدي كل الوقت.

لم يكن أحدٌ ينتظرني في الفندق أو في أي مكانٍ آخر، والحقيقة أن هذا الشاب الوحيد قد نال إعجابي.

- رغبت المديرة في بدء الاضطرابات بحماية "المجموعات الفنية"، بالطبع لم يستجب أحد في الوزارات لنداء الاستغاثة الذي أطلقته. فاتجهت إلى التنس للبحث عن الأيادي التي تنقصها.

- ولماذا التنس؟

Twitter: @ketab_n

- لأن نوادي كرة القدم والرُكبي مثل بناء الإطفاء، أصبحت جميعها مراكزاً لتجنيد وتدريب شبه العساكر حسب نصيبهم من العمل. أما لاعبو التنس فكانوا أكثر استقلالية ولم يعرفوا هذا التغيير. أغلقت ثانوية "بودان" أبوابها قبل شهرٍ من العطلة، واستمر إغلاقها ثلاث سنوات لكننا لم نكن نعرف ذلك بعد، كنت أمضي أغلب وقتي في ملعب كرة التنس، في يومٍ من الأيام رأينا هذه السيدة مقبلةً إلينا وهي تطلب العون. هبَّ حوالي عشرة شباب لعونها. خلال أسبوعٍ، وضعنا اللوحات في صناديق كتيمة صنعت لأيام الزوابع وبقيت المجموعات في حقائب وصناديق، أنزلنا إلى القبو الأثاث وخشبيات القاعة التركية والستائر والنوافذ وكذلك الأرشيف الذي تمّ تنظيمه بإيجاز. عندما رأت أمهات الحي، كل أولئك الشبّان يكدون بالعمل أتين عفوياً إلى هذه الفيلا التي ما وطأنها قطّ ليقدّمن لنا القهوة والشاي والكاتو مع ثمار البابايا والبرتقال من الحديقة، ثم جهّزن وجبة غداء دونما استعداد بالموز والسمكة التي أحضرها أحد الصيادون، ظهر كيسٌ من الأرز، لا أحد يعرف كيف. لم يتخيل أحدٌ النقص الذي حصل بعد ستة أشهر...

غصَّت غرف القبو في اليوم الأخير. علَّقنا ألواحاً خشبية على الدرج. لم يبقَ سوى الجدران ومصراعي النوافذ الداخلية والخارجية وتمت مترستها بشدّة.

- هل شهدت الفيلا معاركاً؟

- ليس بشكل مباشر. يطلّ طرف الحديقة على الكاتدرائية والساحة الكبيرة أعلى خليج "ماران Marins" أي موقعاً استراتيجياً، حتى أنه استخدم للرصد ولتبادل بعض الرشقات. أما الطرف الآخر فقد كان بعيداً. تلقى بستان الحمضيات صاروخاً، إن هذا القصر الذي طال هجرانه، لم يكن لحسن الحظ هدفاً عسكرياً.

- وعندما انتهت الاضطرابات؟

Twitter: @ketab_n

- كان هناك جوقةٌ كبيرةٌ في الكتدرائية. قررت بعدها المديرة إعادة افتتاح الفيلا وحصلت من الحكومة على نقل عاملين مفترضين، يفضل أن يدججا بالسلاح لا بالمِحفر ولكن لم يتغير الوضع. اتجهت إلى نادي التنس لتبحث عمن يعينها بتوجيه العاملين، كان يجب أن نتذكر بالضبط أماكن الأشياء وموقع القطع حتى تعيد الديكور كسابق عهده. لم يكن هناك غيري من كل مجموعة المراهقين الذين ساعدوها يوماً، كنت أسكن على مقربة. طلبت مني الحضور وقدّمت لها العون بكل ما بوسعي وأخذت دور المشرف على الفريق المكوّن من هذين العاملين. تمكنّا من إعادة كل شيء كسابق عهده، يمكنك أن تتحقق بالصور. حضر معاون الملك مراسم الافتتاح فنجحت المديرة بالحصول على عمل له ميزانية وأخبرتني أن بوسعي الشروع بالعمل بدءاً من اليوم التالي.

التقيت مجدداً بفرنسية جميلة، كنت قد التقيتها منذ خمسة أيام ، تبادلت معها بضع كلمات في الصباح في حوض السباحة وعلى مائدة الإفطار. زعمت أنني مهندس في شركة مياه وقالت لي إنها مكلفة بالاستماع في شركة تأمين. ربما كان صحيحاً، من كل أولئك الغريبين القادمين بمهمة إلى بورغ تاباج التي مثلت للشفاء حديثاً، كان الوحيدون الذين يلعبون بوضوح هم أولئك الذين يعتمرون قبعات زرقاء.

كان لنا في العشاء فرصةٌ لتعارفٍ أفضل. غرفتي أكبر من غرفتها تطلّ الشرفة على الخليج فنال إعجابها هذا المنظر، أمضت الليل معي بين حبٍّ وغفوة، ألقيت أبيات شعر الكسندر شانر:

همهمةٌ كسلٌ، كلابٌ شاردة، فجرٌ رمادي...

نثرت نسمةٌ عذبةٌ عبقاً حلواً في الغرفة فداعب جسدها والأغطية المبعثرة. ابتسمتْ وأنا أهمهم بكلمات غيري. استسلمت للنوم قبل أن أُنهي..

Twitter: @ketab_n

صه! تدثر بشمس كانون الأول المطلقة

لا تسخر من بلد الآفاق التركوازية

رأيتها تستسلم للنوم أخيراً وللسكينة.

في الصباح الباكر جداً، أخبرتني أن طائرتها ستقلع إلى باريس بعد ثلاث ساعات، إلى اللقاء وشكراً. بالكاد تجاوزت قصتنا بوقتها قصة توماس كولبيرت وإرنست جوليت، لم تخلص لأي نتيجة. إلا أنني لمست بأنانيتي بعض الغم. أدركت أنني مثل توماس كولبيرت استُخدمت لعمل سريع وغير صادق، قبلت دعوتي على العشاء، كالاتفاق الحاصل في حانةٍ منذ عشرات سنين خلت. احذر من العقود المبرمة في بورغ تاباج.

Twitter: @ketab_n

- ١١ -

كنت في البنك الوطني للتطوّر لدى افتتاحه صباحاً. أخبرني شانر أن عُهد بأرشيف البنك الاستعماري وكذلك البنك الهندي الصيني إلى هذا البنك شبه الشعبي. أملت أن أعثر فيه على معلومات عن قضايا توبيا الأب والابن والتي لم تذكرها أوراق فيلا رايموند ولو بكلمة لأتفحص العملات في مجموعتهما.

تحرَّت المضيفة عن موضوع بحثي ثم بعد أن تأكدت عبر اتصالٍ هاتفي شرحت لي أن لا يمكنني الوصول لا للأرشيف ولا للعملات. امتعضت من البنوك، خرجت والغيظ ينفث نيرانه في صدري.

أخذت طريق المكتبة البلدية فيما تبقى لي من النهار لأتصفح الأعداد القديمة من صحيفة "ماتان أوسترال أي الصبح الجنوبي" الصادرة في منتصف كانون الثاني من العام ١٩٤٩، لم أعثر على أي إيماءة حول سطوٍ تعرضت له فيلا رايموند. تم سرد السرقات النادرة والمهاجمات حسب الأصول مثل محاولة كسر مستودع بقالية أو الاختفاء المبهم لبعض البط التي يربيها أحد المتقاعدين. لم يخبر روبرت توبيا الشرطة، نجح كولبيرت وتمت السرقة.

لم أوضح بعد الإيحاء المبهم لجريشو Jéricho. بحثت في كتب تاريخية لأتحقق ما المعنى الذي حمله هذا الاسم في حزيران ١٩٤٨: إقامة دولة إسرائيل، أول حرب إسرائيلية عربية، المعارك؟.. لم أجد ما يقنعني. لكن من جهة أخرى ذكر السائح العابر أبواب جيريشو على سبيل النكتة. ترى هل يرسب ملح هذه الملاحظة في فكرة اليسوع والعهد العتيق؟ أمضيت ساعات أتثاءب وأنا أتصفح تفسير الإنجيل ثم هجرت هذا البحث المضجر وطلبت دون تبصّر موعداً مع الأُسقفية.

Twitter: @ketab_n

مازلت أتعقّب أثر روبرت توبيا والطبيب الذي رافقه. بحثت في الدليل عن اسم سيرول فوجدت جاكلين سيرول وهي تسكن شارع جاي دانزيس، اتصلت صدفةً فردّ صوتٌ خشنٌ:

- آسف على الإزعاج، أود البحث عن عائلة الدكتور سيرول. لعلك إحدى أقاربه؟

- بالواقع يا سيدي، أنا ابنته. ماذا تريد منه بالضبط؟

- وددتُ لقاءك للحديث عن الدكتور "ليون سيرول".

- تودُ أن تحدثني عن والدي؟ لقد توفي منذ .. منذ نصف قرن..

- أودُ التحدث عن أواخر الأربعينيات.

- إنك تشوّشني، ما سرّ هذا الفضول؟

آه يا إلهي ماذا عساي أجيب على هذا السؤال...

- أظنّ أن والدك كان أحد أصدقاء روبرت توبيا، وأنا أقوم بأبحاث عن عائلة توبيا.

- هاك الغموض بعينه. مرّ للقائي الثلاثاء القادم حوالي الساعة العاشرة.

مساءً في المطعم، شرعت أقلّب بلا مبالاة الكتيب الخاص بالبنك الوطني للتطوير والذي أخذته لأشدّ أزري بعد الرفض الجارح. لم أجد فيه ما يثير الاهتمام سوى ما كُتب في الصفحة الأخيرة أن مجموعة S.T.C تساهم بأربعة بالمئة. وازنت ما بين الدليل وعكسه حتى قررت أن أرسل برسالةٍ إلى "توكر" وأطلب منه أن يفتح لي الأبواب الموصدة.

أجابني بأقل من ساعة - ألا يخلد للنوم أبداً؟ - إنه فعل ما هو ضروري لليوم التالي.

في الصباح الباكر من يوم الخميس، التقيت بأبٍ بدينٍ وحسير البصر من الرعية المريمية في مكتبٍ يطلُ على حديقة الكتدرائية وزوّدني بآلاف

Twitter: @ketab_n

الأشياء عن رمزية جيريشو المحظورة وعن موعظة أوريجين[1] Origène ودعوة الملاك السابع في الأبوكاليبس[2] Apocalypse والتفسيرات المسيحية... لكنه لم يقل لي ما يساعدني على فهم السبب الذي أضحك المدعوين ثم أغاظ روبرت توبيا حين أومئ لجيريشو في عشاءٍ عصري منذ أكثر من نصف قرن.

استقبلني المدير العام للبنك لاحقاً بفضل وساطة توكر في مكتبه الذي يشغل الطابق الأخير من البرج الزجاجي الأسود الذي يتوسط المدينة. تطلُ النوافذ على الميناء وبتصويرٍ تصاعدي على خليجي شالوب وماران. تلوح الجزر الصغيرة من بعيد يعلوها مبنى البلدية، بوت روج وإلى اليمين المدينة العالية مرصعةٌ بالأشجار ثم تصافح الجبالُ بقلنسوةٍ من غيوم الأفق. طلب إليَّ الجلوس وقدّم لي القهوة وأصغى إليَّ. استهليت حديثي بهمٍ بدا لي الأكثر سذاجةً من بين تلة مشاغلي.

- سيدي المدير، وددتُ في البدء أن أعرف إن كانت مجموعة S.T.C ماثلةً بقوة في الاقتصاد الحالي.

جحظت عيناه وتنحنح ثم أجاب وهو ينتقي مفرداته:

- لكن.. أليست مجموعة S.T.C هي من أرسلتك؟

ابتسمت ابتسامةً ذات إيحاء لتبقي على السؤال، كم كان ممتعاً الإيقاع بصاحب البنك هذا وبهذا الوضوح. تابع:

- كما تشاء، إن مجموعة S.T.C حاضرةٌ في بورغ تاباج منذ حوالي ثلاثين عاماً وخاصة في تجارة الأخشاب. نوّع نشاطاته بسرعة، طبعاً أنت تعرف أنهم مساهمون في البنك بنسبة أربعة بالمئة ما ندعوه "بطاقة

---

1 - هو من علماء اللاهوت في الكنيسة ولد في الإسكندرية عام ١٨٥ ويلقب ادامانتوس.

2 - يسمى أيضاً ديانة يسوع المسيح وهو آخر كتاب عن العهد الجديد.

Twitter: @ketab_n

زيارة"، إلا أن وجود مدير عام S.T.C في مجلسنا الإداري يعتبر مربحاً ونصائحه التي يسديها قيِّمةٌ جداً. أرجو أن توصل له تحياتي.

- لن أنسى ذلك.

كنت أضمر أن أذكر له صديقاً قديماً كنت أتزلج معه أو أقوم بنزهاتٍ بالقارب الشراعي. ترى ماذا قال له توكر اللعين؟

- بعيداً عن البنك؟

- كانت مجموعة S.T.C حاضرةً في الخدمات المرفئية والعقارات والأخشاب وشيئاً ما في السياحة. قاموا بشراء بعض الشركات خلال الاضطرابات. لم يكن أحد يستثمر حينها، كل الناس كانت ترغب بالبيع، ماذا أقول، أقصد أنهم باعوا بثمنٍ بخسٍ ورحلوا. يقوم الرهان على أن الاضطرابات ستنتهي يوماً ما. وجاء ذلك اليوم.

منذ دخول القبعات الزرقاء إلى هنا، أخذت الخيارات الاستراتيجية لمجموعة S.T.C منحى الربح لا النقص.

راوده شعورٌ أنه يخضع لامتحانٍ إذ ظن انني بمهمة مراقبة. حاولتُ أن أظهر بمظهر الباحث فأخرجت مفكرةً وخربشت ملاحظاتٍ خيالية.

- هل ترغب بمزيدٍ من القهوة؟

- بكل سرور.

يا له من موقفٍ ضعيف، حشر صاحب بنك متأهب للدفاع في الزاوية، إنه لموقفٌ مثير للشفقة.

- الضربة الأكثر مهارة كانت الصيد.

- الصيد؟

- لطالما حافظت بورغ تاباج على صيد الحيتان، لكن للأسف توقفت في الفترة ما بين الحربين. تم إحياء الصيد الشاطئي، قدمت مجموعة S.T.C مقترحاً مبتكراً لسواعد النقابة الهامة وهو إيجاد صيادين مسؤولين. اشترت المجموعة قوارب من تايوان وأجّرتها لأولئك

Twitter: @ketab_n

الصيادين، وكانت هي المسؤولة عن التموين والتجارة والتأمين. في الجنوب حيث يتجه صيَّادو الحيتان هناك سمك الطون. قبلوا الصفقة بناءً على فكرةٍ بسيطةٍ تقوم على أنه مهما كان مستقبل بورغ تاباج سيبقى الصيد ورقةً رابحة. تعلموا شؤون الصيد بسرعة، تمكن جميعهم خلال الاضطرابات من الصيد والعمل. عندما تم إغلاق المرفأ، نظمت نقابة سفن الطون المجمد بالتعاون مع المجموعة أعمال المسافنة في مرفأ، في خليج "ماران أي البحارة"، فما توقفوا أبداً عن العمل. انطلقوا بثمانية سفن طون ووصلوا حتى حوالي ثلاثين سفينة متماثلة. تأمل وضع شخص شديد مثل "هنري فيرونيك"..

- هل هو من سكان الجزيرة؟

- نعم. لديه قاربه الخاص، استمتع بمهنة الصياد المسؤول وبالمردود المنطقي. عرف كيف يطوِّر عمله.

تنهَّد المدير.

- لدي سؤالٌ آخر، قمتُ بزيارة فيلا رايموند وطلبت رؤية مجموعة العملات القديمة التي جمعها روبرت توبيا. قيل لي أن هذا الكنز محفوظٌ في صناديق البنك.

- أخبرتني بذلك. سأطرح السؤال على مدير قسم الثروات، ستتمكن من تفحصها بالطبع.

- كما أود القيام ببعض الأبحاث في الأرشيف إما الأرشيف الخاص بالبنك الاستعماري أو بنك الهند الصينية، لأجد الحساب الخاص بروبرت توبيا وإن كان ممكناً حساب والده ألبيرت الذي أتى إلى هنا في عَطفة القرن.

- لابد أن هذه الأوراق محفوظةٌ لدينا وهي تحت تصرفك.

- هل يمكن لأحد أعوانك أن يمدّ لي العون؟ سيكون العمل أكثر سرعة بوجود اثنين.

Twitter: @ketab_n

- بكل تأكيد، سأطلب من "لويس الكسندرين" أن يرافقك، إنه أحد المحللين المرموقين في البنك، وهو أول سكان الجزيرة الذي حاز على هذا المستوى من المسؤولية لدينا.

- بالطبع. ترى هل يمكنني أن أثق به في الحفاظ على سرية عملنا؟

- طبعاً.

- حتى سراً من ناحيتك أنت؟

- إن كانت هذه مشيئتك...

استدعى المدير شاباً طويل القامة اصطحبني إلى القبو. يشغل أرشيف البنكين عدّة غرف تملأ جدرانها الرفوف. أخبرته عن مهمته:

- أريد أن تكوّن فكرةً حول وضع روبرت توبيا حوالي عام ١٩٤٩، لنقل، فلنتوسع من عام ١٩٣٨ العام الذي توفي فيه والده إلى عام ١٩٥٩ عام وفاته. لكن أكثر ما يهمني هو العام ١٩٤٩. عليَّ أن أعرف إن كانت أعماله تسير على ما يرام، وإن كان أصحاب بنوكه يتبعون إرشاداته. تقريراً مكتوباً سيجدي نفعاً ولكن يمكنك أن تعطيني انطباعاتك الأولى كلما تسنّى لك. سأقوم أنا بأبحاث عن الأب ألبير توبيا في هذه الأثناء.

تغفو السنوات الأكثر قدماً في غرفة أخرى، تركنا الباب مفتوحاً بيننا. انكبَّ لويس الكسندرين على العمل حالاً، كلمني مرةً واحدةً بعد ساعتين:

- يعود "فندق باريس" لروبرت توبيا؟

- أظن أنه يعود لوالدته "رايموند دوران إيسموند"، لكنه كان مسؤولاً عنه. ربما كان لوالده حصةً فيه فورثها عنه.

- هذا أفضل، فهمت. سأحضر لك قبل حلول المساء جدولاً عن نشاطاته وأعماله السيئة.

- سيئة إلى هذا الحد؟

- ام.. نعم.. سترى بأم عينك.

Twitter: @ketab_n

غرقت في الصناديق العائدة للعام ١٩٠٠ لأتحرر من أعمال المحاسبة الرجعية المضجرة.

الأضابير الخاصة بشركات ألبيرت توبيا كانت مصنفةً على أتم وجه في أرشيف البنك الاستعماري. من أين أبدأ؟ حسابات وملاحظات وميزانيات وبرقيات وجداول أرقام ولكن كان يلزم أن أكون محاسباً لأعرف مكاني بين هذه الأوراق. أخذت مراجعة قروض وكفالات ورهانات حيازة وحسابات فوائد الكثير من وقتي. لم أشاء إزعاج لويس الكسندرين الذي يعمل بأوراق الابن. لا شيء يقف في وجه قيّم على الوثائق الخاصة. تنهدت وشرعت بقراءة رسائل العمل هذه التي تتشابه جميعها بالنسبة لي. تتراكم المصاعب في النهاية، يمكن لعينٍ عديمة الخبرة مثل عيني أن تدرك بأن هذا التأخير المتكرر وهذه الأعذار غير النافعة وهذه الوعود المحنث بها تشير لزوال ميراث. لم يعد ألبيرت توبيا لدى اختفائه الرجل ذو الحظ السعيد كما كان في بداية القرن. توضح دون شك أزمة عام ١٩٢٩ هذا التدهور البطيء. لكن لابد الانطلاق من البداية. بدأ ألبيرت توبيا بعمله الأول منذ عام ١٨٩٧ أي بعد عامٍ من وصوله بورغ تاباج. لاقى النجاح وقتئذٍ في ذاك المتجر الصغير الذي يبيع كل شيء. تمكن بعد عامين من شراء منزل في المدينة المنخفضة في حي حديث البناء، كبّره ليجعل منه متجراً "للمقالات القادمة من باريس" مع منزلين للإيجار في الطابق العلوي، أنشأ في العام التالي "المكتبة الأولى" في بورغ تاباج. لاحقاً أفلست إحدى الشركات التجارية فاشتراها.

تقدم رسالةٌ من مدير البنك في كانون الأول عام ١٩٠٢ إضاءة حول تلك السنوات الأولى. كان يجيب فيها على "جول دوران إيسموند":

صديقي العزيز:

اعذرني على جوابي المتأخر والمكتوب كتابةً، إلا أنني لا زمت الفراش مجدداً إثر ألم بالمفاصل. كما قلت لنفسي أن أكتب لك ما أفكّر بألبيرت

Twitter: @ketab_n

توبيا سيكون أكثر وضوحاً من حوار حيث ستتمكن من إعادة قراءة الرسالة على رسلك لو شئت.

لن أتحدث عن الغزل الذي يكنّه للآنسة ابنتك، فأنت تخاطبني كمدير بنك لا كصديق وأنا سأجيب على أنني مدير بنك فقط لا غير. رغم أنني أعرف كم أنت قريب من ابنتك الوحيدة منذ وفاة زوجتك وكم سيعنيك ذاك الأمر. لن أقيم وزناً أكبر لبعض السلوكيات الغريبة، أفكر بالأغنيات التي يصدح بها تحت نوافذ منزلكم! ولكن ماذا بعد؟ إن لم نكن غريبي الأطوار في عمر السابعة والعشرين فلن نكون هكذا أبداً.

على كل حال، لا غرابة في أعماله.

وصل ألبيرت توبيا إلى بورغ تاباج عام ١٨٩٦، عمل في البدء كموظف عند " الأخوة لورموند" حيث أبدى رضىً تاماً عن جديته بالعمل. منحه الأب لورموند مرتبة الموظف الأول لكنها لم تكن تداعب طموحه. أراد بسرعة أن يصبح سيد أعماله، قابلني واقترح عليّ مشروعه التجاري المدروس بذكاء. إنه شابٌ وديعٌ إلا أنني خلته مدقعٌ بالفقر فأجبته بما يثني عزيمته، فقال لي أن بوسعه أن يضيف لرأسمال هذا المشروع الإدخار المتواضع الذي جناه من عمله لدى "لورموند" وكذلك ما هو أكثر قيمة: قطعٌ ذهبية كضمان. طلبت رؤيتها فقدّم لي ثلاث قطعٍ قديمة، خمّنت أن تاريخها يعود لبداية القرن الثامن عشر من خلال الرسم، لم أتعرّف عليه لكنني لاحظت وجهاً مكللاً على أحد وجهي العملة وبرجاً على الوجه الآخر. فوجئت وطلبت اختبارها فكانت من الذهب الخالص. سألته كيف أصبحت هذه القطع بحوزته، فقال مبتسماً أنه لا يحق له الإجابة على مثل هذا السؤال، ظننت عندها أنني أمام مغامرٍ أو وغد فأجبت بسرعةٍ وبرود أنني لن أشارك بمشروعٍ يستهل بفألٍ شريرٍ إلى هذا الحد.

راجعت قراري بعد عدة برقيات تنفي أي شكوى عن سرقة تلك الأكاليل الذهبية في أوروبا أو أميركا. كما تجاوز تخمين قيمة هذه القطع

Twitter: @ketab_n

توقعاتي. لا شيء يجبره على أن يقول من أين حصل عليها . أتخيل... مغامرةً مشوقة .. لمَ لا؟

رأيته مجدداً ووعدته بأن أقدّم له الدعم. ستودع القطع الذهبية في صندوقي وتُرهن مقابل أول قرض يسمح له إطلاق تجارته. عندما افتتح لاحقاً مكتبته ساعدته في إيجاد مساهمين: كان العجوز لورموند على قيد الحياة وتباهى بإيداع بعض المال في مشروعٍ لموظفه السابق والذي لم ينافسه.

كان بحوزته مشاريع أخرى. أعرف أنه يعير السيارة انتباهاً شديداً وقد وصلت قريباً إلى بورغ تاباج. كما رغب ببناء فندقٍ مناسب تفتقر إليه مستعمرتنا . طرح عليَّ بدقة فكرة وجود فنادق رخيصة في حي الميناء. للضباط النادي الخاص بهم ونحن لدينا النادي المدني (أتذكر الحماس الذي دبَّ فينا عندما أنشأناه.) لكن المسافرون والموظفون القادمون بمهمة لا يعرفون أين يحطّون الرحال. لاحظتُ أنه قد دفع المال الذي اقترضه كاملاً وكنت على استعدادٍ لدعمه مجدداً . آمل بل أظن أنه سيتوصل لمراده. مستعمرتنا بحاجة لرجال أمثاله.

حسناً ، لم يكن أحدٌ يعرف حقاً من أين جاء. بالتأكيد فرحت به فهو يعرف عقيدته حق المعرفة ويتقن صلاة الاعتراف ولا يفوّت القدّاس ولكن من هو وأين يعيش والداه؟ ما هي جنسيته؟ من أين حصل على هذا الكنز الذهبي الصغير؟ وتلك اللهجة الطفيفة من أي بلدٍ حملها؟ ظلّت هذه الأسئلة تدور في سماء المجهول.

لو كنّا في بوردو سأعترف لك أن هذا كان ليقلقني ولكن هنا؟ أليست المستعمرة هي المكان الذي يؤمّه الشبان الشجعان ليهبوا أنفسهم حياةً جديدة كلياً؟

يعنيني مستقبله أكثر من ماضيه وإنني مؤمن بقدراته.

لو رأى مشروع زواجه النور لدعم أعماله وهذا جيد.

Twitter: @ketab_n

تخيل أنه مرّ وقت على إرسال رايموند إلى العاصمة لتجد فيها حزباً، أتظن أنها هناك كانت تهرب من الطامعين بمالها؟ كيف يمكن أن تتحقق من طالبي الزواج؟ كيف بك أن تحضرهم إلى بورغ تاباج لتخفف عناء أيامك الهرمة؟..

لكنني شردت.

على كل حال، مادمت مدير بنك سأقرض المال لألبيرت توبيا وسأستمر إلا إذا طرأ حادثٌ ما. إنه ليس مقاولاً معتبراً بعد في مستعمرتنا لكنه سيصبح كذلك إن تابع على هذا الطريق.

هاك يا صديقي العزيز ما تخبرك به كتب حساباتي! أنا في خدمتك وأتمنى لابنتك كل السعادة التي تأمل بها.

شكراً لك.

حضر المدير مجدداً يدعوني لتناول الغداء ناسياً معاونه الشاب. إنه يسعى جاهداً ليبدو ظريفاً وما طاوعني قلبي أن أرفض، تركت بقليل من الأسى لويس الكسندرين بين السجلات وغبارها وذهبت بصحبته إلى مطعم الغولف وهو يروي لي بالتفصيل تاريخ هذا المكان.

يفضو غولف بورغ تاباج على كشح هضبةٍ ترنو إلى خليج ماران وقد تم استدراكه تباعاً حسب كبر المدينة. منذ البدء والمطعم الخاص به مع حلبة الرقص يعدّان مكاناً راقياً في الحياة الاجتماعية. استقبلت الزخرفة بالمصابيح الملونة والمنازل المحفورة في الأشجار ثلاثة أجيال من الشباب المنتصر والفتيات بأثوابهن المحتشمة لتداعبهم نسمات يحملها البحر مع الغسق وأنغامٌ تطلقها الأوركسترا العابثة وتضحكهم دعابات الرجال في البار.

يحدُها جنوباً المنازل الأكثر بساطة في المدينة العالية ومن الشرق حيٌ من ورش الحرفيين والمخازن والكراجات التي تتسلق الرَعن الغافي

Twitter: @ketab_n

في أحضان البحر وتفصله عن حي شالوب ومن الشمال أبنيةٌ شعبيةٌ ترتفع أكثر فأكثر. هناك يبسط ملعب الغولف مروجه وجنباته المزهرة.

أخذت الأعشاب والأدغال كامل حريتها خلال الاضطرابات في غياب البساتين، لم تتأثر منطقة الغولف مباشرةً بالمعارك.

عندما أصبحت المقبرة المركزية عصيَّة على سكان الأحياء الجنوبية خلال شهور خيّم فيها الرعب، استخدم الحي رقم ١١ لدفن الموتى: ضحايا الحرب ولكن أيضاً النساء المسنّات المتشحات بالسواد والأطفال الذين ولدوا مع الموت والمرضى الذين ضاقت بهم السبل إلى العلاج. غطّت أجزاءٌ من غرفٍ تحت الأرض والقبور المساحة إلى طريق المعرض حتى تطاولت في غضون ستة أشهر على القسم المسطّح من الحي رقم ٨. (ماذا كنت أعرف عن الخطوط التي تعبر المدن). تقطع عبثية المعارك ما يضفي معنىً على الأحياء كما تمزقها وتفتتها وتهدم بنيتها. تعاني المسافات والشبكات جموداً يشلّها وكذلك العادات والنزهات. فجأةً يسكن الجار بعيداً جداً في فضاء يستحيل الوصول إليه. لم تعد الحافلات تتحرك أو تكتفي بخط سير مقطوع. تغيب متاجر الخضار والمدرسة والمقبرة والكتدرائية والحديقة العامة، يُبتر كل شيء عن باقي المدينة بشكلٍ عبثي، الورشة القروية والمدرسة الثانوية والمتاجر الكبرى والسينما.

لو قطعت تفاحة بالنصف لحصلت على نصفي تفاحة. لو فصلت مدينةً بما يلزم من حديد ونار ودم ليتصدع جوهرها نفسه لقسمين حسب خطٍ يمليه المنطق العسكري ما بين أكياس الرمل والخنادق والحواجز والأثاث المخلوع والجادات الخامية، لو قسمت مدينةً لنصفين فلن تحصل على نصفي مدينة بل على جُدعتين من إيهابٍ نابضٍ وجرحى وضحايا لا أمل لهم بالشفاء وأناس لا سلوان لهم أثقلهم الحنين للنصف الثاني الذي يفتقدون له.

Twitter: @ketab_n

يرشح من ضجيج الأسلحة والدمار والموتى والجرحى والعنف الفاضح في المعارك ألمٌ مضاعف يفاقم الألم الناتج عن فتق ما كان واحداً.

لم يروِ لي والدي أبداً عن بيروت المقسّمة ولا عن خياره بالمنفى.

لم يكن لي أن أعرف عن خطوط الجبهة إلا منه.

لدى وصول القبعات الزرقاء، عزّزت العائلات أولاً الصلبان المتزعزعة وحملوا أصائص الزهور وخططوا طرقاتٍ للسير كما طالبوا أن تبقى أراضي الأحياء القديمة رقم ٨ و١١ على حالها.

عاد لاعبو الغولف لمسارٍ من ١٦ حفرة، عرض نادي الغولف على مختارية الضرورة إعادة إنشاء الحفرتين الناقصتين وذلك للفت نظر السياح. أبدى المختار تجاوباً مع البرهان كونه لاعب غولف هو نفسه ونظر في أمر شراء أرضٍ متاخمة للحفرة رقم ٣ بأمانة من حافلةٍ مهجورة. ولكن أين نجد الكفالات الضرورية؟ قدمت شركة برأس مالٍ جنوب افريقي مشروعاً للغولف مع كازينو وفندقاً فخماً مؤلفاً من مئتين وخمسين غرفةً على الساحل في منتصف الطريق الواصل بين المدينة والمطار والذي أولته الحكومة أيضاً اهتماماً أكبر.

طالبت أصواتٌ مميزة عدة أن يتحوّل ميدان الغولف ككل إلى حديقةٍ من الذكريات. التزم لاعبو الغولف الصمت من باب الأدب لكن سكانٍ الأحياء الشمالية طالبوا بالحفاظ على الغولف وما يوظف من بستانيين ونادلين وأمناء سر وموظفي استقبال وصبية غولف حتى ولو كانوا هم أنفسهم قد فقدوا أعزاء لهم خلال الاضطرابات.

خلص مدير البنك بالقول، هل تدري كيف عُبّر عن هذا أمام منبر مجلس النواب؟ تجرأ أحد المرشحون من هذا الحي على القول: للأسف يجب أن تكون ثرياً حتى ترتدي زي الحداد طويلاً. وكالعادة وكما يجري عادة ودائماً، لم يفضِ الاجتماع إلى قرار. يمكنكم اللعب ولكن في ملعب غولف بست عشرة حفرة.

Twitter: @ketab_n

تناولنا طعام الغداء على الشرفة في مقصورةٍ تطلُ على قوارب ومنارة خليج ماران.

هاجم زنبورٌ أصفرٌ عنيفٌ وغبي صحني وخاطر بأن يسحق بضربةٍ من الملعقة. هناك في الأسفل، عند نهاية المرج خلف شجرة مانغو هائلة بأوراق خضراء ناعمةً وبرونزية لمحت تشييد أبنية ببلاطٍ أبيض وقبوراً ضخمة متواضعة مترامية تدمي الفؤاد أسىً.

باح لي المدير أيضاً بعد بعض الإيضاحات أن بنكه لم يكن يضم أي كنزٍ من العملات الأثرية. قام لوسكان وكولبيرت بعملية نهبٍ ناجحة، لم يجرؤ أحدٌ منذ عام ١٩٤٩ أن يقول أن "مجموعة القطع" في فيلا رايموند مسروقة.

ألحّ المدير قبل عودتنا لأقوم بزيارة مقرين يخصان مجموعة S.T.C على المرفأ: الأول شركة لقيادة السفن والأخر مستودع برّاد تفوح منه رائحة سمك مثيرة للاشمئزاز. لم يوفر علي سرد المونتاج المعقد للعملية: إعانات مالية وسلف ضريبية ومشاركات زبائن وفروع متنقلة محددة... توحي موافقتي بأنني أفهم شيئاً ما مما يسرد لي بكثير من الثناء.

لدى عودتي إلى البنك، نزلت إلى القبو، مازال لويس الكسندرين يجرد أكوام الملفات - ترى هل تناول غدائه فقط؟ - لم يرفض اقتراحي باستراحة في حديقة مقهى "البولفارد"، تحت ظلال شجرة الجاكا سمعت انطباعاته الأولى: "أصبح روبرت توبيا سيد أعماله بعد وفاة والده عام ١٩٣٨. قبل ذلك ومع أن والده كان يدعمه إلا أنه لم يكن يقرر شيئاً بل يبدو أنه لم يكن ملماً بكل التفاصيل. لم تستمر أعمال توبيا على أفضل حال. تشبث ألبيرت توبيا بفكرة صيد الحيتان في حين أن هذا العمل دائماً ما كان خاسراً وانتهى بالاضمحلال. ثم سعى لتجارة الأخشاب إلا أن أزمة ١٩٢٩ قد طالته. ظلّت المكتبة والمرآب واحتكاره للسيارات والأدوات الزراعية قويةً ولكنها ناءت تحت وطأة الروتين. رزحت استثماراته الغقارية بالركود الاقتصادي في تلك الحقبة. ترى هل أدرك ألبيرت توبيا موقفه الهش؟"

Twitter: @ketab_n

لثمت شمس الظهيرة عيني عبر أشجار الفيلاو المحاذية للشاطئ في الطرف الآخر للبولفارد. يرغي البحر الرمادي ويزبد بسياط نسمات جافة. يدور الوصف الذي قام به فريدريك في رأسي. هنا، من نفس هذه الطاولة لو حالفنا الحظ في شهر كانون الثاني لتمكنّا من رؤية الحيتان تلعب ما بين الأشجار والأفق.

استمر أثر روبرت بعد وفاته عام ١٩١٨. حلّت الحرب العالمية الثانية بغتةً وربض معها الزمن القاسي. ثقلت ديون توبيا وكابد في سدادها. لم يغيّر نمط معاشه ولم يسرّح أياً من الموظفين الذين وظّفهم والده وازداد عددهم. زاد إلحاح البنك وحوّل ديونه لأسهم يشارك فيها وهكذا وقعت شركات توبيا الواحدة تلو الأخرى في الهميان[1].

لم يكن عام ١٩٤٩ الذي أشرت إليه بشكل خاص سوى سنة من سنوات أخرى في هذه الحلقة اللولبية. زد على كل هذا، طالبته المستعمرة بدفع ما عليه من ضرائب، الشيء الذي أهمله. عام ١٩٥١، وقّع معه البنك والمستعمرة البروتوكول الأول لسداد ديونه الضريبية والذي أوصى فيه بفيلا رايموند ملكاً للمستعمرة مع الحفاظ على حقه وعائلته بالاستمتاع بها حتى وفاته. جرت بعض المحادثات الإيحائية حول قيمة اللوحات، لم أفهمها تماماً.

طمأنته بقول: "لا أظن أنها ذات أهمية كبيرة". إلا أنني لم أفهم سر الشكوك التي تحوم حول مجموعة "توبيا".

- وفاة والدته عام ١٩٥٤ منحته فسحة من الوقت بما أنه ورث أملاكها الخاصة وخاصة فندق باريس وكذلك بعض الأراضي وحصص في شركات تجارة الخشب. وهنا أيضاً باع رويداً رويداً، ثم اضطر عام ١٩٥٦ لإعادة التفاوض مع المستعمرة حول البروتوكول وقبل ببيع الفيلا مقابل راتب يستمر مدى الحياة. استمر برفض تغيير طريقة حياته وأبقى على الخدم والاستقبالات الضخمة.

---

1 - الهميان: كيس النقود.

Twitter: @ketab_n

لدى وفاته عام ١٩٥٩، قيّم دائنيه مالهم من حقوق وخاصة البنك والمستعمرة، وبعد أن نُظّفت ديونه بالكامل، لم يكن قد بقي من ميراث روبرت توبيا شيئاً تقريباً.

- هل رأيت كل ذلك بمرور صباحٍ واحدٍ على بحثك؟

- لم يكن الأمر سهلاً، فالميزانيات والمجالس العالم بليغة.

- بليغة لمن يتحدث لغتهم! هل يمكنك كتابة كل هذه العناصر وإرسال الملاحظات إلى الفندق الذي نزلت فيه.

تساءلت ما الفائدة من ذلك؟ لا أعرف شيئاً بعد.

- لدي أمرين بعد لأتحقق منهما، أظن أنني سأنهي خلال النهار، سأوافيك بالتقرير غداً، هل يناسبك ذلك؟

- رائع.

احتسينا الشاي بالنعنع وهو طقسٌ نشره التجمع السوري - اللبناني في كل أرجاء المستعمرة قبل الحرب.

- هناك شيء آخر، من المهم تدوينه كتابةً.

- هيا.

- مجرد إشارة أو اثنتين، أكد توبيا في أحد مجالس الإدارة التزاماً سابقاً بحمل الماء إلى فيشي.

- وماذا بعد؟ عطلة سعيدة، سيد توبيا؟

قلت في نفسي لاحقاً: يا لها من دعابةٍ سيئة، لأن فيشي بالنسبة لتوبيا هي من سحرت أخيه جيلبرت وورطته وأضاعته. "كلا، ليس في محضر مجلس الإدارة تسلسلاً زمنياً للعطل المؤجلة حتى لو تحدّث المساهمون بالأمر أو رغبوا بتسجيلها فلأن علاج توبيا يفرض ذلك على الشركة".

- لم أفهم.

- يعالج المستوصف في فيشي حالة الإدمان على الكحول عند سكان المستعمرات.

Twitter: @ketab_n

- هل كان توبيا يشرب؟

- ما هو الشرح الآخر لهذه الملاحظة حول المحضر؟

تتدرّج الألوان في اللوحة بشكلٍ غير متوقع. المقبلات في صالونات الفيلا كطقوسٍ انتحارية..

- هل علم المساهمون برغبة توبيا بأن تتم معالجته من التسمم الكحولي؟

- أو بالأحرى بهذه الملاحظة المهملة، لابد أنهم أرغموه على ذلك.

- في أي عام؟

- ١٩٥٣.

في ذاك العام، كان هناك طفلٌ في الرابعة من العمر يلعب في في ء شجرة البرتقال.

صعودٌ وهبوط في منزل توبيا ... وضع ألبيرت توبيا الطوبى الأولى لثروةٍ طائلة بالقطع الذهبية الثلاث. انطلق ابنه بقوّة اندفاع والده دون نبوغٍ فخسر القطع الذهبية ثم أفضى المطاف لخسارة كل شيء. كان الأمر منطقياً وقاسياً كحكاية "غريم"[1].

لم أكن مقتنعاً بعد.

الطفل ذو الأربع سنوات الذي حرقتهم الرغبة بإنجابه لدرجة أن ضحوا من أجله بما لا يقدّر بثمن وأطلقوا عليه اسماً مضحكاً حضر اندثار ذاك الذي يحمل اسمه. ماذا كان يعرف؟ ماذا كان يحزر؟

لم أتمكن من تخيل هذين الزوجين مع هذا الطفل في حديقة الفيلا.

---

1 - مقدم برنامج تلفزيوني لحلقات بوليسية بدء عرضه في اميركا ٢٨-١٠-٢٠١١ على قناة NBC.

Twitter: @ketab_n

- ١٢ -

في الأمسية ذاتها، قبل الإغلاق بقليل، عدتُ إلى فيلا رايموند. سألت فريدريك: أين كانت غرفة بنجامان. لم يكن يعرف إلا أنه أكّد لي أنني قد رأيت كل الغرف. هل كان الطفل ينام مع والديه؟ أم في صالونٍ تغير مؤقتاً إلى غرفة، من علم كيف استخدم بشكلٍ رئيسي؟

لا يهم، ولكن مهما يكن الجواب فإن روبرت توبيا الذي يعير الترتيب الداخلي اهتماماً كبيراً، لم يغيّر أياً من الغرف العديدة في الفيلا إلى غرفة نوم بنجامان، لا أهلاً ولا سهلاً.

يميل النور الذهبي العتيق لينير القاعات. تترامى أشجار الروض ما بين السماء والبحر البعيد قبل أن تلقي خيانة الشمس ألقها على كل الألوان بأقل من ثلثي الساعة. يموج أثاث الصالة الاستعمارية بلون المشمش. انتقلت إلى القاعة التركية حيث طُمست معالم اللوحات خلا لوحةٌ تصوّر حصاناً أبيض ينتصب بكبرياء أمام الينابيع مقابل بدويةٍ مرعوبة. يا لقوّة خطوط "جيريكو Géricault"[1].

فجأة فهمت، أبواق جيريشو، دعابة في الصالة التركية حين يحين وقت المقبلات، أي لعبٌ بالألفاظ ما بين جيريكو وجيريشو. وجدتُ في هذا الجناس التفسير الخاص والوحيد للرسالة التي أرسلها أحد مضيفيه في إحدى الأمسيات. كان روبرت توبيا يعرف أن والده يربط هذه اللوحة بمعنى خاص. لماذا حكم على هذه الرسالة أن تكون ما بين ملف الأخبار السيئة؟ ألأن مضيفه أومأ لتكرار الطرفة؟ ولكن أي تهديد هذا، أي معلومات مزعجة تضم؟ هل كان جيريكو المفتاح أم كيف؟ أسفَت الشمس عند قمة الهضبة بأحضان الأفق فلاحت الأغطية الباحثة عن

---

١ - تيودور جيريكو: رسام فرنسي من المدرسة الواقعية (١٧٩١-١٨٢٤).

Twitter: @ketab_n

الجفاف والسطوح من الصفائح المعدنية. عدتُ إلى الفيلا لأتأمل لوحة جيريكو مجدداً إلا أن الليل الذي اجتاحني كفَّ بصري إلا عن كتلٍ معتمة كبيرة ولُبان الخيل أبيض اللون.

عليَّ إيجاد اختصاصي بالرسم الفرنسي. الميلان الزمني وغياب الاحتكاك في هذا الوسط والصعوبة التي أكابدها في التعبير عما أريد حقاً بددت مقارباتي الأولى. هل يجدر بي المتابعة؟

استحوذ هذا التحرّي على اهتمامي، ذهبت باتجاه آخر. كان علي أن أرتفع أكثر وأعرف كيف تمكن ألبيرتو بياسي البحار الشاب أن يصبح مالكاً لثلاث قطعٍ ذهبية لدى وصوله إلى بورغ تاباج. راودني شعورٌ بأن هذه القطع تستحوذ عليَّ أكثر مما يتصوّر العقل وأن لا حاجة بي للاستمرار بتقفّي الأثر. ولكن كيف لي أن أتصرف بشكلٍ مختلف؟ بحثت في نيويورك على كل المقالات التي تدور حول الأكاليل الذهبية وشرعت بقراءتها بتمعن على شرفة غرفتي مقابل الخليج. تشير كلٌ من هذه الدراسات العلمية ولو باختصار لدراسة الأستاذ "برونفان" في جامعة فارسوفي، وقد تم نشر هذه المقالات في مجلات مختصة. يشكّل هذا النص الصادر عام ١٩٤٧ عن مجلة "حوليات أكاديمية العلوم في بولونيا" تنقيحاً كاملاً وقطعياً لعملات الكسندر أوغست دوجيرولستان أنهالت. تمكن أحد أصدقائي في باريس أن يحصل على المقال ويرسله إليَّ: أربعون صفحة باللغة البولونية وخمس عشرة صفحة من الملاحظات. تمكنتُ بفضل مضيفة الفندق أن أتصل بسيدةٍ مسنةٍ ولدت في "كراسوفي" تتمكن من ترجمة هذه الصفحات. أسرعتُ إلى منزلها، وكان علي أن أتلقى قصة حياةٍ دارت رحاها ما بين أوروبا والولايات المتحدة والبرازيل وبورغ تاباج، توصلت في النهاية لإقناعها بالشروع بالعمل فوراً. مازالت تحتفظ بلهجةٍ قوية وكانت تدخن دون انقطاع. سأقوم أنا بدفع أجرة الترجمة. ألحيتُ على ضرورة العمل وجديته.

Twitter: @ketab_n

بعد ثلاثة أيام من البحث المتردد والرفض في أوساط الرسم الكلاسيكي، تذكرت الزبون الأول الذي عملت لصالحه أو بالأحرى حفيدته التي اخترعت مهنتي من أجلها. كانت مولعةً بالفن تجوب المعارض والمراسم. توصلتُ للاتصال بها وسألتها أن تجد لي اختصاصياً بجيريكو Géricault، أثارت فكرة حاجتي إليها في الطرف الآخر من العالم المتعة لديها فقبلت التحدّي وبحثت في علاقاتها. في الصباح الباكر من اليوم التالي اتصلت مع أحد معارفها "شارل فيلان" أمين متحف اللوفر بعد أن أسهبت بالاعتذارات، شرعتُ بشرح موضوعي، إلا أنه قاطعني على الفور قائلاً:

- يدلّ الرقم الظاهر على الشاشة أنك تتحدث من بورغ تاباج، إذاً أنت تودّ أن تستعلم أكثر عن جيريكو الموجود في فيلا رايموند؟

- برافو! ولكن كيف...

- جيريكو الخاص بروبرت توبيا مثيرٌ للريبة يا عزيزي مثيرٌ للريبة، ظهرت لوحة "البدوية والبئر" عام ١٩٣٥، لم تزوَّد بمرجعية أبداً حتى أنها لم تذكر سابقاً. بقيت اللوحة دائماً في بورغ تاباج، ورفض مالكوها المتعاقبون توبيا ثم المتحف مراراً وتكراراً أن تتم معاينتها أو أن تخرج من الفيلا. أظن أن هذا الشرط فرضه توبيا على هبته. حتى أن لا صورة لها كبطاقةٍ بريدية! رأيت اللوحة كزائرٍ عادي إلا أنني غير مقتنعٍ بها ولا زملائي حتى. لعلها مجرد تقليد، حقاً خلاّب، نفذته ورشة شرقية في مطلع القرن العشرين.

- هل هي لوحةٌ مقلّدة؟

- لا يمكنني أن أجزم حتى أعاينها، ومعاينتها أمرٌ مستحيل ولكن يمكنك أن تفكّر على هذا المنوال.

- بيد أنها تصوّر في الدليل السياحي كأحد كنوز تراث بورغ تاباج.

Twitter: @ketab_n

- هل تحققت هذه النصوص الأدبية من أصلها؟ قلّب صفحات أي كتاب يتحدث عن جيريكو لن تجد كلمةً واحدة حول لوحة "البدوية والبئر" وقبل أن تقدم على إزعاج أحد زملائي دعني أخبرك أن الشك يساور عائلة "ديلاكروا" أكثر من غيرهم. ورسم "إنغريس" أيضاً. يمكننا أن نتحدث حول "فرومانتان"[1].

بقيت صامتاً للحظة، لهذه المصارحة تبعاتٌ متباينة، عليَّ أن أمسك بكل خيوطها.

- هل هذا الشك الذي يكتنف لوحة جيريكو العائدة لتوبيا حديث العهد؟

- منذ أن افتتح المتحف، أظن بعد برهة من الحرب. عُرفت عندها لوحة البدوية والبئر في عالم الفن، لكن نسبها لم يكن مقنعاً. عندما كنت طالباً طبعاً لم يكن ذلك أمس الأول، ذكر المعلم هذه اللوحة كإحدى الأعمال المشكوك بها علناً.

- ولكن لماذا أشاع توبيا هذه الأسطورة؟

- من أين له أن يعرف؟ ربما زهواً؟ أو ليبعد عن نفسه إهانة الخديعة؟ أو ليحتفظ لنفسه بشرف فرضية أنه الحاصل على أجمل لوحة دخلت إلى جزيرته؟

- لعله مقتنعٌ بها هو نفسه؟

- لوحةٌ مشكوك بها، هو حادثٌ طارئ في حياة جامع اللوحات، الثانية هي إشارة لسوء الحظ. الثالثة والرابعة لو أضفت لوحة فرومانتان لم يعد سوء حظ...

- ما هو إذاً؟

- غشٌ منظّمٌ.

---

1 - رسام وكاتب فرنسي (١٨٢٠-١٨٧٦) من المذهب الرومانسي.

Twitter: @ketab_n

شكرت أمين المتحف وخرجت إلى الشرفة أُمعن النظر في ورطات هذا الحكم. هبّت نسمةٌ من عرض البحر راقصت نخيل الحديقة. كان روبرت توبيا يعلم أن لوحة جيريكو مزيفة، هذا ما يفسّر امتعاضه من ضيفه الذي رمى بإشاعة خرقاء.

ظهرت اللوحة حوالي عام ١٩٣٥. سعى ألبيرت توبيا لجمع أعمالٍ فنية شرقية وعرضها بسذاجةٍ في القاعة التركية في الفيلا لوحة "البدوية والبئر مع عبدها"، ثم اشترى اللوحتين الباقيتين بعلمٍ من أحد المزيفين. بل لعله نفّذ ذلك ممعناً بالتفاصيل. كل اللوحات مزيفة، كل القطع الذهبية سرقها بحاران في المرسى، تقوم ثروة روبرت توبيا واعتماده على خيالٍ. ماذا علّمه الناس وأصحاب البنوك. هاهو مفلسٌ يائس. تفحصت في ملاحظاتي لأتحقق من التاريخ الذي أعلن فيه انسحابه من النادي المدني: ١٩٥٢. لا شيء يفوق قوة تسلسل الأحداث الذي سرده لويس الكسندران. ترنّح نظام روبرت توبيا الاجتماعي.

لدى وفاته عام ١٩٥٩، شاع في أرجاء بورغ تاباج خبر بيعه لفيلا رايموند مقابل راتب يستمر طيلة الحياة إلى المستعمرة بشرط أن تبقى على حالها. أبدت المستعمرة ذوقاً ولم تقدم على أي خطوة. غادرت إيرنستين توبيا هي بنفسها فيلا رايموند، إذ لم يكن لديها الوسيلة للحفاظ عليها عام ١٩٦٢. انتقل بنجامان ووالدته للعيش في شقةٍ متواضعة وغابا عن الساحة السياسية.

كان عليّ أن أنتظر يومين للحصول على ترجمة المقال البولوني. شرح هيغو برونفمان من خلال مقدمةٍ موجزة ظروف إنجاز هذا العمل الذي شرع به قبل الحرب. هرب من "فارسوفي" لدى اقتحام الجيوش النازية ولاذ إلى قريةٍ له فيها منزل ريفي مع مكتبته وأوراقه. اختبأ في حضن عائلة قدّمت له ما يحتاج من طعام وعرفت عليه على أنه مزارعٌ بسيطٌ. بذل ما بوسعه رغم عمره وعدم خبرته، ليحل محل الابن الذي لم يعد

Twitter: @ketab_n

من الجبهة في أعمال الحقل. ينكبُ على تحليلاته مساءً وفي الليل وخلال فصل الشتاء، خبّأ كتبه وكتاباته في قبوٍ تحت سقيفة العلف. هذا التفكير الطويل المعتزل، أتاحت له أعماله الفكرية تلك أن يشغل بولونيا المحتلة دون اسم رغم الرعب.

تم إهداء المقال للأمير "الكساندر أوغست" حامي اليهود وإلى العائلة K التي أنقذت حياتي.

كان تنقيحه لأكاليل الكسندر أوغست عملاً جوهرياً رغم أبعاده المتواضعة بمنهجيته كما بنتائجه.

قرر سرد تاريخ كل النماذج المعروفة لهذا النقد الاستثنائي. اختار عام ١٦٩٠ كنقطة انطلاق، شملت الدراسة مئتين وثماني وثلاثين قطعة. بسط البحث جناحه على كل القارات قبل أن تقطع كارثة ١٩٣٩ سيل الرسائل برونغمان أستاذ ذو كرسي في تاريخ أوروبا في جامعة فارسوفي.

بدأ الإحصاء بالقطع المحفوظة دائماً في مؤسساتٍ شعبية. تغفو القطع التي تحمل الأرقام حتى ٨ بين كنوز لويس الخامس عشر المحفوظة في "مسكوكات باريس". أما القطع من الرقم ٢٢ حتى ٤٥ فوصلت عام ١٧٣٠ إلى الفاتيكان ولم تبرح المكان منذ ذاك الحين. تردد أكاليل المسكوكات والمتاحف صدى التاريخ. أهدى نابليون إلى أخيه جوزيف ملك إسبانيا القطع الفرنسية ذات الأرقام من ٩ حتى ١٢، عندما اعتلى "Bourbons" عرش إسبانيا من جديد، بقيت القطع في مدريد قرابة قرنٍ ونصف. عندما اقترب الفرنكيون من مدريد تم نقل "ذهب الجمهورية" بقاربٍ خاص إلى حكومةٍ صديقة للمكسيك. وهكذا انضمت في أقبية البنك الوطني في المكسيك إلى القطع رقم ٨٣ و١٠٧ و١٢٢ و١٣٩ التي اشتراها نابليون الثالث من مجموعاتٍ خاصة وأهداها إلى من عهده بحمايته ماكسيلمان امبراطور البلد اليائس والمؤقت. على مقربةٍ من برونفمان، عُهد بالقطع ذات الأرقام ٥٣ / ٧٧ / ٧٨ / ٢٠١ /

Twitter: @ketab_n

٢٣٤ / ٢٣٥ من البنك في ليتوانيا إلى البنك الفرنسي بعد الحرب حيث مازالت موجودةً حتى الآن رغم مطالبة ليتوانيا المستمرّة باستعادة أمانتها المقدسة من الحكومة الفرنسية الناقمة عبثاً منذ انضمامها إلى الاتحاد السوفييتي المجيد، تم إضافة هذه الجملة إلى النص الأساسي في برونفمان.

أما الأكاليل التي تخصُ أشخاصاً بعينهم فكان من الصعب تقفّي أثرها، حيث تبدو ضمن هباتٍ يقدّمها أمراء أو مهرٍ أو إرثٍ لتلوح لاحقاً في المزادات العلنية. تختفي خلال الاضطرابات السياسية: حروب نابليون وثورات ١٨٤٨ والحرب العالمية الأولى واستيلاء البلشفيون على السلطة ثم وصول النازيين.. كما أن الكوارث تنقص من قيمتها سواء بثوران بركان بيلي الذي دمّر سانت بير دولامارتينك عام ١٩٠٢ والقطعة رقم ١٥٤ والصندوق والمنزل الخشبي وكل عائلة لوسار موريـاس دولاكورتين أو غرق سفينة التايتنك عام ١٩١٢ مع القطع ذوات الأرقام ٨٨ و١١٢ التي اشتراها هنري سيلكيرك جر الجامع الثري الأميركي الذي غرق مع قطعه.

تخلق عملية الوصل بين المراحل المختلفة مشاكل لا حصر لها ومثيرة للسخط. هل كانت القطع الخمس التي تم بيعها في مزادٍ في روما عام ١٨٩٥ هي القطع الخمس التي كانت مهراً للأميرة الدوبراندیني التي عُقد قرانها عام ١٨٤٥؟ هل رفعت القطعة ١٩٢ التي اشتراها الشاه عام ١٩٢٨ من قيمة كنز بلهفي في طهران أو أنها كانت جزءاً من الثماني قطعٍ التي عرضت للبيع في جنيف عام ١٩٣٢ وحصل عليها أحد اللوردات الإنكليز؟. هل مازالت تلك القطع الثماني في مقصورةٍ ريفية شمال إنكلترا؟ وضمنَ هذا المبيع نفسه كيف يمكن إخراج قطعتين حصل عليهما مليارديرٍ أرجنتيني؟

Twitter: @ketab_n

أرسلت رسائل لا حصر لها من فارسوفي في الثلاثينيات لإعادة تشكيل هذا "البازل" المكوّن من مئتين وثمانية وثلاثين قطعة. توافدت إجاباتٌ عديدة بمختلف لغات العالم بمالكيها عامةً كانوا أو خاصة يدركون أهمية البحث، وقد أجابوا بأفضل ما لديهم بعد أن طرحوا السؤال على أرشيفهم وتسلسلهم العائلي مؤكدين شراء أو بيع إحدى القطع وكل ما يعرفون عن الأمر.

كان يلزم الوقت الكافي لفرز البريد وربطه من جهة بالأحداث التاريخية المهمة منها أو الصغيرة ومن جهة أخرى بالأدب الخاص بها. زوّدت الهمجية النازية للأستاذ برونفمان السنوات التي يحتاجها، دعّمت فرضياته بدقة بالملاحظات وقدّرت أو استبعدت من مئتين وثمانية وثلاثين قطعة المستدل عليها نجح بتقفّي أثر مئة وخمسة وخمسين قطعة. هل يشير بسحرٍ في الجملة الأخيرة من مقاله الملطف بسبب الحرب ثم بسبب المرض إلى الستار الحديدي[1]؟ - لم يحظَ أبداً بسعادة الإمساك بها بين يديه.

يعود الفضل إليه بأن اقترنت كلٌ منها بماضيها الساكن أحياناً والصاخب في أحيانٍ أخرى، تغفو بشكل متتالي في صناديق أو بنوك أو تخاط في الوجه الداخلي للفستان أثناء الهروب المضطرب أو تُدسُ في صناديق صغيرة.

وماذا حلَّ بالأكاليل التي سرقها لوسكان وكولبيرت؟ لا شيء في بورغ تاباج لا إشارة عن مجموعة روبرت توبيا في المقال الصادر ١٩٤٩. لدي تقريباً ما يدل أن هذه القطع قد وصلت إلى الجزيرة عام ١٨٩٦ مع ألبيرتو بياسي.

---

1 - الستار الحديدي: عبارة تشير إلى الحدود التي تفصل الجمهوريات الاشتراكية في أوروبا الشرقية عن دول أوروبا الغربية.

Twitter: @ketab_n

أعدت الدراسة لأحصر شكل أفضل ما بحثت عنه، وجدت دقة البحث شاكراً الأستاذ برونغمان.

أهدى الكسندر أوغست القطع ذات الأرقام ٦٦ و٦٧ و٦٨ إلى ابنة عمه زوجة الناخب من ساكس، وظلّت هذه القطع في حضن العائلة لعقدين متتاليين ثم تم بيعها عام ١٨٤٩ إلى الكونت "هنري فون ستودر". احتفظ بها ابنه "كارل فريدريك فون ستودر" ثم نقلها إلى ابنه "لودويغ".

قرر لودويغ فون ستودر عام ١٨٩٤ الهجرة إلى المحيط الهادئ حيث تقيم مستعمرة ألمانيا في "ميكرونيزي" جرّاء قطيعته مع المجتمع الراقي في الإمبراطورية الألمانية لأسباب ظلّت مجهولة ولم يأتِ على ذكرها برونغمان. غرق القارب الذي حمله عام ١٨٩٥ وبحسب برونغمان فقد ضاعت معه.

لحظة الغرق، لاقى "لودويغ فون ستودر" مصرعه لكن البحّار ألبيرتو بياسي تمكّن من النجاة والاستيلاء على الأكاليل الثلاثة.

كان بحوزته لدى وصوله إلى بورغ تاباج هذا الكنز الصغير الذي لم يثر شكوك أحد ما حول بشائر ثروته.

لماذا كنت أحلم أكثر؟ لاح طيفُ "لودويغ فون ستودر" ليروي ساعاته الأخيرة في مواجهة العاصفة والسفينة التي جنحت نحو الكاسر، هيكل السفينة الذي يتحطم بألسنة الأمواج الضخمة لتخرق صرخات الاستنجاد الريح العاتية. ثم ذاك الشاب الذي مدَّ له يد العون؟

اعترتني مشاعر عابثةٌ بتصحيح مسار عمل برونغمان وأن أضيف خطابي إلى خطاه فكان علي أن أكمل تسلسله:

قصة القطع رقم ٦٦، ٦٧، ٦٨

من: الكسندر أوغسْت دو جيرولستان - أنهالت

هنري فون ستودر

Twitter: @ketab_n

كارل فريدريك فون ستودر

لودويغ فون ستودر

ألبيرت بجاسيك / ألبيرتو بياسي / ألبير توبيا

روبرت توبيا

توماس كولبيرت.

ارتعشت أمام اكتشافي الخاص فإن الأحرف الأولى التي ترمز لثروة كولبيرت في نيويورك يمكن أن تقرأ باللغة الإنكليزية: Seaman's Three Crowns :STC أي الأكاليل الثلاثة الخاص بالبحار.

Twitter: @ketab_n

- ١٣ -

أرهقت كاهلي كل هذه التساؤلات، كغريقٍ ألقت به العواصف على شاطئ جزيرة، وجدتُ لي ملاذاً في الحكايا التي رواها البحّار.

لم يعد بوسعي التوقف. كان عليّ أن أتعرف على بدايات ألبير توبيا أو بالأحرى ألبيرتو بياسي أو بالأحرى ألبير بجاسيك. تقفى روبرت توبيا أثر والده بعد الحرب والذي ولد في فيلانوفا سول مار، أو "نوفيغراد نامورو" في الإمبراطورية جنوب هنغارية وفي إيطاليا ما بين الحربين وفي يوغسلافيا زمن وجودها. والآن في كرواتيا.

تتحرك أسماء المواقع أقل من حركة الحدود. عَثرتُ على هذه الضاحية في الجانب الغربي من "إيستري". وجدت في الحاسوب دليل تلفونات فسألته عن عائلة "بجازيك" في نوفيغارد، كانوا أحد عشر، اتصلت بهم الواحد تلو الآخر عندما أتاح لي فرق التوقيت، أجابوا طبعاً باللغة الكرواتية، لغةً لا أفقه فيها شيئاً ومن جهة أخرى فأنا لم أكن أعرف ماذا أريد أن أقول لماريا بجاسيك ولستيبان بجاسيك ولماركو بجاسيك وجوني بجاسيك ولآنا بجاسيك.. الذين لا يتقنون من اللغة الإنكليزية سوى أسمائهم.

في الاتصال الثامن، غرّدت فتاةٌ صغيرة بأذني كلماتٍ ما فهمتها ثم سمعت صوت رجل، رجلٍ مسن يتحدث الألمانية، سعيت لجوابٍ بالإنكليزية ثم بالفرنسية. وصل إلى اللغة الإيطالية التي يتحدثها أسوأ مني، أخيراً كان حوارنا بطيئاً يتخبط، في لغة دانتي يتقطع أحياناً بعباراتٍ من اللغة اللاتينية المستخدمة في الكنائس.

لزمني وقتٌ طويل لأفهم ببساطة أنه والد زوجة "لوكا بجاسيك" الذي طلبت رقمه وأن لوكا خرج أو لعله مسافرٌ أما هو فيعيش عند

Twitter: @ketab_n

ابنته أو لعله كان بزيارة لها حين رنّ الهاتف، تذرّعت بأنني أجري أبحاثاً عن الأنساب وطلبتُ منه أن يحدثني عن "ألبيرت بجاسيك". سألني:

- أياً منهم؟

لحسن الحظ سجلت ملاحظات أثناء قراءتي للرسالة المؤرخة عام ١٩٣٩ من الكاردينال الأسقفي في البندقية.

- "أخ جيوفاني / إيفان وعم فرانسيسكو / فرانجو وأنطونيو / انطون".

- آه، ذاك الشاب المسكين، هو عم جد لوكا. ذهب في رحلةٍ إلى البحر ولم يعد، لاقى مصرعه إثر غرق السفينة، كان ذلك قبل الحرب العالمية الأولى.

- ألم يخلِّف وراءه أي ذكرى، أي قصة؟

- كلا، غادر في ريعان الشباب ومات في ريعان الشباب. لطالما كرروا في العائلة اسمه لقسوة مصيره وأنه كان شاباً وسيماً. إنهم يكررون حتى بعد قرنٍ من غيابه عبارة: "وسيمٌ مثل العم ألبيرتو".

لم يخلِّف أثراً سوى في العادات العائلية وفي هضاب كرواتيا.

كرر العجوز بلغته الإيطالية المترنحة:

- "un belloragazzo أي

بنبرةٍ خشنة تنبعث من منزل "لوكا بجاسيك في نوفي غلاد نامورو.

أغلقت السماعة بعد أن أجزلت له الشكر. لم يكن من السهل عقد علاقةٍ مع عائلة "بجاسيك"، لم يسمح الهاتف والحاسب لي سوى بكسب الوقت. في الزمن الذي عاشه روبرت توبيا، كان يلزم عدة أشهر لتبادل الرسائل أو لرحلةٍ مملّة بالقارب ثم بالقطار لنقترب من "تريست". لم يبذل هذا الجهد. تأكّد بعد الحرب من أصوله لكن عداءه العميق للشيوعية منعه من إقامة علاقة مع أبناء عمه الجرمنيين. ولكن لاحقاً،

Twitter: @ketab_n

حين انفتحت يوغسلافيا تيتو وكان بوسعنا التنقل بسهولة أكبر في البلدان الواقعة في الطرف الآخر من الستار الحديدي؟

لاحقاً؟ كان بنجامان هنا. ما معنى أن يجد عائلته في يوغسلافيا؟ وماذا سيقول لهم؟ عن قرابته؟ لكن قرابته بهم لا تعنيه فليس لديه ما يتقاسمه مع أولئك المزارعين الكرواتيين ومع حقول الذرة ونبيذ الخوخ.

ربما كان متاحاً له قبل الحرب عندما كانت إيستري إيطالية أن يعرّف على نفسه "روبرتو بياسي" الذي ينتمي للفرع الدخيل إلى العائلة ويأتي على ذكر الإرث وينضم لعائلةٍ عديدة الأفراد. لكن لم يكن غياب الأطفال يقلقه حينها. كان أخوه جيلبرت شاباً في مستقبل العمر، لم يتبادر لذهنِ أحدٍ أن يضيع في البلبلة والتفجيرات في قرى فرنسا وجبهة التحرير. كما أن الكاردينال الأسقفي في البندقية لم يكن بعد قد تقفّى أثر والده قبل الحرب. قبل الحرب، لم يكن هناك داعٍ ليهتم بجاسيك أو بياسي. عندما علم أين يجد عائلة والده وتأكد من عقمه وعلم بوفاة أخيه كان بنجامان قد رأى النور.

هل يحرم بنجامان من الميراث، لو تجاوزنا فكرة أن الأمر متاحاً قانونياً والثمن الباهظ لفضيحةٍ مدّوية ولإذلالٍ لا حدود له، كل ذلك ليهب ابناء عمومته المجهولين الخاضعين لنير الشيوعية والذين لا ينتظرون منه شيئاً؟

لا يمكن أن يعاقب إرنستين بمواجهةٍ كهذه ولا أن تمضي بقية عمرها بصدى العار. أغلق بنجامان باب كرواتيا بشكلٍ حازم. لذلك سأعتذر بأدبٍ ولن أنطق بكلمة عن حياة "ألبيرت توبيا" وأبناءه الثلاثة روبرت وسيمون وجيلبرت، أما من تبقى لم يحملوا روابط الدم مع بجاسيك ولا يعنيهم. ما النفع لو أخبرتهم الآن - وهم في كرواتيا التي هدأ سعيرها حديثاً - أن لهم ابن عم بعيد، ابن عمٍ باسم عائلة مشوّه وبالدم أيضاً،

Twitter: @ketab_n

يعيش في جزيرةٍ في طرف العالم قد لا يحددون موقعها على الخارطة ولعب دوراً سياسياً من الطراز الأول ولقي مصرعه اغتيالاً؟

ماذا يجدي نفعاً لو علموا بهذه البلبلة وماذا عساهم فاعلين بها؟ لا يمكن تطعيم اسم توبيا إلا بدم وثروة توماس كولبيرت. انتهى اسم بجاسيك مع "belloragazzo" العم ألبيرتو الذي تنكّر له ليصبح ألبيرت توبيا. لم يغير شيئاً ذاك الابن الشقي رغم كل ما قام به وكل ما حلم به.

مازال بوسعي أن أتابع أكثر فأكثر واتقفّي آثار الكرب الذي تعرّض له روبرت توبيا. تخيل أن له أخاً أو أختاً في المحيط الهادئ، هذا ما علمه من والده هناك خلال ستة أشهر من الغرق. لم يكن الأرشيف في جنوب هنغاريا وألمانيا أفضل حالاً من أرشيفنا. تمكنت من التحقق في تريس أو في هامبورغ على متن أي سفينة أبحر سيمان ألبيرتو بياسي أو ألبيرتو بجاسيك؟ والمسافر ذو الدرجة الأولى "لودويغ فون ستودر" وقرب أي جزيرة حدث الغرق، عند جزر سالومون أو غينيا الجديدة أو في أرخبيل كارولين؟... وكذلك وجهات أخرى بعيدة المنال وصعبة الوصول، بالطائرة أو بالقارب، يصعب العثور على المكان المحدد وسؤال القبائل القديمة واكتشاف أصول هذا الخلاسي أو ذاك وما الفائدة التي قد نجنيها؟

نظرياً، أبناء عمومة بنجامان توبيا الجرمنيين ولكن دون روابط دم، ليس بحوزتهم ما يقدموه لهذه القصة. فقط أن يكتب في مسودة في قائمة مزور وقّعها جيركوت وفي الهواجس الحصرية لزوجٍ بائسٍ في بورغ تاباج في اليوم التالي للحرب. لا يكفي سحر رحلةٍ طويلة بشكلٍ جنوني للقيام بها.

غربت الشمس في بورغ تاباج بعد أن أشرقت في إيستري بتلك المفاجأة الاستوائية المدهشة دائماً.

Twitter: @ketab_n

تجرَّعت كؤوس الملل منذ قرابة أسبوعين مع بداية كل مساء حيث تغلق المحال أبوابها ويندر المارة في الطرقات المليئة بالكلاب الشاردة والأنوار الخافتة.

عثرت في بهو الفندق على بطاقة دعوة لافتتاح معرضٍ لرسامين وخزفي في صالة "ليزارد بلو أي العظاة الزرقاء". لم يكن لدي خيار أفضل فذهبت لحضوره.

لم تكن صالة العرض سوى مستودعاً تمّ تحويله لمعرضٍ فنّي ينتهي بدربٍ يطلُ على شارع كولمار، بدت الأعمال المعروضة أسوأ مما ظننت، مجرّد ترّهات مترامية الأبعاد لا حوارات فيها ولا أهمية. تسكعت على وقعٍ بطيء لخطواتي من لوحة رديئة لأخرى أكثر رداءةً. هنّأت أحد الفنانين الذي نحت دون دقة دعامةً تعلوها قصعةٌ ملونةٌ كثيراً لعلها رأس امرأة أو كرة أرضية؟

تأملتها وأنا أتراجع إلى الخلف. التقيت بسيدةٍ أمازونية بقامةٍ طويلة جداً وطاعنة بالسن، ترتدي فستاناً أسوداً طويلاً موشىً يكشف عن كتفيها وعنقها فقدّمت لي قدحاً من الشامبانيا ما استطعت رفضه. توافد المدعوون رويداً رويداً حتى غطّت رؤوسهم العديدة اللوحات. اخترق "الكسندر شانر" الجمهرة وقال:

"يا لهذه المفاجأة السارّة! هل تأكدت أن هناك حياةً ثقافية في بورغ تاباج لن تتمكن أن تفلت منها".

من حولنا شعراء وممثلين وموسيقية وعازفين على آلات وترية... نفس الأشخاص دائماً يدورون في حلقة الغيرة الكل من الكل ويتحرّقون رغبةً إلى باريس أو بروكسل أو حتى إلى ليموج خيرٌ من التعفّن في هذه الحفرة.. لن يعترف أحدٌ بهذا ولن يعترف أنه ما أتى إلا ليتأكد أن كل المنافسين موجودون، لم يستقل أحداً منهم الطائرة.

أجبت: - إنك تبالغ.

Twitter: @ketab_n

- بالطبع، ما رأيك بالمعرض؟

- شيّق.

- فظيع. أعرف اثنين من أولئك المغتصبين، وخاصة ذاك الذي يخربش في ثانوية "بودان" على أنه مدرّس رسم. ولكن ليس بحوزتنا ما هو أفضل لنقدمه لك.

ملأت السيدة الجنائزية بفستانها الأسود أقداحنا الفارغة بينما دوزن عازف البيانو بعض الأنغام.

- هناك لوحةٌ واحدةٌ جديرةٌ بالتأمّل، عرضت للبيع منذ عامٍ حين صدرت عن مجموعة خاصة.

سحبني إلى غرفة أخرى أقل ضياءً وأكثر هدوءً وأشار إلى نصبٍ تذكاري مستطيل مجرّد مع آفاقٍ شاسعة من أطنان من اللون الأزرق وبضعة خطوط غاضبة منحرفة بنيةً وخضراء اللون.

- كان "ريجي إتين" أفضل فنان في بورغ تاباج دون منازع.

لماذا استخدم صيغة الماضي؟ خفت أن أطرح عليه السؤال فألقيه في إسهابٍ مأساوي.

لاحظ افتقاري للحماسة فعدنا إلى القاعة الرئيسية، سأل:

- هل عثرت على ما جئت من أجله؟

بدا لي السؤال ماكراً رغم تهذيب كلماته فأنا لم أخبره أبداً عن هدف رحلتي، عانيت منذ وصولي إلى هذه الجزيرة أن هدفي يختفي في كل مرة أظن فيها أنني حصلت عليه. لا يمكنني البوح لشانير بسرّي وأعتذر له عن كل ما قلت يوم لقائنا الأول، بعد أن جعل مني اختلاف التوقيت والحرارة شخصاً أقل تيقظاً.

كان علي إذاً طمس المعالم، فأجبت:

- تاريخكم معقدٌ، سيدي المؤرّخ.

- ولماذا تنتظر أن يكون بسيطاً؟ لأننا جزيرةٌ صغيرة قليلة السكان.

Twitter: @ketab_n

- ليس هذا ما...

قاطعنا زوجان بمشاعرٍ جياشة من الحب والاحترام، أبدى "الكسندر شانر" تأثراً جلياً ثم تابع من فوره:

- هل تعرف مقدمة "آنا كارينين؟"

أخبرته أنه ليس لدي أدنى فكرة عنها فقال:

- "تجتمع كل العائلات السعيدة بسعادتها أما العائلات البائسة فتتجرع كؤوس البؤس كلٌ بطريقتها". ما يندرج على العائلات يندرج أيضاً على المجموعات البشرية. كنا بائسين وبؤسنا وليدنا نحن، آه، عفواً، شططت بعيداً، دعنا نمرح كالبقية.

عمَّ الصمت بطلبٍ قوي اللهجة، ثم خطب شابٌ حليق الرأس، ما فهمت شيئاً مما قال عدا أنه لا يحب "الأرغن" كبير الحجم، ختم بمشاهد فيلم سريعة ثم أعقبه تصفيقٌ مهذب يُحيي النهاية.

تفككت بعد ذلك الدائرة. تعلّقت بي امرأةٌ في منتصف العمر، بعد أن تجرعت قدح النبيذ الأول وشرعت بالآخر وهي تحاول إقناعي بالشرور التي بصقها ذاك الدنيء نيرون، أمضيت برهةً من الزمن لأدرك أنها لا تقذف انتقادها لإمبراطور روما الذي رمى المسيحيين بين أنياب الليوث بل تقصد زوجها السابق. عبرت بضع شاباتٍ يحملن صوانٍ من حلوى "فرينيات"[1]. دخل شانر بنقاشٍ مع أحد الرسامين ثم عاد إليَّ ليقدمني لضابطٍ فرنسي، المقدم "مايس" بثيابه المدنية، صافحني بحرارة ووضح لي سبب حضوره للمعرض على أنه من هواة التصوير.. لم أكتشف معاني عبارته إلا بعد برهة. تحوم أسئلةٌ شتّى دون إجابة وما توخّيت الحذر. ابتعد شانر يحطُ من لوحة لأخرى. اقتحمت الحوار مع المقدّم وبيدي قدح من الشامبانيا:

---

1 - فرينيات: نوعٌ من الحلوى يصنع غالباً من عجينة اللوز.

Twitter: @ketab_n

- أيها المقدم، هل تهتم بالقضايا الاستخباراتية؟

واجه وقاحتي بدهشة مسرحية:

- أنا؟ يا لهذه الفكرة الغريبة! كلا أبداً!.

لم يكن لدي وقتاً لأهدره سدى، قلت:

- على كل حال، دعنا نقول أنك تعرف أولئك الذين يعنون بالأمر؟ أنا بأمس الحاجة لأتحدث إليهم، لدي أمور هامة هل يمكنك أن توصلني بهم؟

- إنك تثير قلقي.

قاطعنا مجدداً أداءٌ موسيقي هذه المرة، لم يستغل المقدّم المناسبة ليبتعد بل بقي قربي. أنهى نافخ البوق والمطربة تحليقهما الغنائي الحاد، فتابعت حديثي:

- أنا أولي بنجامان توبيا اهتماماً خاصاً. أعلنت فرنسا بعد اغتياله أنها ستقدّم كل العون لمن يعثر على الفاعل. تم إرسال فريق بالتحقيق الجنائي بشكل خاص، أخذت بعض العينات. سجّل كل ذلك في الصحف العائدة لتلك الحقبة ولكن لم يعد يذكر أحدٌ أبداً الأمر فيما بعد.

- إلى ماذا تريد أن تصل؟

- لابد أن التحاليل قد أفضت لنتائج معينة، طبيعة التفجير مثلاً. يمكن من خلالها استنتاج طريقة التذخير والشركاء والشبكات الخارجية، أو تقنية إضرام الحريق، الأدوات العسكرية وإلى أي بلدٍ تعود؟ مواد مشتعلة مسروقة متى وأين؟ تصنيع إرهابي بيد من؟ لابد أن التحقيق الذي أجري خلص لمثل هذه النتائج.

- إن كنت محقاً، ويبدو أنك ملمٌ بتلك الوقائع، وأن هذه المعطيات موجودة حقاً وأنا على علم بها فلماذا أخبرك بها؟

ابتسمت لأبرهن له أن رفضه لم يبثّ الخوف في قلبي.

- يقوم التاريخ على المعرفة وإلى ذلك الحين تنتشر الشائعات.

Twitter: @ketab_n

- يمكن للتاريخ أن ينتظر وكذلك أنت الناطق باسمه. أما الشائعات التي تلت الاغتيال فماذا عساي أقول لك؟ الشائعات هي الشر الأصغر. بالواقع، ربما حصل رجال التحقيق على حقائق وربما تشير تلك الحقائق لمولي العملية في مخيم أو آخر. من الإجرام الإشارة إليهم شعبياً في حين يترقب العالم بأسره تفادي الانفجار. كشف النقاب عنهم في غضون الاضطرابات فيه انحياز وإطلاقٌ لأعمال الثأر ونشر المزيد من الشائعات ومد إصبع الانتقام نحو الهدف...

- لكن الاضطرابات انتهت.

- أتظن أن بلدي الذي يزهو بالأخلاق يمكن أن يتنازل شعبياً عن صانعي الاغتيال؟ وأن يهزَّ كلٌ رأسه ويمضي وكأن شيئاً لم يكن؟ستشلُ المظاهرات بورغ تاباج مع مطلع اليوم التالي لهذه الاعترافات وقبل مضي أسبوع، تخرج الأسلحة من مخابئها وتُغلق الأحياء ويلتهب خط الجبهة، وتُبطل الأحزاب التي وقعت "وقف إطلاق النار" توقيعها الواحدة تلو الأخرى أما قوات الأمم المتحدة الملتزمة في ثكناتها ستنتظر جلسة جديدة في مجلس الأمن يتأخر انعقادها. من التحريض إلى التحذلق تدوِّي أول الأعيرة النارية وصافرة أول سيارة إسعاف مع أوائل الجرحى وطلائع الشهداء...

وفرنسا غير مسؤولة، بعد أن أغرقت البلاد بالعنف ستطعن حقاً كل القوى الموجودة وكل بلدان المنطقة. لا يرغبُ أحدٌ بمتتالية كوارث كهذه. لذلك فإن نتائج التحاليل - إن وجدت ومهما كان مفادها - لم يتم تداولها مع نائب بورغ تاباج وليسوا على مقربةٍ من التداول أيضاً. وحتى بالنسبة لك كائناً من كنت، عد للقائي بعد ثلاثين عاماً وأعدك أن أفكّر بالأمر.

أعطاني ظهره بفسوة وقلت:

انتظر!

Twitter: @ketab_n

تباع المعلومة كسائر البضائع.

(ربما كانت إحدى الجمل المفضلة لدى والدي؟ أو ربما سمعتها لمرة واحدة ولا أدري لماذا حُفرت في ذاكرتي؟ طرقت ذاكرتي بهذه اللحظة لأستسلم لها أمام محاوري).

- لم يكشف موت بنجامان توبيا عن كل أسراره، إن عهدت إليك بكل ما أعرف عن الأمر، هلاّ أجبتني عن أسئلتي؟

لم أفكّر، إن حصلت حقاً على جزءٍ من الحقيقة ماذا لدي بالمقابل؟ حدجني المقدّم بازدراء:

- يبدو أنك لم تفهم أو أنك لا تريد أن تفهم؟ أُغلق هذا الملف، قطعياً. إن كنت تحب بورغ تاباج، تضرَّع للرب أن يبقى مغلقاً.

Twitter: @ketab_n

- ١٤ -

في اليوم التالي، نزلت إلى حي "بولفار" سيراً على الأقدام وصعدت قمة بوت روج، حيث تشغل جبهة "دفاع سكان الجزيرة" مبنىً من المكاتب آيل للانهيار تزرعه المكيفات شديدة القدم. كما يضم المبنى المطبعة الخاصة بالحركة وجمعية النسوة وحركة الشباب ومجموعة الثقافة والهوية بالإضافة لهيئة غامضة لتنفيذ الأهداف رقم II (أي ٢) ومجلس التنفيذ العالمي. استقبلتني شابةٌ مكلفةٌ بالمهام وأكدت لي أن نائبة الرئيس ستستقبلني واصطحبتني إلى مكتبها.

لوسين إليزابيت امرأةٌ قوية، مسنّةٌ حركاتها بطيئة وشعرها الأبيض مربوط عالياً بشكلٍ عشوائي، دعتني للجلوس وقدّمت لي الشاي بالنعناع:

- إذاً، تود أن أكلمك عن بنجامان؟

ما قابلت أحداً حتى الآن ناداه باسمه الأول، لم أميز رفع الكلفة بحديثها عنه بل لعلي سمعته كأمرٍ بديهي.

- كيف تعرفت عليه؟

- إنها حكاية يطول سردها.

أخرجت من أحد دروج مكتبها غليوناً ملأته وأشعلته بتأملٍ، نفخت غيمةً من دخان نحو السقف وفكّرت ملياً بسؤالي.

- كنت في اجتماع النقابة، في سنة... آه يا إلهي، كم كان عمري؟ أربعون عاماً، كنت قد فقدت زوجي الثاني. ذهبت إلى الاجتماع، أصغي دون أن أنبس ببنت شفة. لم يكن هناك كبار القوم، كانت البداية. عندها ترك بنجامان عمله كأمين سر في شركة ملاحة ليتفرّغ للأعمال النقابية. في النهاية، قابلني وسألني من أكون. اهتمَّ لأمري لما يكتنفني

Twitter: @ketab_n

من غموض، رويت له باختصار: زوجي الأول، نشار خشب، كان شاباً وسيماً لكنه رحل بينما كنت أنتظر مولودي الأول. زوجي الثاني، والد ولدي الآخرين سائقٌ لطيفٌ، يدفع أجرة المنزل. في يوم من أيام الجمعة بينما كان يهبط الجبل مع حمولةٍ من الخشب، بتهورٍ مع رفاقه انحرفت الشاحنة عن مسارها وهوت.

قاطعت حديثها وتمالكت نفسها لتقول:

- آه حسناً يا بني، ترغب أن أحدثك عن بنجامان وها أنا أسهب بالحديث عن حياتي.

- تابعي، أرجوك.

عندها، قال لي بنجامان: أترغبين بالعمل معي؟ لم أفهم، فأنا لا أتقن فعل شيء كما قلت له آنذاك. في النقابات الأخرى هناك نساءٌ من أجل الكنس وتحضير وجبات خفيفة مع البيرة. قال لي: أريد أن تهتمي بقطاع الخشب، ليس لدي من يُعنى بالأمر. أجبت: أتهزأ مني. أنا لا أفقه شيئاً بهذا الخصوص.

أصرَّ بلطفٍ بأسلوبه الخاص. ذهبنا معاً، تعلّمنا وتحدثنا مع أعضاء الفريق ومع المتارين والحمالين والميكانيكيين. باختصار، قبلت بعد مضي ساعة، قال لي أنه أخطأ إذ ظن أنني بحاجةٍ ليومٍ أو اثنين.

شرعنا حقاً بالعمل بعد مضي أسبوعين، حدث إضرابٌ في إحدى المناشر، خرجت برفقته ورفقة شابٍ. خاطب الشباب وقدّمني كاختصاصية في القطاع، وأعطاني الحديث، ضحك الجميع: امرأة في نشر الخشب! ضحكت معهم، لم أعلم ما عليّ أن أقول. تعرَّفت على أحد زملاء زوجي الأول، فتلعثمت، ضحكت وبكيت ثم رويت قصة حياتي بما فيها العمل والصبية في المنزل ونشارة الخشب التي تتخلل الشعر والأجرة والمخاطر. أصغوا إليّ، تحدثت وهم أصاخوا السمع. لم أتخيّل أبداً... أنا تحدثت وهم أصاخوا لي السمع.

Twitter: @ketab_n

"استعاد بنجامان مكبّر الصوت، انضم المُضربون وقمنا بإضراب قاسٍ واحتللنا المنشرة، كنت أذهب كل يوم، صدقني لا من أجل تحضير الطعام. تنازل ربّ العمل تقريباً. أظنّ أنها المرّة الأولى التي رأينا فيها اسم نقابتنا في الصحيفة.

ترى هل ستوصلني لمعرفة حقيقة بنجامان توبيا؟

"كان هناك حركاتٌ أخرى، ذهبت ورأيت وتحاورت وتعلّمت. تدور دائماً ذات الأسئلة في حلقةٍ مفرغة: العلاوات وزي العمل والتأمين والساعات الإضافية والتدريب. لابد أن تصبح ماكراً على مرّ الزمن وتتقن كل الحيل. تحدثت بالأمر مع بنجامان وأمضينا عدة أمسيات بالنقاش والتخيّل.. قلت له: بنجامان عد لمنزلك زوجتك بانتظارك، إلا أنه كان يحب النقاش معي. كان هناك فتيانٌ أشدّاء في نقابة الملاحين أو في البلدية أو في نقابة الحافلات. كان هناك شاب يدعى فيليكس هنريت خلفه في نقابة العمال. إلا أنه كان يأتي إلى المنزل ونتحدث. قررنا في المطبخ القاعدة المتعلقة بالكحول.

- أي قاعدة؟

- ظهورك ثملاً أمام العامة سيمنعك من ممارسة مسؤولياتك في النقابة لعامين.

فاجئ هذا النظام الجميع، ظنّوا في البدء أنه نوعٌ من التباهي. أخرجنا مندوبين ولكن الضجيج تلا إخراج رئيس النقابة في المستشفى. لم يوافق الأغلبية، لكن بنجامان قاوم قائلاً: إن لم يُطبّق النظام سأغادر. كان على استعداد لفعل ذلك. قال لي: أتظنين أنني محقّ، لوسين؟ شجعته على المقاومة والتشبّث برأيه، بسبب والد أطفالي الذي لم يكن عليه قيادة الشاحنة تلك الليلة. تمسّك بموقفه. غادرنا بعض الأعضاء، خضع البقية لإرادته دون علمٍ بالخطوة التالية مما أعطانا قوةً خارقة...

Twitter: @ketab_n

بعد النقابة، هناك السياسة. هنا أيضاً لم أرغب الاقتحام. عددنا كبر وصار من بيننا أشخاصٌ أصغر سناً وأفضل تأهيلاً، أما أنا فلم أكن أتقن قراءة ملف. أصرَّ بنجامان قائلاً: لوسين ليس لدي شخصٌ آخر. يا للإطراء!

أصبح أبنائي أكبر سناً، ظننت أنهم سيفخرون بوالدتهم فقبلت اقتحام معترك السياسة. كنت الاسم الثاني في قائمة المرشحين الثلاثة. لوسين إليزابيت في المجلس، سخر البعض وعلّقوا أنني لست بالمستوى المطلوب، لا يهم. كان سكان الجزيرة سعداء وترددت شائعة أنني عشيقته..

- ما كانت ردّة فعله؟

- قلق من أجلي مع أنني وحيدة! هو متزوج ولديه الكثير ليخسره. أضحكنا الأمر في سرّنا. قررنا ألا ننتهك حرمة الحياة الخاصة لخصومنا أبداً. لن يصدر عنّا أي تعليق أو تلميح يخصُّ الحياة الشخصية حول العشيقات أو ديون اللعب. في المقابل كنّا شرسين فيما يتعلق بالعمل: إهمال بدفع الضرائب، المجاملة بالتوظيف والخطط الصغيرة...

عاد الشباب يعانق وجهها الهرم لدى استحضارها تلك الذكريات الفائتة.

- هل كنت أول امرأة في المجلس.

- كلا كان هناك مرشحتين، إحداهن أرملة والأخرى ابنة سلف معتبرين تم انتخابهما وفقاً لأسماء عائلتهما وتابعتا المهمة المناطة بالعائلة...كما كان سلوكهما معي لائقاً وتسديان لي النصح.

- وكيف تم تكليفك الأولى؟

- عملت ما بوسعي، أتدخل ما أمكنني ولكن امرأة دون مجموعة سياسية ودون خبرة، في عملٍ ومهام أمام أبوابٍ موصدة. تمكنت من إقحام فكرةٍ أو فكرتين، استقبلت الكثير من الزيارات وتعلّمت الكثير.

Twitter: @ketab_n

"تم انتخابي فيما بعد لخمس سنوات. لم تعد ثلاثة وإنما سبعة. اعتمدنا.

اقترحوا لي أن أشغل مراكز "العائلة" أو "الصحة"، قطاعات تليق بالمرأة... تحدثت أنا وبنجامان. رفضت وطالبت بالزراعة والغابات، بيد أنني لم أحصل عليها. رفض بنجامان أي منصب إن لم أحصل على ما يناسبني. فوجدت نفسي رئيسة مصلحة الغابات. طلب كل أرباب المناشر الذين لم أقابلهم منذ خمسة عشر عاماً في الاضرابات والمناقشات مقابلتي لطلب قطع الأخشاب ولدعوتي إلى المطعم...

أنا، أذهب لتناول الطعام معهم! وضعت نظاماً ومنعت التدابير الصغيرة والهدايا الصغيرة، حددت قواعد.

أول تحفظٍ طبيعي خلف التاج كان أنا.

كنت نائبة الرئيس الرابعة في المجلس. أخبرني الرئيس منذ البداية أنه لم يستطع منع انتخابي إلا أنه تدبّر أموره مع بقية نائبيه بألا يتركوا لي المنبر يوماً. ما عدا مرة واحدة حيث تأخر أحدهم كثيراً عن الموعد. حسب النظام، اعتليت المنبر لأنني كنت هناك. جلست لوسين اليزابيت هناك في الأعلى! شعرت للحظة بالحبور. رحب بي رئيس اللجنة المالية وحيّا ثوبي الجميل، عندما افتتحت الجلسة رحّبت به وحييت بزته الأنيقة، مما أثار الضحك في أرجاء القاعة، المسكين قضى حتفه خلال الاضطرابات. نعم لقد ترأست المجلس لمرة واحدة.

استقال بنجامان بعد مضي عامين والجميع استقال وتركوا لشؤونهم. لاحقاً، تفاقم الوضع. شتائم وتهديدات. أطفالٌ مذعورون. الصحف. القناة الإيطالية التي أعطت الحديث للوسين إليزابيت! داعب الأمل الناس، ثم اطلقت الاعتصامات، الشرطة، أُغلق الميناء وأعيد فتحه ثم أعيد إغلاقه. استشاط الشبّان غضباً ثم وجب تهدئتهم.

Twitter: @ketab_n

لاحقاً، في صباح أحد الأيام، كلمتني هنريت وصوتها يغصُّ بالدموع، قنبلة تحت سيارة بنجامان أودت بحياته وحياة السائق الذي يرافقه.

كلما مضت بحديثها غوصاً في الزمن، كلما غار صوتها في الهدوء حتى كاد يغيب خلف قرقرة المكيّف. تأملتْ غليونها وشرعت بالتدخين. لم أتفوّه بكلمة، نسيت أن أدوّن ملاحظاتي وأتصرّف كصحفي.

تابعت: "قضيا بهذه الضربة. بنجامان وشاب يناهز الخامسة والعشرين عاماً. بعد برهة من الزمن، اندلعت الاضطرابات، والآن يجب خياطة كل ذلك وكأنه غطاء مُرقَّع".

- أمازلتِ في المجلس؟

- كلا، هرمت وتعبت. لست مريضة بيد أني ما عدت أرغب. أتفهم؟

سئمت نعم سئمت.

- ألم تمارسي أي وظيفة رسمية؟

- أنا عضوة في مجلسٍ خاص بقي لي عامين. وددت أن أرفض وقابلت نائب الملك في مكتبه الضخم وبعد ساعتين من النقاش تمكن من ثني عزيمتي: في المجلس الخاص، الجلسات ليست عامة، كنّا نفكّر بالمستقبل وكم أحببت هذه الحرية. نصغي لبعضنا البعض ونتفق معاً بسهولة أكبر، نتبادل الاحترام. أنا السيدة الوحيدة بينهم إلا أنني هرمةٌ لا أنفع لشيء وشغل الشباب المكان.

استعذبت لهجة بورغ تاباج بصوتها المرنان، فُتنت بسحر هذه السيدة العجوز وحركاتها التي تعاني اعتلال المفاصل. سألت:

- بفضلك، استعاد سكان الجزيرة مكانتهم.

- بفضلي؟ لا، لا يمكنك قول ذلك. كنّا عديدون.

- عدد كبير وخاصة من النساء، هذا طريف.

- كنا حقاً بالمقدمة، تلك رغبة بنجامان وكان محقاً.

- لماذا، برأيك، أصرَّ على دور المرأة إلى هذا الحد؟

Twitter: @ketab_n

- لأن نسب سكان الجزيرة يعود للنساء.

تذكرت هذه الملاحظة التي أخبرني بها شانر فاخترت مفارقةً نقدية بسيطة.

- لماذا يجب أن تكون الأم من سكان الجزيرة للحصول على هذا النسب؟

يبدو أنها شرحت مئات المرات هذه النقطة إذ أجابت دون أن تأخذ موقع الدفاع:

- لأن الأمر هكذا. هذا العرف. هذا ما سبق وأخبرتني به والدتي وجدتي. الرجال حسناً لاحقاً. وحدهنّ النساء الذين يعطين نسب سكان الجزيرة. نساؤنا كنزنا. هكذا، بما يشابه التقليد اليهودي كما قال بنجامان. لا أعلم. نريد أن نبقى على ما نحن عليه عبر النسوة. لا يهم إن كان الأب من سكان الجزيرة، المهم أن تكون الأم منهم حتى نحصل على النسب مهما كان نسب الأب.

- وهل يحصل على حقوق خاصة؟

- نعم. لو لو يكن الأمر كذلك فما الفائدة التي نجنيها من هذا التمييز؟ اسمع، ابني الأصغر يدرس في هوستون وتربطه بأميركية علاقةٌ وطيدة، لو قرر أن يعيش معها ورزقوا بأبناء لن يكونوا من "سكان الجزيرة". أتظن أن حبهم في قلبي أقل من حبّي لابن ابنتي؟ لو اضطر الأمر، أذهب إلى الولايات المتحدة لرؤية الطفل، إلا أنه لن يكون من سكان الجزيرة.

أعجز عن اقتحام هذا المنطق، شيء ما داخلي يرفضه. بالوقت نفسه بأي صفة أعارض الأمر ومن أنا حتى يكون لي رأي؟ أصغيت للمزيد:

"هل لاحظت أسماء عائلات سكان الجزيرة: عائلة أليزابيت، عائلة جوليت، عائلة الكسندرين، عائلة هونورين وفيرونيك وآنيس.. جميعها بالأصل أسماء نساء، كلها.

Twitter: @ketab_n

حين توجب اختيار اسم عائلة، منذ عقدٍ ونصف تقريباً، اختار القدماء بشكل طبيعي اسم أمهاتهن. لم يبتدع بنجامان شيئاً بل انضم لتقاليدنا. لطالما قال: أنا محافظ ولست بثائر فأنا أستوحي من...

كانت تتحدث وعيناها مغمضتان تقريباً ولم تكن تنظر إليّ حقاً. لعلها ترى في مخاطباً آخر، طيفاً، ظلّ صديق؟

- "أعرف نساء" من سكان الجزيرة اقترنّ برجالٍ من الصين ومن سوريا، حمل أبناءهن أسماء صينية أو سورية، يأمُ أبناءهن الباغود[1] أو الجامع. لا يهم، إنهم من سكان الجزيرة كوالدتهم. نساؤنا كنزنا هنّ من يصنعن بلدنا".

وهبتني بصوتها الناعم الجهوري شعارات حملات أرفض أن تأسرني.

- أخبرتني أن بنجامان كان متزوجاً، أمازالت زوجته على قيد الحياة؟

- نعم عانت آن كثيراً، زوجٌ مهددٌ دائماً ثم تم اغتياله.

- هل هي من سكان الجزيرة؟

- نعم.

- هل يمكنني أن أتحدث إليها؟

- كلا، لطالما رفضت. آثرت أن تبقى في منأى عن السياسة. شغلت وقتها بابنيها.

- هل لديهما أبناء؟ ماذا يعملان؟

- لويز ومالكولم. إنهما بخير. أنا عرّابة مالكولم.

- هل يمكنني أن ألتقي بهم؟

- كلا. والدتهما لا ترغب بذلك، كما وعدنا بأن نقدّم لها العون مهما كان خيارها. عمر لويز عشرين عاماً ومالكولم ستة عشر، ومن حقهما أن يعيشا حياتهما كما ينبغي.

---

1 - الباغود: معبد أو هيكل صيني.

Twitter: @ketab_n

- هل يعيشان في بورغ تاباج؟

- بهذا العمر، يمضون وقتهما بالدراسة، هنا أو هناك...

- ألا يهتمّا بالسياسة؟

- كلا، يا بني، لن تجرّني إلى هذا الميدان. دع الصغيران وشأنهما.

اقترن روبرت توبيا بإحدى سكان الجزيرة ودفع الثمن الاجتماعي حسب عرف وعادات مجتمعه. كما تزوج بنجامان توبيا، ابن توماس كولبيرت وارنيستين جوليت، من إحدى سكان الجزيرة. ينحدر أبناءهما جوليت ومالكولم إذاً من ثلاثة أسلافٍ ذوي نسبٍ يعود للجزيرة. ينقص الربع سواء كان الاسم توبيا أو كولبيرت لا يهم.

يعنيني هؤلاء الشابان دون أن أفهم تماماً ما السبب. لجأت لأسلوب آخر.

- هل كان بنجامان توبيا يعتني كثيراً بهما؟

- عندما تعرّفت عليه، كانت لويز تخطو خطاها الأولى وهو كان يخطو أول خطوة في النقابة. لم يكن بحوزته هو وآن الكثير من النقود. كان يلعب مع لويز ويصطحبها إلى البحر ويتنزه معها في "البولفارد". لدى ولادة "مالكولم"، أمضى طيلة الأمسيات بالعمل. كان يسعى أن يعود إلى المنزل نهاراً ليلاعب الصغير. لطالما أسف أنه ما تمكن من مداعبة طفولته أكثر مما أمكن.

- والسياسة؟

- قال إنهما سيختارا طريقهما بمفردهما فيما بعد. عندما قبل مالكولم عامه الثامن، اصطحبه إلى المجلس كما يصطحب النجار ابنه إلى ورشته. حضر الصغير جلسةً كالمعتاد جلسةً صاخبةً عنيفةً فراعه أن رأى والده وعرّابته مع كل هؤلاء الأشرار.

أسف بنجامان أن فرض عليه هذه الجلسة.

ترددت للحظة قبل أن ألحّ بالسؤال:

Twitter: @ketab_n

- هل لديك صورة لهما؟

أخرجت إطار صور من أحد الدروج وناولتني إياه. صورة مراهقين محياهما وقورٌ، ترتدي لويس فستاناً مزركشاً بالأزهار وتبتسم بتصنّع. مالكولم، طويل القامة قوي البنية بالنسبة لمن في عمره، يرتدي زيّاً رياضياً وتبدو القوة على ملامحه. حطَّ ذراعه خلف كتف أخته نوعاً من الحماية لا الحنان. خلفهما حديقة عامة ومسطحٌ مائي لعلّه بحيرة أو بحر. أشجار نخيل وفيلا.

- هل التقطت الصورة هنا؟

- لن أقول لك.

- هل يمكنني أن أنسخ عنها؟

- كلا.

كيف سيكون شباب هؤلاء المراهقين؟ عليّ أن أداري عنهما حقيقة مولد والدهما، فهو عبءٌ لا جدوى منه لهؤلاء اليتيمين. استحضرت الدكتور غرامون بسخطٍ وتذكرت تلك الأسرار الدفينة.

تعرف لوسين إليزابيث بنجامان توبيا أفضل بكثير مما قد أعرف عنه طيلة حياتي.

إنها لا تدري شيئاً عن كانون الثاني من عام ١٩٤٩ ولا عن الأكاليل الثلاثة التي اشترى بها صمتاً أبدياً سواء أحصل عليها بحقٍّ أو بسرقة. لا يحق لي أن أهشّم هذا الصمت الأبدي.

في تلك اللحظة، لم أكن قد أدركت بعد حجم ما علمت بل لزمني عدة أيامٍ أخرى.

تجسد أمام ناظري أمرٌ بديهي، حقيقةٌ ارتعدت فرائصي بذكر جملتها، لم يعرفها أحدٌ بعد لا في بورغ تاباج ولا في نيويورك.

بوحٌ كهذا سيكون كحجرٍ يسقط في بركةٍ ليشكّل سقوطه دوائر مركزية تتردد بآلاف الاتجاهات التي لا يمكن حصرها. غير البحث الذي

Twitter: @ketab_n

كلفتني به هيلين كولبيرت مفاهيم عدة: لويز ومالكولم هما أحفاد توماس كولبيرت.

أعدت لها إطار الصور لتخبئه مجدداً في درجها. فوجئت بسؤالها:

- ألديك أطفالٌ يا بني؟

وهل هذا مهم إلى هذه الدرجة؟ سألني الدكتور غرامون السؤال نفسه.

- أوه.. كلا، ليس بعد.

- هناك أشياء يصعب عليك فهمها. أترى أسئلتك عن نساء الجزيرة وأبناء بنجامان، لعلي كنت لأجيب بشكلٍ مغاير لأبٍ أو لامرأة.

عادت لنفخ غليونها، لا يبدو أنها تنوي السخرية.

- إلى هذا الحد، يغير الأمور؟

- نعم. كما قلت، هذا يغير الأمور، إلى هذا الحد بل لأبعد من ذلك. إن له وزناً. إنك شاب لطيف، هيأت كل شيء بشكلٍ جيد ولكن ينقصك بعضاً من القسوة، ينقصك أن تنضم لسلسلة والديك من طرف وأبناؤك من الطرف الآخر وأنت في الوسط، متوازنٌ وثابتٌ. متوازن بين ما جاء قبلك وما سيأتي بعدك. أنت الآن تطفو خفيفاً لا ترتبط بشيء، إنك من دون أبناء تمثل لوالديك غصناً ميتاً، خفيفاً ولكن ميت.

ماذا كتب روبرت توبيا في لحظة من الشك؟ "موت والدي جعلني رجلاً على حافة الهاوية. كم معنى تحصر هذه الكلمات المخربشة على دفتر مذكرات هاربة من شطوب الصفحة كلها ومصنفة في ملف العائلة؟

أجبت بسرعة وتهوّر لأبدي أنني ما أدركت الرسالة الموجهة:

- مهما يكن، لم يعد هنا قرب والدتك. ما يهم هي السلسلة لا حياة كل فرد. قدما لك الدعم وحملاك. ستعطي معنىً أكبر لحياتهما كزوجين يوم ترزق بطفل، ليس لديك طفل الآن لن تدرك المعنى. تصبح رجلاً كاملاً وامرأة كاملة حين ترزق بطفلٍ من صلبك ويبكي بين

Twitter: @ketab_n

أحضانك. أترى. تركني أول رجل في حياتي عندما علم أنني سأرزق بطفلٍ. عاد بعد مضي خمسة عشر عاماً ليقابلني في المجلس دون سابق إنذار. طردته، أظن أنهم سمعوا صراخي في قاعة الاجتماعات. لم يكن موجوداً.

أدركت حين اطلعت على هذه المفاهيم السائدة في بورغ تاباج، كم كان عقم روبرت توبيا لعنةً عليه.. لو كانت إرنستين جوليت تشاركهم بهذه النظرة للعالم فكيف فهمت مشهد كانون الثاني ١٩٤٩؟

وكيف كانت لتصفه لو أنها هي من حررت هذا النص؟.

"أفهمت لماذا يعود نسب الجزيرة لمن يولد من أمٍ من هذه الجزيرة؟ لأننا نشكّل سلسلةً من الأجيال. نساء وفتيات وحفيدات مع الرجال الذين يرافقوهن، نساؤنا كنزنا، إنهن زردات السلسلة، وسلسلة الأجيال هذه يجب أن تستمر، عبر النساء."

فقدت السيطرة تماماً على الحوار بل ولم أعد أعرف ما السؤال الذي جئت به إلى هذه العرّافة المتغضّنة.

"في فرنسا، حين ترى سيدةٍ أن ابنتها تنتظر مولوداً، تتظارف وتظهر أسفاً وتقول إنها لا ترغب أن تصبح جدة بهذه السرعة ظنّاً منها أن هذا يجعلها هرمة. أما هنا فحين تصبح السيدة جدةً لحفيدة، تجري التقاليد بإقامة حفل استقبال تدعو إليه أفراد العائلة والأصدقاء".

- للاحتفال بالمولودة الجديدة؟

- نعم ولكن الجدة هي من تقيم الحفل لا الأم. فهي تترأس مع ابنتها وحفيدتها، وتفتتح المائدة بهذه الجملة حسب العرف، صرخة فخر: ثمرتي خصبة.

لدى ولادة لويز، قامت والدة زوجة بنجامان بذلك وأطلقت هذه الصرخة أمام ابنتها وبنجامان والمدعوين. وهكذا فعلت أنا لدى ولادة

Twitter: @ketab_n

كلير من ابنتي البكر. أفهمت يا بني؟ يتعذر عليك فهم ذلك فليس لديك أطفال.

في عالمها ترابط يفرض نفسه وأنا لست فيه سوى مجرد شائبة، غمغمت لأقول:

- دعينا مني ولنعد لبنجامان توبيا، لو سمحت.

كان ذلك التماسٌ حقيقي، سألت:

- أترغب بمزيد من الشاي؟

- كلا.

- ماذا ترغب أن تعرف أيضاً؟

- حدثتني عن زوجته بعض الشيء، هل تعرفت على والدته؟

- إرنستين. قليلاً، كان عمرها يناهز الستة والستين عاماً، تعيش مع ابنها وزوجته، صحتها ضعيفة، كانت تمد يد العون حسب طاقتها، تجالس لويز ومالكولم، تأخذهما في نزهة. لم تكن توافق بنجامان في أعماله إلا أنها ما أظهرت ذلك أبداً، كما أنها افتخرت بانتخابه للمرة الأولى. من حسن حظها أن وافتها المنية قبله. احتفظت حتى النهاية بتلك الهيئة والأناقة... في شبابها كانت إحدى أجمل نساء المستعمرة حتى أنني أعتقد أن هناك بطاقة بريدية تصوّرها في الزي الفلكلوري، قبل زواجها.

أصغيت لفيض ذكرياتها مأسوراً بالسحر. للوهلة الأولى، لم تكن لتلفت النظر لا بجمالها ولا بذكائها ولا بثقافتها لكن تسلَّط نور الغرفة بأسرها على وجهها وبدت لي أجوبتها موصومةً بحكمةٍ ضاربةٍ بالعمق، حكمة يعجز اللسان عن وصفها. منذ عشرين عاماً خلت خطبت بالعمال في الإضراب، لابد أنها كانت رهيبة. لم يخطئ بنجامان توبيا باختيارها.

تجرأت على طرح سؤالٍ تحفظت عليه حتى الآن:

Twitter: @ketab_n

- بنجامان ابن برجوازي ثري، ألبيرت توبيا، ترعرع في فيلا رايموند ما بين الأعمال الفنية ولعب في حديقة منظمة... ألم تطرح في وجهه هذه الطفولة الذهبية مشاكلاً لمخاطبة الشعب؟

- كلا.

- ألم يتحدث أبداً عن الأمر؟

- كلا، لم يكن في بنجامان خصال شاب من الطبقة الراقية، بدأ مسيرته كعاملٍ صغير في مكتب، عندما انكب على الأعمال النقابية، كان يعيش مع زوجته ووالدته في شقة بائسة قرب الكتدرائية.

- قرأت في الصحف، تلميحٌ أو تلميحان ساخران...

ابتسمت لذكرى مواجهات الماضي.

- كم حاولوا حصره في هذه الفكرة: ابن الأحياء الراقية.. لكن ذلك لم يجدِ نفعاً، لم ينخدع أحدٌ بهذا. ما الفائدة التي جناها أن والده كان يمتلك عدة شركات ويوظف عشرات العملات؟ لم يكن والده من يدير النقابة. لدى وفاة والده ما كان قد تجاوز أعوامه العشرة بعد. غادر مع والدته فيلا رايموند نحو المدينة المنخفضة. والدته إيرنستين جوليت.. عائلةٌ كبيرةٌ جداً، عائلة جوليت، كثيرة العدد، نعرفهم جميعاً، بالنسبة لنا بنجامان هو ابن ايرنستين.

لم يعد ظل روبرت توبيا يلوح في أنظار أقاربه أو شركاءه ولا حتى خصومه، إذ وافته المنية منذ أربعين عاماً خلت، اختفى ذاك الرجل الذي تحرَّق شوقاً لابنٍ له كما اختفى ذاك البحّار الذي قدّم له خدماته. يرسم اسم العائلة فقط النسب بينهما، لابد أن بنجامان يجهل أن اسم عائلة "توبيا" اختلق بقطعٍ ذهبية ليد ألبيرتو بياسي لدى وصوله الجزيرة. يجهل الجميع غياب رابط الدم ما بين "ألبيرت وروبرت" وما بين بنجامان ومالكولم ولويز. الإرث الوحيد الذي لقيه بنجامان من والده المفلس هو هذه "الكنية" والتي لا تعود حقاً لوالده. آه، أصابني

Twitter: @ketab_n

الدوار! لن أعرف أبداً ما علم بنجامان حول هذا الأمر بوعي أو بذاك اليقين الهادئ الذي يبديه الأبناء لدى كشفهم لأسرار عائلية دفينة.

(كما اكتشفت أنني لا أعرف كل شيء عن وفاة والدي. الكلمات المنتقاة لمواساتنا برحيله والخطاب في الكنيسة والإعلان المطبوع لإحياء ذكرى عامٍ من وفاته لم تكن تناسب إحياء ذكرى تاجر مفروشات وأنوار ذهب ضحية حادث سير غبي بل يلائم محارب أو بطل سقط في ساحة القتال ليغمد نعشه بعلم البلاد. هل توجب أن آتي إلى بورغ تاباج وأصغي للوسين اليزابيث لألاحظ هذا الوجه الآخر الذي طالما أخفاه عني الجميع في صغر سني لحمايتي.

ما المصير الذي تلقّاه والدي؟

ليست الحياة مجموع الخيارات التي أخذناها وحسب بل هي أيضاً هذا المجموع مضروباً بنظرة الناس ومقسماً على عامل القدر الذي لا يهرم).

- هاك، سأدعك ترى مكتبه، مكتب بنجامان. هلاّ ناولتني عكازي.

أشارت بذقنها لعكاز جميل تعلوه كرة منحوتة مزينٌ بصفيحةٍ صغيرة منقوشة:

- بعد عشرين عاماً في نقابة الأخشاب، عندما تنتهي يقدمون لك هدية..

ناولتها إياه، تعكزت عليه لتقف بصعوبة وتصل إلى الباب.

- سأصطحبك إلى طرف الممر.

أرغمت خطواتها البطيئة كل المحاربين الذين صادفتهم على الالتصاق بالجدران لئلا يزعجوها، وهي قبلت ابتعادهم عن طريقها كتبجيلٍ واجب لها وألقت التحية على الواحد تلو الآخر بأسمائهم كتشجيعٍ لهم.

Twitter: @ketab_n

فتحت باباً مازال اسم الأمين العام المرحوم محفوراً عليه. تشغل طاولة مهندسٍ معماري نهاية القاعة مغطاة بالوثائق المبعثرة وتعجُّ الغرفة بالكراسي والخزن. وجدت على مفكرة تعود لعام ١٩٩٩ مفتوحة عند صفحة ٥ أيلول. أكوامٌ من الملفات مطروحة على الأرض وعلى منضدةٍ ذات قدمٍ واحدة وعلى صوانٍ ذي أدراج. لا شيء شخصي إعلانات مؤتمرات قديمة للنقابة ولجبهة دفاع سكان الجزيرة، بالإضافة لإعلانٍ كبير عن انتخابات عام ١٩٩٧ مع ذاك الشعار البسيط حيث مُيّزت الحروف الأولى من عبارة: "بنجامان توبيا في سبيل بورغ تاباج". علّقت السيدة على هذه الزيارة بحنين:

- عندما كان بنجامان على قيد الحياة، صدقني، كان هذا المكتب يعجُّ بالناس. يقرأ ويعمل ويجري اتصالاته ويستقبل أناس كل ذلك بآن واحد، كان بوسعه فعل ذلك وكم ترك انطباعاً في نفوس الآخرين.

- ومنذ ذلك الحين؟

- في البدء، توافد رجال الشرطة من أجل التحقيق. الشرطة في مقراتنا... لابد من شرح السبب، تأملوا وفحصوا كل شيء وما عثروا على شيء. لم يكن منفذي العملية هواة.

- هل لديكم فكرة من كان الفاعل؟

- كلا، لم يكشف الفاعل أبداً، أعتقد أن الشرطة قامت بعملها بشكل جيد كما أنها طلبت العون من باريس وما من نتيجة تذكر. وبشكل طبيعي توقف التحقيق مع اندلاع الاضطرابات.

- والآن صارت هذه الغرفة شيئاً ما يشبه المتحف؟

- كلا، ولكن وبكل بساطة رفض الجميع الدخول إليها.

- ألم يتغير شيء منذ وفاة...؟

- لا شيء. سيأتي يوم ويعمُّ الترتيب هنا ويُرمى هذا الأثاث القديم وتُطلى من جديد.

Twitter: @ketab_n

- لكن ذاك اليوم يعني أنه صار طي النسيان؟

راودني للتو شعورٌ بأنني تفوهت مرةً أخرى بحماقةٍ وأنني لست بمقام هذه السيدة العجوز اللاهثة ولست جديراً بأسزارها وذكرياتها.

لطفاً منها أجابت على هذه الترهة بطرفةٍ:

- هذا سيعني أننا حصلنا على تأميناتٍ لترميم المكاتب. كان بنجامان يصغي كثيراً ويسعى لكي يتفق الجميع، حديثه يضاهي حديثنا كلنا، وكان يتقن الكلام في المجلس بيد أنه كان يقول أنه مجرد ناطق بأصواتنا، لابد من وجود نجمٍ ساطعٍ في الاجتماعات ومع الصحفيين فأرغم على لعب هذا الدور.ثم تراه هنا في حواراتٍ مع الفريق لتنظيم العمل أو في مطبخي لاحتساء القهوة.

انبثق صوتٌ قوي من عمق الممر: "لوسين!".

برطمت بكلماتٍ مجهولة. أقبل رجلٌ بدينٌ يناهز الخمسين عاماً وقبَّلها بحميمية واضحة، إلا أنها بدت أقل حميمية تجاهه.

- "لوسين، نكاد نبدأ المناقشات حول منشرة وادي "هاردينغ"، قلتِ أنك ترغبين حضورها".

لاحظ وجودي الغامض ولم يبدُ راغباً بإلقاء التحية. أجابت بتنهيدةٍ مبالغٍ بها:

- سأنهي حديثي مع هذا الصحفي، فلتبدؤوا من دوني، سأنضم إليكم لاحقاً.

رافقتها على طول الممر بإيقاع خطاها، أمسكت بذراعي بيدها الأخرى بلا تكلّف - كما فعل الدكتور غراموند الشهر المنصرم لكنني شعرت هنا أنه امتياز - وسرنا نحو قاعة الاجتماعات. تدافعت عدة انطباعاتٍ في رأسي وما عرفت ماذا أقول لأنهي الحوار بحماسة. كنت ضائعاً.

Twitter: @ketab_n

وهبتني وقتها وذكرياتها وما كان بوسعي أن أبادلها بمقابلٍ. بهذه اللحظة، فكرت أن أروي للوسين إليزابيت كل شيء: النص الذي حرّره توماس كولبيرت والأكاليل الذهبية الثلاثة وسر ولادة بنجامان توبيا. لكنهم بانتظارها كما أن تلك الصفحات الثلاث ليست معي لتكون نقطة انطلاقٍ ممكنة زد على أن الارتجال يرعبني.

التزمت الصمت عند الباب ثم قبّلت لوسين إليزابيث. لم تستجب مع هذا الاندفاع العفوي ولم تعارضه لا يمكنني الجزم إن كانت قد تفاجأت، تظاهرت بأنها تدخل ثم عدلت عن رأيها وبحركةٍ مدروسة كلّفتها جهداً عضلياً استدارت نحوي وتشبثت بساعدي لتنزلق يدها ببطء نحو مرفقي ومعصمي ثم يدي وأناملي. سرت الرعشة في جسدي بمداعبة الوداع هذه.

قالت بالنهاية بصوتٍ قوي منفعل:

"يا بني، حين تحرر مقالك أرجو ألا تذكر أخي الصغير بسوء".

هذه ملكة مأساةٍ. تخطت العتبة متكئةً على عكازها واختفت.

Twitter: @ketab_n

أعود لنص توماس كولبيرت ولمثليه في لحظات الشك.

ارتقيت من روبرت توبيا حتى "بيلو راغازو كروات" ألبيرتو بياسي، قررت أن أذهب أبعد نحو الأعلى إلى "لودويغ فون ستودير" بين يدي من أمسك القطع الذهبية. أستعيد تفكيراً منظماً وأفتح كتباً قديمة وأطيل عند الملاحظات أسفل الصفحة، أحل طلاسم بعض الإشارات: بعد كل هذا، هي مهنتي الحالية ومن أجل ذلك قبضت مالاً.

أمضيت يوماً طويلاً أتحرى عن آخر مالك للأكاليل الثلاثة التي أشار إليها الأستاذ "برونفمان". بعد أن حصلت على بعض الإيماءات وتبعت الكثير من الإشارات الخاطئة، اكتشفت اتصالاً مع حوار حول الأوهام الثورية، جرى في بروكسل عام ١٩٦٧ ويمكنني قراءة أفعاله على الشاشة.

يُعنى هذا الطالب اللامع المولَّع بالعدالة الاجتماعية بشروط عمل العمال وبالحركات التقدمية وبالأولوية العالمية. لابد أنه التقى بفريدريك انجلس، لكن الماركسية لم تذكره. قاده تفكيره لدربٍ موازٍ يؤدي إلى المجتمع الكامل. نشر وهو في الرابعة والعشرين دراسة صغيرة: "في الإرث عبودية".

نادى "لودويغ فون ستودير" بإلغاء الإرث لضمان سعادة البشرية من دون عنف وعبر جيلٍ واحد، وهكذا نتوصل بعذوبة للشيوعية العالمية. تضمن الدولة، بوصفها الوصي العالمي الإجباري لكل مواطن، بتربية الأطفال وضمان مكانتهم في الحياة. تخيّل بدقة مرحلة الانتقال خلال عشرين عاماً حيث يتكاتف "رجالٌ جدد" لا إرث لهم مع "رجالٍ قدماء" بقصورهم ومعاملهم ومجوهراتهم. تتفحص تطورات مبتكرة مشاركة هذه الثورة في تمويل الاقتصاد والضرائب ومفهوم قيمة المصالح والادخار...

Twitter: @ketab_n

لو عُرفت هذه النظريات وتردّد صداها في وقتها لما حاز لينين ولا هتلر على مكانٍ لهما في تاريخ البشرية.

اكتشف كارل فريدريك فون ستودير نظريات ابنه، راعه الأمر فاحتجزه في مأوى للمعوقين في بوميراني.

بعد عامين، خضع فيهما للعلاج، لم يعد للودويغ أفكارٌ ثورية، مع بزوغ بوادر شفاءه الكامل، حصل كارل فريدريك فون ستودير على امتيازٍ في بوناب في ميكرونيزي من وزير البحرية الامبراطوري، أعطى لابنه رأسمالٍ صغير من ضمنه القطع الذهبية وعهد به لقسٍ استعاد مهمته. أبحرا إلى قدرهما الجديد من تريست. قضى لودويغ غرقاً عام ١٨٩٥ واستحوذ البحار ألبيرتو بياسي على القطع.

منحت نفسي استراحة ليومي السبت والأحد وبدأت بنزهة طويلة في الداخل. اشتريت حذاءً جديداً وخارطة وثياباً وحقيبة ظهرٍ كبيرة وطعام. غادرت صباح يوم السبت. يحاذي درب الشمال البحر بمسافة صغيرة ثم يلف بعد ثلاثين كيلومتراً نحو الداخل باتجاه الجبال. وصلت إلى قريةٍ غافية احتسيت فنجان قهوة في "بقالية - بار - محطة خدمات" مقفرة ثم هناك كفر ثم ثلاثة منازل، تحوّل الطريق لدربٍ كثير الحفر، تابعت السير حتى تبعت. تخزن مناشر الجبال أدواتها عند ناصية الدرب ، في نهايته ثلاث شاحنات عسكرية وخيام منصوبة. يمضي جنودٌ بقبعات زرق - يبدو أنهم أندونيسيون - يومي استراحة ولا يرغبون على ما يبدو الابتعاد كثيراً عن مواقعهم. ألقيت عليهم التحية وسلكت الدرب المشار إليه بالأسهم عبر الغابة الساكنة، يعبر أول قمة جبل ثم يهبط عمودياً إلى وادٍ منخفض في أحضان نباتات وارفة الخضرة. بالكاد تفسح الجذوع المغطاة بالسحلبية والطحالب المتعايشة مجالاً للعبور. يملأ خفقان أجنحة طيور الدُرَّة[1] الأصقاع وهي تحلّق بسرعة بزقزقةٍ تطرب لها

---

١ - الدُرَّة: أنثى الببغاء.

Twitter: @ketab_n

الآذان. فيما بعد، كان يجب ارتقاء الوادي حتى بدايته عبر امتداد سهلٍ. جلست لأحظى بغداءٍ في جوٍ من الرواق بربوع مرجٍ واتكأت على أحد الجذوع.

عدت للسير في درب يرتفع بلطف ثم يهبط في فوهة بركان قديم ولدى خروجه بسط أمام ناظري الجبال الأكثر علواً في الجزيرة لأقع في غرامها.

اجتاحت الغيوم السماء وخطفت ضياءها، أشار الدليل السياحي أن فترة بعد الظهر ستشهد زخات مطر على المرتفعات الداخلية. بدت قمم جبل "دياديم" الثلاث متلاصقةً. انبثقت ضبابةٌ خفيفة لتبثَّ على هذا العلو إحساساً طفيفاً بالبرد. بدأ المطر بالانهمار بلطف بادئ الأمر ثم بوابلٍ اضطرني للبحث عن ملاذ في كوخٍ صغير خشبي فيه حاجز ومدفأة ومدخرات من الحطب. أضرمت ناراً وبدّلت ملابسي، جهزت عشائي بالإيقاع الصاخب لطقطقة القطرات على صفيحة السقف.

عثرت في علبة فوق كومة الخشب على مجلتين تركهما مشاة منذ عشرة أو اثنتا عشر عاماً. قرأتها بشكل كامل بنور شمعة دفعني في البدء الملل ثم سُحرت بنشوة العودة بالزمن وجعله حالياً ولو للحظة. افتتاح متجر ملابس، تقاعد الآنسة إيميلين وهي مدرّسة فريدة المستوى، وصفة لحلوى الكراميل مع المانغو، حركة القوارب الشهر القادم بالإضافة لبضع نصائح حول تربية الأطفال المشاكسين. يعود تاريخ هذه الصفحات الدبقة برطوبة الجبال إلى ما قبل الاضطرابات: ربما ولّت ذيول الملابس النسائية وهي موضة من باريس وكذلك الآنسة إيميلين بل لعلّ يافعي هذا الجيل تعلّموا فيما بعد حمل السلاح.

عنوان الصفحة الأخيرة في المجلة كان: "قبل خمسين عاماً..." يعرض في إحدى الأعداد حفلةً في البلدية وفي العدد الآخر طاقم الممرضات في المستشفى العام. حملت إليّ هذه الصورة بالأسود والأبيض النور الآفل

Twitter: @ketab_n

لزمن روبرت توبيا. لابد أن بحاراً أبحر على متن "بريزيدان بوديسين" قد مرّ من هنا منذ ساعة أو منذ عامٍ مضى.

لو كان نصف عدد المرضات يعود لسكان الجزيرة، لم أرَ منهن سوى واحدة في الحفل استدارت لحظة التقاط الصورة. يوحي مريولها الأبيض وعقد اللؤلؤ لمستواها، قلت في سري لعلها إرنستين توبيا، لكن الشرح لم يعرّف سوى على المختار وبعض الشخصيات المرموقة.

حاولت مأخوذاً بشعورٍ أقرب للخزي أن ألاحظ إن كان فستانها المرتّب يكشف عن بوادر حملٍ، تمنع استدارة الجذع الوصول لأي نتيجة ما عدا عند النساء ذات الأجساد المليئة والقوية، كما أنني حسبت على أصابع يدي لأكتشف أن لحظة التقاط الصورة كان عمر بنجامان يتراوح بين الثانية والثالثة. زد على أنني لم أتعرّف على والده بين هؤلاء الرجال بالبزة الرسمية، وتلك السيدة التي تدير رأسها والنور خافتٌ على وجهها بالكاد يكشف بعضاً من تفاصيله لا يمكن أن تكون خلافاً لأي منطق تلك التي أودّ التعرف عليها: ارنستين.

كان الطقس بارداً في الكوخ الرطب، لم تبث تلك الوجبة الخفيفة الدفء في جسدي. ارتديت سترتي فوق كنزتي كما وضعت قبعتي. خمدت النار.

كيف مضت تلك السنوات بالنسبة لعائلة توبيا؟ هل كانت مجرد سهراتٍ فخمة في البلدية وفي الغولف والنادي المدني وكذلك في فندق باريس؟

مازلت أسمع صوت لوسين إليزابيث، مازال صدى صوتها يتردد في مسامعي وهي تقول: نساء الجزيرة هنّ كنزنا. بالنسبة لإرنستين تحمل بطن امرأة من الجزيرة طفلاً يعود نسبه للجزيرة، كائناً من كان زوجها سواء كانت تحبه أو تتفهم معاناته أو من غريبٍ لا يعني لها شيئاً بالمقارنة مع ذاك اليقين الذي يتخطاها.

Twitter: @ketab_n

تأملت دون هدف ذاك المشهد الاحتفالي وتلك الوجوه الباسمة والخيالات المنتصبة في وجه الكاميرا. يقف الرجال، تجلس النساء على أرائك أو كراسي وهناك أزواجٌ من جهةٍ وأخرى يتعانقان بحنان ويد زوج تحمي كتفاً عارياً وسيدةٌ أخرى تعطي يدها لزوجها وتدير وجهها. أشعر أن صدى الأوركسترا ورنين الكؤوس على صواني الخدمة. الكل يبتسم ولم يكن الدافع لهذه الابتسامة واحداً. لابد أنها ارنستين ومن غيرها من نساء الجزيرة يرتدي فستاناً من الدانتيلا بعقدٍ من اللؤلؤ في حفلة البلدية التي جرت في سنوات تلت الحرب مباشرةً؟ كانت تبتسم لأنها أنجبت ولأن والدتها احتفلت بولادة بنجامان لتعلن أن "ثمرتها خصبة".

كيف تمكن روبرت توبيا أن يطلب إلى زوجته طلباً كهذا، ما الكلمات التي قالها بل في غياهب أي يأس كان؟ أظن أن الابتسام لم يعد يعرف لوجهه سبيلاً. أدرك أن الطفل بالنسبة لزوجته لا يُسجل ضمن نسب شخصي في اسمٍ يخترعه من الجيل السابق بل ضمن سلسلة تجوب قروناً من الأعوام لا ذكر له فيها. لعله مجهولاً مثله مثل ذاك المجهول القادم من الميناء. لم تقبل زوجته الأمر حباً بل لا مبالاة، كائناً من كان الأب المهم أنه وليدها.

لابد أنه فهم ذلك قبل طلب "توماس كولبيرت"، ليحل الأمر بشكلٍ حتمي، يجمع بينه وبينها تنفيذ المشروع ذاته ولكن لأهداف مختلفة. ربما شعر فيما بعد أنه لعبة بل أنه لُعبَ به لنقل بفظاظة أنه مخدوع نعم مخدوع لأنها لم تخبره بالأسباب الحقيقية التي دفعتها للقبول. إنها تستخف بالإرث وبالأخ المفقود وباسم عائلة توبيا، هدفها الوحيد هو أن تحمل بطفل. باعدت ساقيها لذلك المجهول من الميناء بانتظار أن تتم الأمور ولعلها ومنذ ليلة زفافها باعدت ساقيها من أجله هو زوجها ولنفس السبب؟

ذاك الصبي الذي يلعب في حدائق الفيلا والذي تعتني به الخادمة في الأمسيات الراقصة في البلدية هو ابنها هي وحدها وليس له فيه حصة.

Twitter: @ketab_n

أظن أن في هذه الأمسية كسائر الأمسيات، سُئِلَ كيف حال الصبي الصغير وعليه أن يتصنّع الفرح الملائم للسؤال ليجيب: "إنه يكبر، ذاك الوغد الصغير!" كما أن هذا الطفل ينمو ليزداد شبهه لوالدته ولذاك المجهول الذي بالكاد يذكر ملامحه وليس لديه أي وسيلة ليجده في هذا العالم الشائع. كلما ازدادت قسوة أحكامه كلما انهارت تأملاته حول هذه المأساة التي ركب آلياتها بدقة. استمر اسم عائلة توبيا ولكن لا صلة له بالأمر ما عدا ذاك الاسم ما تبقى من ثروته وابتسامة ارنستين الهانئة، ارنستين السعيدة، سعيدة بابنها للعصور القادمة.

حلمت في سكون كوخي بالاضطراب الذي نزل بروبرت توبيا.

كنَّ لها حباً جماً دفعه للاقتران بها متجاوزاً الأحكام المسبقة المرافقة لفترة ما بين الحربين وضارباً عرض الحائط برسائل الشتائم المجهولة. لطالما أحبها دون شك وكم كرهها حين رأى زوجته من الجزيرة تهدهد في أنحاء الفيلا لابن يعود أيضاً لهذه الجزيرة، ابنها هي فقط. حُذّر من قبل: يمكنك مضاجعة امرأة من الجزيرة ولكن لا تقترن بها. تزوجها وانتهى هذا القران هكذا دونه، عائلةٌ من الجزيرة تحت سقف بيته. أحب أرنستين وظنّ أن لديه من القوة ما يجعله يحبها حتى بعد أن يتكوّر بطنها من غيره والأسوأ أنه هو من طلب. كم ترافع حتى قبلت، حين يعاني زوجان، رجلٌ وامرأة، باستمرار معاً لعل بوسعهما قبول التضحية من كليهما. ولكن حين ضحّى هو ذهبت هي سعيدة إلى قدرها. أحب أرنستين لكن أشك أنه استمر بحبها بعد كل سوء التفاهم الحاصل.

استحوذ عليّ التعب من المسير بعد أيامٍ قضيتها بين الأوراق. غصت في أريكتي محاولاً سبر أغوار يأس روبرت توبيا. أذكر في هبّات النعاس الأولى التي سرقت أحداقي أنني أدركت بشكل غامض أنني مثل توماس كولبيرت ليس لديّ ما أقدّمه في هذه القصة وفي هذا الألم، فهو مثلي مجرّد أجير هو ببذاره وأنا بذكائي وكلانا جاء من بعيد ليعبر شطآن

Twitter: @ketab_n

بورغ تاباج وليس لنا سوى إضفاء مزيدٍ من التشوش والاضطراب على ما كابده روبرت توبيا.

قارع المطر بعنفٍ الريح وما غادر المعركة حتى بدده الفجر.

في الصباح بنسماتٍ عليلة يتلألأ جبل ديناديم بكشحه الغارق في الغابة وقمّته الصخرية ببياضها الناصع. عدت للسير بملابسي الجافة تقريباً، سلكت درباً رسمته خاصرة جبلٍ نحو الجبال ثم أودى لمسرحٍ تشغله أوائل أشجار الغابة. عند نهاية هذا الدوران الواسع، يدل تقاطعٌ على الطريق المؤدية للقمة صعود وُصف بالمرهق والتقني ما بين أكوام صخرية مزعزعة. أخذت الدرب النازل. تحوّل الوادي الآن لسلسلةٍ من الأدراج كشاهدٍ على ثورانٍ قديم لبركان، تجمعت فيها عدة جداول لتشكّل نهراً صغيراً يتدفق كشلال.

تناولت طعام الغداء في أحضان هذه الطبيعة الخلاّبة على مقعدٍ رملي تنمو عليه شجيرات من السندر صغيرة الحجم. بعد مضي ساعةٍ من المسير وصلت لطرف شعب جبلي. عليّ ألا أفقد درب العودة خشية أن أغوص في ركامٍ صخري يودي إلى البحر. تدل بعض العلامات المرسومة على طرفٍ من البازلت على الطريق الذي يرتفع مجدداً ومطولاً بشكل مستقيم نحو المنحدر. بدأت أشعر بالتعب والضجر. يتدهور الممر الجبلي الأخير هبوطاً بقسوة تعيق جذور الأشجار مساره الذي لا ينتهي. وجدت مجدداً موقعاً وآثاراً لاستثمار الأخشاب.

بعد ساعة تقريباً، عثرت على أندونيسيين يلعبون الكرة ثم سيارتي.

استغرق طريق العودة إلى بورغ تاباج ثلاث ساعات، أصغيت فيها للموسيقا التي يبثها الراديو وتهدهد لي الفُرجات الجبلية المطلّة على البحر والجزر الصغيرة.

ما تناولت طعام العشاء مساءً، أخذت حماماً وسقطت على فراشي لأغطَّ بنوم عميق لاثنا عشرة ساعة لم يداعبني فيها حلمٌ.

Twitter: @ketab_n

- ١٦ -

لم أخبر هيلين كولبيرت بأي شيء من كل ما علمت ومن كومة الحصاد هذه. في الأيام الأولى، خمّنت أن ليس لهذه الاكتشافات الصغيرة أي أهمية ومن غير اللائق إزعاجها بهذه التّرهات. ثم داعبني كبرياء ساذج بأن أدركت أموراً تجهلها. هل يمكنني ومن دون مجازفة أن أعلمها بجدول غير مكتمل ومازال معناه مجهولاً أم أتريّث قليلاً؟ عليَّ أن أتقدم أكثر وأتوصّل لحقيقة متكاملة بشكلٍ أفضل. حين تأخذ المأساة برمّتها حدودها النهائية، سأعهد إليها بالنتائج عندها ستلقي عليَّ اللّوم بطول الانتظار. ألم أوجّه بحثي بعيداً جداً عما طُلب مني؟

عليَّ مع ذلك أن أقدّم لها نتائجي، لكنني لم أحدد بعد ما يسعني أن أخبرها. ترى أي التحذيرات التي نبهني إليها جيم بولندر قد خرقت؟ "مع هؤلاء الناس لا يأتي شيء محض صدفة"؟ أو "إن صادفت قرشاً فلا تستغرب لو نهش ذراعك"؟ ربما خرقت الاثنين معاً.

تناولت إفطاري صباح الثلاثاء بفيء شجرة الفيلاو مقابل المسبح أتلذذ بما يشبه العطلة. تعد الشمس المشرقة والسماء الصافية بيومٍ رائع. شرعت بكتابة بطاقةٍ بريدية لوالدتي.

أقبل رجلٌ بالأربعينيات، قوي البنية بقامةٍ متوسطة إلى طاولتي يمسك بيده فنجان قهوته، لمحته حين كان قرب البوفيه لأنه يعرج قليلاً. قال لي:

- سيد زافار، هل يمكنني أن أجلس معك لبرهة؟

كيف عرف هذا الرجل المجهول اسم عائلتي، أجبت:

- من ذا الذي سأتشرف بمجالسته؟

- اسمي لويس ماري أنيس، أنا محقق في الشرطة.

Twitter: @ketab_n

ما توقعت توطئةً كهذه مما أربكني بشكل غامض، يبدو أنه لم يلحظ شيئاً ثم تابع:

- أمرك يهمنا مما دفعنا لمخاطبتك.

- أمري يهمكم؟ لا أرى حقاً السبب...

ابتسم وتريّث قبل أن يتابع:

- إنك في بورغ تاباج منذ ثمانية عشر يوماً، أتيت من نيويورك. أمضيت وقتاً في أرشيف البلدية. تذرعت بأنك صحفي في مجلة أسبوعية أميركية ليتيحوا لك أرشيف فيلا رايموند، لم يتعرف عليك أحد في تلك المجلة. لعلك تسيء الكذب، لو سمحت لنفسي! أو ربما لا يعنيك أن يصدقك أحد.

ابتسمت بدوري لمؤازرة الفرضية الثانية دون أن أعلم إلى أين يريد أن يصل.

- إنكم تتبعونني إذاً؟

- كلا، بيد أنك أثرت فضولنا. لم أجد اسماً لك في الملفات التي عدت إليها.

- لا يزعجنا شغفك بالأرشيف لكن أن تحيط دوافعك بالكذب هذا ما جعلنا نتساءل وبدأنا نراقب الوضع. يوم الخميس حصلت على موعد لوقتٍ طويل من لوسين اليزابيث، كعادتهم هناك في الجبهة! يستقبلون بتهورٍ صحفياً حتى دون أن يتحملوا مشقة معرفة مخاطبهم. لم تبذل جهداً كبيراً بالطبع لخلط الأدلة.

- لم تخبرني بمن التقيت في الأيام الماضية؟

- لأنني لا أعرف. لم نراقبك عن كثب ولم نراقب حتى اتصالاتك. الوقائع لا تسمح لنا بذلك. بل إننا لا نعرف بعد إن كنت تستحق العناء فعلاً.

ترى هل قال ذلك بلهجة ساورها الندم الساخر لأنه لم يقدم على ذلك أو ليطمأنني أو ليبدي سعة نفوذه؟ أو للأسباب الثلاثة معاً؟

Twitter: @ketab_n

- حسناً. وماذا تريد مني هذا الصباح؟

- سيد زافار، ما الذي جاء بك إلى بورغ تاباج؟

لم أتوقع سؤالاً مباشراً إلى هذا الحد، كنت مثل راسكولنيكوف أمام بوفير بيتروفيتغ أشعر أنني مذنب بمجرد أن تحقق الشرطة معي. ثار كل شيء داخلي على هذا الفضول الذي باغتتني به السلطة الشعبية. لأمني نفسي برباطة جأش، طلبت لنفسي فنجان شاي آخر دون أن أعرض عليه تجديد قهوته - انتابني الخزي بعد لحظة من هذه الفظاظة المقصودة - انتقيت من ثم عبارةً بدت لي عدائية: "هل أنا مضطرٌ للإجابة"؟

رسمت سذاجتي ابتسامةً عريضة على وجهه. تذوّق بلذةٍ واضحة اللحظتان الصامتتان التاليتان، ثم أعقب:

- كلا، لا مجازفة أبداً بتكتمك. لن تنتظرك غياهب سجون فرع التحقيق كما ليس هناك أي غرفة تعذيب في أي مكانٍ غير رسمي. مهما كان المناخ الاستوائي، نحن في دولة قانون. بوسعك أن ترفض الإجابة عندها سأتمنى لك عودة سعيدة لديارك، هذا كل شيء.

- حسناً سيدي المحقق، لن أجيب.

سبقت إجابتي سرعة تفكيري، حتى أنني ما فكرت بسريّة العقد الذي وقعته ولا بفرضية أن أسرد على مسامعه حكايةً لن يصدقها دون شك. دافعت عن حقي بحياةٍ خاصة بعيداً عن تدخل السلطات.

- توقعت جواباً كهذا، ولكن هل تعي الموقف؟

- ماذا تقصد بقولك؟

- إننا نحلّ السلام وإنها عملية أكثر غموضاً ويلزمها وقتاً أطول مما يقول زملاؤك الصحفيون المزعومون. لا لأن النار كامنةٌ تحت الرماد بل لأن الهدم والحصار أسهل من البناء والتقدّم. كان عام السلام تلاه عام الاستقرار وحانت الآن أعوام "الإعمار" حسب المصطلح الرسمي.

Twitter: @ketab_n

أؤمن بهذا الجهد الدؤوب لا بل شاركت فيه. كنت أعرف بورغ تاباج قبل الاضطرابات بمشاكلها ومصاعبها الاعتيادية المرعبة. شهدت ذاك الانحدار نحو الجحيم وأحضن في ذكرياتي مشاهداً لا أرغب أن أعيشها مجدداً. اليوم، يكاد مريضنا يبرأ مما ألمّ به لكنه مهددٌ بالانتكاس. علينا مراقبة أي عنصر خارجي يدخل أثناء هذه العملية، هل أنت هنا لتقدم لنا يد العون أم تحمل إلينا تهديداتٍ جديدة؟

رميت خلف ظهري أبحاثي وعقدي وأسراري وما فكرت سوى بنفسي في هذه القضية في حين أن ما كشفت النقاب عنه يهدد التوازن الهش في بورغ تاباج. علمت أن سر ولادة بنجامان توبيا سيخلق زلزالاً. سيتغير معنى التاريخ الحديث بالنسبة لكل الأحزاب فيما لو شيع أن بنجامان توبيا ليس سوى ابن مليارديرٍ فرنسي يعيش في نيويورك، هل يمكنني أن أبوح بكل هذا لمفتش الشرطة؟

- يحلُّ الناس القادمون من الخارج أهلاً ويطأون سهلاً لو كانوا سيّاحاً أو مستثمرين أو أصدقاء. ترى هل يمكن أن ألحقك في إحدى هذه التصنيفات؟ وهم غير مرحّب بهم لو أتوا لاستخدامنا أو لإعطائنا مواعظ أو إن ظنوا أنهم يحلّون مشاكلنا عوضاً عنّا.

- مع أنكم رحبتم بوصول "القبعات الزرقاء" والممثلين الخاصين للأمين العام للأمم المتحدة الكندي ثم الموريسي..

- ها أنتذا تتابع يومياتنا، أنت محق. أحياناً يمدّ لنا بعض الناس القادمون من الخارج يد العون لنتحاور فيما بيننا ولنجد حلولاً وتسويات لا نملك لا القوة ولا الجرأة ولا الخيال لنعقدها بأنفسنا. نتوخى منهم الحذر لأنهم ليسوا سليلي هذه الأرض ولكن نحن لا نعرف كيف نتخطى خلافاتنا. بالمقابل هناك زوَّارٌ غير مرغوب بهم، منظّرين ومحرّضين وعملاء، أشخاص جاءوا بأفكار مسبقة وسنّوا عوضاً عنّا ما يناسبنا. هل أنت من هؤلاء؟

Twitter: @ketab_n

لم أعد أرى فضوله مرفوضاً بعد هذا التوضيح مع أنني مازلت عاجزاً عن الإجابة. عقّبت ببعض الرضا:

- "لا تمتّ نشاطاتي في بورغ تاباج بأي صلة للسياسة..."

أنهى قهوته وهو يثبت ناظريه عليّ وكأنه يقيّم الجواب وقائله.

- هل يسعني أن أصدقك؟ لا صلة لها بالسياسة وأنت تفتش في ماضي بنجامان توبيا وأمضيت ساعتين مع لوسين اليزابيث متذرعاً بتحقيق تجريه لمجلتك...

- هل طرحت عليها السؤال؟

لم يخف دهشته ومزاجه الظريف:

- أسأل لوسين اليزابيث عما قالت لك؟ هل تمزح! آثرت أن أخاطبك مباشرةً.

ترك أمامي إمكانية الإجابة بيد أني التزمت الصمت.

- كما أنك سألت بكل هدوء الضابط الفرنسي أن يخبرك من قام باغتيال توبيا .. لا أكثر، وكأنه يضع بين يديك سراً دبلوماسياً أو قضائياً لا يعرفه أحدٌ في بورغ تاباج لا بل لا يرغب بمعرفته دون شك.

أظن أن الحمرة علت وجهي. حاولت أن أركب لنفسي قناعاً هادئ الأعصاب. ترى ما الحديث الذي دار بينه وبين المقدم مايس؟

- فضول مؤرخ بسيط، لم أكن أقصد أبداً أن...

ما أنهيت جملتي بعد حتى أطلق تنهيدة تحتج على غموضي.

- ولكن في أي عالم تعيش؟ تطرح مثل هذه الأسئلة ثم تقول لي أن نشاطك لا يمت بصلة للسياسة؟ ترفض أن تخبرني سبب هذه الرحلة الطويلة التي حملتك إلينا، حسناً لا يمكن لأحد أن يرغمك إن كنت ترفض الكلام، على الأقل أصغي إليّ، أطلب منك بل أتجرأ أن أقول أرجو منك أن تتوخى الحذر. يمكنك أن تخلّ بعملية استمر تنفيذها أعواماً بأفضل النوايا بالعالم، سترحل وستتابع نشاطاتك التي أجهلها كلياً والتي تتكتم عنها...

Twitter: @ketab_n

أتاح فترة انتظار، كان علي أن أكسرها ولكن لا.

- إنك من أصول لبنانية، هل أنت مطّلع على التدابير والاتفاقات في أوساطنا السورية اللبنانية...

- ولكن لا صلة لي بأولئك الناس! لم ألتقِ بأحدٍ منهم ولم أتّصل حتى! ولا بأي حزبٍ آخر وخاصةً هذا الحزب!.

- شاح للحظة بناظريه ثم قال:

- مهما يكن سيد زافار، سواء أرغبت أم لا ستعتبر واحداً منهم ولن تفسر تصرفاتك إلا عبر هذا المنظور. هنا لا يختار أحدٌ انتماءاته. وأنت لا تزيد عن غيرك. أثروا فيك في مهدك وسيأسروك إلى الأبد بل يمكن لهم أن يجهزوا عليك. إقلاعك بالطائرة لا يعني تحررك منهم.

انبعثت جلبة يافعين حول المسبح بدت لي آتية من كوكبٍ آخر.

- مهما كان البذار الذي تنثره لن تكون هنا لحصاده. نحن باقون هنا، نحن نمضي أيامنا هنا وهنا فقط مستقبلنا ومستقبل عائلاتنا. يبثُ الناس القادمون من الخارج القلق في نفوسنا أبداً.

لم يساور صمتي أدنى احتقار على العكس تماماً كنت أرجو منه الصفح، آمل ألا يسيء فهمي.

- يمكنك فهم هذه الرسالة. أنت مسؤول من هذا الجانب. لم تجب على أسئلتي لكنك سمعتني، فكّر بما قلت.

تنهد مجدداً. ترددت في ذاكرتي جملةٌ قالها الدكتور غرامونـد: "أريد مقابل ما أبوح به إرغامك على الإصغاء لتحذيراتي، هل سمعتها جيداً"؟

- سأترك لك بطاقتي، لو رغبت بالاستمرار بنقاشنا غداً أو بعد شهر... آمل أن تطمئنني.

نهض بينما ثغثغت بشكرٍ لم يكن مناسباً تماماً ثم اتجه نحو القاعة، شعرت بالخزي وأنا أراقبه يبتعد.. ترى هل يعرج منذ ولادته أو جرّاء إصابةٍ مُني بها إبان الاضطرابات؟

Twitter: @ketab_n

- ١٧ -

يتجه شارع جاي أنزيس نزولاً نحو ساحة البلدية حتى ساحة ستراسبورغ بانحدار طفيف يكشف البحر في الأسفل ما بين صفين من أشجار النخيل. يُحاط الشارع اللائق بالمدينة بأبنيةٍ ضخمة غير متكلفة تعود لفترة ما بين الحربين، تلوّح الشرفات متقنة الصنع والكريستيد[1] بآفاقه. تشغل المتاجر منذ أعوامٍ الطوابق الأرضية، يهيمن فندق باريس على الشارع قبل تحوّله لمعرض تجاري.

أصبح مقر وكالة بورغ تاباج للسياحة في البناء رقم ١٩ مقراً لقيادة القبعات الزرقاء. تركن مواكبٌ من العربات العسكرية على الرصيف، يوحي بضعة رجال بزيّ موحّد بالفعالية من خلال ذهابهم وإيابهم أمام المبنى. هبَّت نسمةٌ بحرية حملت بين يديها الأوراق وبعثرت عبقاً مالحاً وصرخات طيور ممتزجة بحنينٍ للسفر.

قرعت جرس باب جاكلين سيرول كما هو متفق في تمام الساعة العاشرة، في المبنى رقم ٢٧ في شارع جاي انسزيس، الطابق الأول أعلى الصيدلية. فتحت لي الباب سيدة مسنّة قصيرة القامة ترتدي قميصاً أبيض وتنورة سوداء، تفحصتني جيداً فلمحت عينيها الزرقاوين كالفولاذ.

أعجبها على ما يبدو انتقائي لبزةٍ مع ربطة عنقٍ للقائها، سمحت لي بالدخول.

يبدو أن هذه الشقة ساكنةٌ على حالها منذ عقودٍ خلت. ذكرتني بالطراز الاستوائي لغرف الاستقبال وجدته في منزل الدكتور غرامونـد. أثاثٌ مركبٌ من خشب شديد السواد وسجادةٍ مهترئة على أرضيةٍ من

---

1 - الكريستيد: تمثال امرأة يحلّ محل الأعمدة في البناء.

Twitter: @ketab_n

الدلب الهندي[1]، نقوشات تلاشت مع الزمن في إطارٍ كان قديماً مذهباً، نباتاتٌ خضراء ضخمة تعطي إحساساً غامضاً بالتهديد، يرشح النور بين الستائر المتهدلة أمام نوافذ كبيرة تطلّ على الساحة الداخلية...

بدعوةٍ منها جلست على أريكة "فولتير"[2] ذات نسيج مزهرٍ باهت. جلست قبالتي منتصبة بأذرعٍ متلاصقة:

- كلي آذانٌ صاغية سيدي.

لم تهوّن عليّ الأمر بل راودني انطباع أنني أبيع مكنسة كهربائية أو موسوعة علمية.

- شكراً سيدتي لاستقبالك لي. إنني أقوم حالياً بأبحاثٍ عن عائلة توبيا، تعمقت في أرشيف فيلا رايموند، دوّن روبرت توبيا بعضاً من أوجه حياته، اهتمامه بالعملات القديمة وذكريات عائلته. احتفظ بمذكراته التي ذكر فيها من يدعو على وجبات العشاء وزوّاره. لاحظت أن اسم الدكتور سيرول يتكرر غالباً.

- حسناً، ماذا تتوقع مني؟

- ماذا يوحي لك اسم روبرت توبيا؟

أغمضت عينيها للحظة وكأنها تمعن التفكير. حدقت بي بدقة مصالبة يديها ثم أجابت:

- بالحقيقة جمعت بين والدي وروبرت توبيا صداقةٌ قوية. والدي طبيب العائلة. أصبح لاحقاً وبسرعة كبيرة مقرّباً، كنّا نتردد كثيراً إلى الفيلا، لم يكن القسم الأجمل من البستان موجوداً، كنّا نسكن في هذه الشقة، بالنسبة لي تلك الحديقة بدت مترامية الأطراف حيث ترك لي روبرت وارنستين توبيا الحرية في الركض وقطف اليوسفي وركوب

---

1 - الدلب الهندي: جنس أشجار حرجية خشبها شديد الصلابة يستعمل في صناعة السفن.

2 - أريكة فولتير: أريكة تعود للقرن XIX وهي خفيضة الكرسي مرتفعة المسند.

Twitter: @ketab_n

الدراجة في الممرات. أجمل ذكريات طفولتي تقبع هناك في الأعلى، والدي وأصدقائهم على الشرفة وأنا أقفز على الحبل ونتناول الحلوى التي تصنعها ارنستين... كان هناك سيدةٌ طاعنةٌ بالسن.. بالحقيقة، كانت تبدو بالنسبة لي طاعنة بالسن.

- رايموند دوران إيسموند، والدت روبرت.

كانت تأتي بعد الظهر إلى الشرفة لتتمدد على كرسي طويل في الظل، تشير لنا بيدها لتنبه بعدم إزعاجها.

- أتحتفظين بصور عن تلك الفترة؟

- التقط والدي صورة. ترى أين وضعت الألبوم؟

(ترسب علاقاتٌ وطيدة وتنظم أساطير في العصور العائلية التي تتذرع بالاحتفاظ بمقاليد حكايات. بصفتي قيّم على الوثائق الخاصة، تأكدت عدة مرات من وجود مسافات وكذب بين ما وجدت وما علمت من جهة أخرى! لا حاجة لانتظار مفاجأة، سأكتشف الأمر في الصور التي سترينيي إياها جاكلين سيرول.

لم تكن ألبومات صور عائلة زافار تضم سوى لقطات من حفلات وأعراس وأعياد ميلاد واحتفال رأس السنة: عدد من بنات الأخوة بزي العيد والأصهرة وأبناء العمومة والعمّات حيث يحمل الأكبر سناً للأصغر نفس درجة القربى في دوامة وراثية ينبغي نقل الذاكرة الشفهية فيها. دائماً في الصف الأول أنا وأخي وأختي ونحن ننمو ثم لم يعد أبي يظهر في الصور).

اتجهت دون تردد نحو صيوان السفرة وأخرجت كتاباً ضخماً بغلاف أحمر اللون، قلّبت صفحاته بعناية على الطاولة، نهضتُ معها وتأمّلتُ الصور مرافقاً تعليقاتها.

- ها قد مرَّ زمن طويل لم أرَ فيه هذه الصور. والدي. والدتي وعائلة توبيا. أنا وهنري..

Twitter: @ketab_n

- هنري...

- أخي الأكبر... هنا روبرت توبيا عائداً من جولة تنس. والدتي تمد يد العون لإرنستين وهي حامل. في هذه المجموعة، على اليمين، هذه والدتي بفستان السهرة. هنا نزهة على الشاطئ. والدي وروبرت في قارب والدي. الأهل حول مهد بنجامان. هنري يسدد خطوات بنجامان الأولى. روبرت ووالدتي بقناع لحضور حفلة تنكرية..

قلّبت صورها دون أن تتطرق لمشاعرها. لم أسألها أن أنسخ عن هذه الصور بالأبيض والأسود بحواف متعرجة. ترى هل ايرنستين الباسمة هي تلك السيدة التي تدير وجهها في صورة حفل البلدية؟ والذيول السوداء لرداء المركيزة بأكمام كزي المهرّج وذاك القناع الذي تنكّرت به أمام البحّار العابر؟ انتهت الجلسة ثم عادت لأريكتها وتبعتها بارتباكٍ.

- عرفت بنجامان توبيا منذ نعومة أظافره؟

- أجل، كنت في العاشرة يوم مولده ولاعبته كأختٍ كبرى مع أخيها الأصغر. غيّرت حفاظه وناولته الطعام وبدّلت ملابسه طبعاً تحت مراقبة والدتينا، لعبت معه بالدمى، كان يتبعني أينما ذهبت ويناديني لين حتى أنني أنقذت حياته يوماً ما.

- هلاّ رويتي لي؟

- كان عمره أربع سنوات، يتبعني في الممرات على دراجته الصغيرة، لا أدري ماذا فعل حتى سقط في البحرة رأسه في الماء وقدماه عالقتان في إطار الدراجة ولم يكن يقوى على النهوض. سمعته يصرخ حين سقط، قفزت في الحوض وأخرجته. كنت فخورة باصطحاب صديقي الصغير وسرد إنجازي. لو علمت ما يحمله التاريخ لأبقيت رأسه تحت الماء بكل ما أوتيت من قوة.

صفعني عنف الخاتمة، كنت أصغي دون مبالاة لسرد أحداث طفولة هانئة في بورغ تاباج وأعادني لرشدي ندمٌ بعدم اقتراف جريمة.

Twitter: @ketab_n

- اعذريني، أظن أنني لم أفهم بشكل جيد.

- فهمتني تماماً. لو كنت أعلم بمستقبل بنجامان توبيا لآثرت أن أراه يغرق بل لساعدت في ذلك... ربما حلّت بي اللعنة إلى الأبد ولبكينا كثيراً تلك المأساة العائلية ولكن كم كنّا لنتدارك من المآسي.. للأسف، أنقذته من غرق محتم. هكذا. لكن أنت ترغب أن أحدثك عن روبرت توبيا على ما أظن؟

فهمت أنها لم تعد ترغب بذكر الابن، أذعنت لرغبتها:

- أجل، كانت تربط صداقة حميمة ما بين والدك وروبرت توبيا ولو طلب منه خدمة...

- لأسداها له دون تردد.

بالطبع لو شارك الدكتور سيرول بذاك اللقاء الغريب مع البحّار، لما روى لابنته ذات العشرة أعوام.

- لم أفهم سر هذا الفضول؟ هل تعنيك صداقة والدي وروبرت توبيا؟

- أسعى لفهم أعماله بعد الحرب.

- أخشى أنه ليس بوسعي تقديم العون لك. كنت صغيرة جداً، على كل حال لم يكن والدي يولي اهتماماً للأعمال، كان يحب مهنته والرياضة والبحر.

- قلّة من النقاط المشتركة مع روبرت توبيا.

- لم نعد نحتك كثيراً بعائلة توبيا بعد أن وافت المنية والدي ١٩٥٥، ولم أعرف أسباب هذه القطيعة، بيد أني لم أعد أتردد إلى الفيلا. لاحقاً وبعد أن حصلت على شهادة البكالوريا، اتجهت إلى مونبلييه لدراسة الصيدلة، لدى عودتي عام ١٩٦٦، فتحت صيدليةً بمساعدة والدتي ثم تابعت العمل بمفردي إلى أن ساندني زميلٌ لي حتى تقاعدي منذ ستة أشهر.

Twitter: @ketab_n

- إذاً عملت بالصيدلة طيلة حياتك العملية.

ارتجفت بتردد صرخةٍ حادة أطلقها عظاة بيضاء على السقف قرب الخزانة.

- كنت أول امرأة تجرأت على القيام بهذا العمل في بورغ تاباج وفي الحقيقة لم يكن الأمر سهلاً. ظننت أن أتوقف في سن الستين وأسلم المهمة لشريكي، لكن اندلعت الاضطرابات وبقيت الصيدلية مفتوحة دائماً. كنت أعطي الناس الدواء حتى ولو لم يكن بحوزتهم المال. ولّى شريكي بالفرار ولم يتم العثور عليه. بعد مضي ستة أشهر من الاضطرابات، لم يعد لديّ أدوية لحسن الحظ حصلت على بعضها من المساعدات الإنسانية: وزعت أدويةً إنكليزية وألمانية وإيطالية... اختفى زملائي الأعزاء وعدد من الأطباء. كان لدي بعض الزبائن المخلصين وأعرف ما هم بحاجةٍ إليه. أتابع بوصفات طبية منتهية الصلاحية ثم توافد مجهولون ومرضى وجرحى وأناس يعيشون حالات من التأزّم. نساء يحملن أبناءهن ورجالٌ يصطحبن أمهاتهن. كانوا يعرفون أين يجدونني كما اعتدت أن يُطرق بابي في أي وقت.

- هل تماسكت وحدك في وجه هذه المتاعب؟

- كان يجب عليَّ ذلك. لم أكن أبقى وحيدة. حُمل إليَّ المزيد من الجرحى بعد أن اقتربت المعارك من المركز وقطعتنا عن المستشفى. توقعت آنذاك أنه يستحيل عليَّ الاستمرار بمفردي وأنني بحاجة للعون. في صباحٍ باكرٍ جاء إلى صيدليتي رجلان قويان حصدتهما رشقات رشاش، كان علي أخذ قرار، تركت المحاربان وذهبت في طلب ابن اللحام.

- ولماذا وقع خيارك عليه هو؟

- ظننت أنه على الأقل لن يغمى عليه لدى رؤية الدم. كما تذكرت أول حديثٍ لي معه. سحبته من سريره وسألته بلهجةٍ تهكمية أسفت

Twitter: @ketab_n

عليها فوراً، "إذاً جان لم تذهب لتقاتل من أجل القضية؟" - منعني والدي أن ألقى حتفي في العشرين من العمر.

- يا للوصية الحكيمة...

(تعالى صوتٌ داخلي احتجاجاً على تفاهة ملاحظتي. لا يقوم دور الأب على إرسال ابنه للمعركة بل أن يحميه بكل ما أوتي من قوة من جنون البشر: يؤمّن للفار المخبأ وكذلك للمتمرّد، يكذب على السلطات ويغلق باب منزله في وجه العسكر بل وأكثر يصطحب ابناءه إلى الطرف الآخر من البحر).

تمسكت بلحظةٍ من الصمت لتبعد أي انفعال واضح.

- كنت بحاجة لمن ينقل المرضى وهو شابٌ قوي البنية. رغم مظهره الناعس إلا أنه تعلّم بسرعة وعرف لاحقاً ما يعمل بالضبط. هيّأته ليكون مساعد ممرض ثم تقريباً مساعد مخدر. يقوم بتنظيف الغرفة وطاولة العمليات، يناولني الأدوات ويدير مجموعة مولّدة الكهرباء كما يحضر الإبر والحُقن المتواصلة ويضمد الجرحى بالإضافة إلى أنه كان يطرد بحزم الأقارب الذين ينشرون الفوضى في مركزي المرتجل.

جرى أن أمضينا أربع وعشرين ساعة متواصلة بإجراء العمليات الجراحية، كَمُدَ لونه إلا أنه تماسك وتماسكت معه بدوري. لم يكن التعب وقلّة النوم أسوأ ما في الأمر إذ اعتدنا ذلك، لكن المعضلة تكمن في نقص الأدوية، خاصة ثالوث جراحة الحرب المقدس.

هذا البؤس الذي طغى على المدينة لم يكن ليوجد لو أنها تركت الصغير بنجامان يغرق في الحوض، هذا ما قالته لي بصوتٍ هادئ متقطعٍ.

- ألم يساورك الخوف؟

هزَّت كتفيها.

Twitter: @ketab_n

- الخوف من الموت؟ بعمري؟ عالجت جرحى من الرصاص سواء أكانوا من هذا الحزب أو ذاك دون أن أطرح الأسئلة لا عن أفعالهم ولا عن أماني ولا حتى عن المستقبل. ماذا تريدني أن أفعل غير ذلك؟ ولا تقل لي إنها بطولة، إنها مهنتي.

رسمت ابتسامةً بشوشة فجأة وانقبضت حدقات عينيها الزرقاوين قليلاً وقالت:

- أجل كنت بطلةً في تلك الأيام. حافظت على جوقة بورغ تاباج، هل تغني؟

- كلا، آسف.

- يا للخسارة، رغم هذا الصوت الجهوري المنخفض... عندما عدت إلى البلد، لم يكن هناك أشياء مهمة فنظمت جوقةً للاستماع لمونتوفيردي ووليم بيرد وباخ وأصدقاء آخرين بعيدين.

سردت ذكريات بشكلٍ فوضوي أو في ترتيب هي من اختارته.

- إقناع المشاركين وجمعهم ومعرفة كيفية قيادة المجموعة... إطلاق أول حفلة موسيقية ونحن نرتجف، آه ها قد مرّ أكثر من خمسة وعشرين عاماً.. ثم المتابعة والسير نحو الأفضل بعزف مقطوعات لموزارت وهايدن بأوركسترا مكوّنة من أستاذة "المعهد الموسيقي" وأفضل طلابه. اصطحاب الجمهور لأشياء أكثر صعوبة، فنادق للجوقة... إنهاء الحفلة الموسيقية بمقطوعة "لوكوس إيست" لبروكنر[1] تحت قبة الكتدرائية... هذا ما شكّل لي سعادة عارمة.

أجل، كنت بطلة بالحفاظ على الجوقة خلال الاضطرابات، نجتمع كالسابق كل يوم خميس ولأسباب أمنية صار اجتماعنا في غرفة الطعام في منزلي ولمن يستطيع إليه سبيلاً. هل لفت هذا الجنون انتباهك؟ أن

---

1 - Bruckner: موسيقار استرالي ١٨٢٤ - ١٨٩٦.

Twitter: @ketab_n

تخرج مساءً وأنت تتأبط قطعة موسيقية لا مناشير ولا سلاح... تابعنا بالقيام بجدول أعمالنا رغم اضطراب المنابر وافتقارنا الجوهري لأصوات الرجال إبان هذه المعارك مما هزَّ فكرة تعدد الأصوات، ولكن لا يهم. عندما تتكلم الأسلحة لا يهم دقة علامة الخفض في الجوقة أو النبرة في الإيقاع الثاني للضبط الخامس... ودعنا بعضاً من المغنين في الحرب. الموسيقا لم تكن تعويذة، تماسكنا، كان لابد لنا من التمسك بشيء ما...

بعد مضي ثلاثة أشهر من نهاية الاضطرابات، أقمنا حفلة موسيقية: مونتوفيردي[1] وLe Requiem de fauré[2] Liberame،Domine، demorte aeterna.

قلّما سمعت هدوء كهذا في الكتدرائية. صعد ولي عهد الملك الكندي إلى المسرح بعد الموافقة وقبّل يدي.

طرق خيال الكسندر شانر ذاكرتي وهو يقول: "عشنا لثلاث سنوات في احتضارٍ دون بصيص أمل. فهمت الآن أنه لم يكن يقصد قداس الموتى باللغة اللاتينية بل ذكرى حفلات موسيقية. في كل مرة أصغي لأحد سكان بورغ تاباج يتحدث عن الأحداث ألمس إحساساً بالشفقة ممزوجاً بالشعور بالذنب.

قرأت في تلك الأيام مقالات مؤثرة في صحيفة - في الصفحة الداخلية بعد مقالات مؤثرة من العام الماضي في مسرح آخر. كان انفعال القارئ صادقاً لكنه غير فعّال وعبثي ومُرضي. لمست اهتمامي فأرادت زيادة ميزاتها:

- أترى! لو لم أنقذ حياة بنجامان توبيا لما جرى كل هذا.

---

1 - Monteverdi: كلوديو جيوفاني مونتوفيردي موسيقار إيطالي ١٥٦٧ - ١٦٤٣.

2 - Gabriel fauré: موسيقار فرنسي ١٨٤٥ - ١٩٢٤.

Twitter: @ketab_n

"من أكون أنا حتى أعارض وجهة نظرها"؟

- ألم تلتقي به مجدداً؟

بلى، مرة واحدة، عندما أطلقت جوقة الأطفال، جاء ليقدم لي ابنته.

- لويز؟

- لم أعد أذكر. صوتها جميل. عندها كان نقابي ذائع الصيت بالكاد دخل المعترك السياسي. كان عمر الصغيرة يتراوح بين الثامنة والتاسعة، استفادت الجوقة منذ مطلعها من التقليد السائد بين سكان الجزيرة بالغناء في جوقة أنثوية. ظلت تتردد لفصلين متتاليين ثم لم أعد أعرف سبب غيابها.

- هل تحدثت إليه؟

- نعم، ذكرته بلعبنا معاً في حديقة الفيلا لكنه قال إنه لا يذكر شيئاً من هذا، هذا ممكن جداً فآخر مرة التقيته فيها كان في الخامسة من العمر، كما أنه لم يبدِ رغبة بالإمعان بحواراتٍ من الحنين. وكذلك أنا ففي تلك الحقبة، بدت لي تصرفاته خطيرة ومشؤومة، كانت ملاحظتي مهذبة لكنها لا تعبر عن شيء لطيف مثل إجابته، لكن أترغب أن أحدثك عن روبرت توبيا أم عن ابنه؟

- عن روبرت؟

- أعتقد أنني أخبرتك بكل ما أعرف. توفي والدي عام ١٩٥٥، حضر روبرت وارنستين التأبين. واجهت والدتي المواقف. غادر أخي هنري إلى العاصمة في كلية الضباط.

- هل يمكنني أن أتحدث إليه؟

- توفي هنري في الجزائر. انظر إلى النصب في ساحة البلدية. هناك صفيحة كبيرة لضحايا الحرب الكبرى وصفيحة أصغر لحرب ٣٩-٤٥ وهنري الاسم الوحيد بحروف ذهبية في الأسفل: نقش اسم الملازم "هنري سيرول" بشوش، حتى يمكننا القول أنه نُقش حديثاً.

Twitter: @ketab_n

استأت من كلماتي الخرقاء ولكن كيف لي أن أحزر، كم استأتُ من حظي العاثر.

- أعتذر أن أيقظت فيك ذكريات مؤلمة.

- لا داعي للاعتذار.

كان جوابها بعيداً عن فكرة التهذيب بل منعني من اقتحام مشاعرها الشخصية. مازالت مشدودة الظهر على أريكتها، تنتظر التالي وما عرضت علي شرب شيء. لابد أن علي تجاوز امتحان قبل أن يحق لي شرب كأس ماء.

- هل يمكنني إلقاء نظرة على مكتبة والدك؟

- اتبعني.

نهضت واصطحبتني إلى غرفة استقبال كبيرة مع غرفة طعام تطلّ على الشارع.

- هنا كنّا نغني إبان الاضطرابات رغم التجهيزات المتواضعة.

يشبه أثاث هذه الغرفة ما كان عليه في غرفة الاستقبال الصغيرة. يبدو أن الطاولة ومن حولها ثماني كراسي ثقيلة لم تستخدم في السنوات الأخيرة. تزين الجدران لوحاتٌ برسومات ملائمة منظرٌ طبيعي وآخر بحري بالإضافة لمشهد ريفي والبدوية قرب البئر.

- كاللوحة في فيلا رايموند ...

- إنها هدية من روبرت توبيا لوالدي حين بلغ عامه الأربعين.

هناك جانب البيان رفٌ مليء بالنوطات الموسيقية ثم جدارٌ مغطى بالكتب، رتّبها ليون سيرول حسب الترتيب الهجائي. عثرت بغضون ثلاث دقائق على المجموعة القصصية لكارين بليكسن[1]، ما إن أمسكت بالكتاب حتى فتح على الصفحة الأولى عنوان "حكايةٌ أبدية". أشير لبعض الأسطر بقلم الرصاص.

---

1 - كارين بليكسن: كاتبة دنماركية ١٨٨٥ - ١٩٦٢.

Twitter: @ketab_n

هذا كلب صيد توقف عن الركض في كل الاتجاهات رافعاً إحدى قوائمه ليسير بطرف طريدته بقيت عاجزاً عن الحراك. التزمت الصمت كل شيء في مكانه كل شيء حازم. لا يسعني أن أفعل شيئاً آخر. كيف سأقول لها أن بنجامان الذي تأسف أنه لم يلقَ حتفه غرقاً لم يكن ليولد لولا الاقتراح الذي عرضه والدها مستوحياً مما قرأه في هذه القصص ليحل عقم صديقه المفضل؟

أخذت الكتاب من بين يدي وتأملته دون أن تفهم.

- هل ستخبرني بموضوع بحثك؟

اخترقتني نظرتها الثاقبة. نصف قرنٍ مضى، من أي أصقاع الأرض أتيت لأحمل لها العذاب؟ هل باستطاعتي أن أحيطها بالطمأنينة؟ فكّرت مجدداً بتحذيرات الدكتور غراموند.

- لا شيء مما فعل والدك يدفعك للشعور بالخزي.

- ماذا ترمي أن تقول؟

- يجمع والدك وروبرت توبيا سراً، والدك بوصفه طبيباً، سرٌ يخصهما، لن تتخيلي أبداً الورطة التي رمى الصديقان نفسيهما فيها.

- هل ستقول لي أنك اكتشفت سراً بين والدي وروبرت توبيا، سراً حملك إلى هنا بعد مرور خمسين عاماً؟

لم أعرف بما يسعني أن أجيبها، إنها حاضرة الذهن أكثر مني.

- ناء روبرت توبيا تحت وطأة هذا السر، ثقلاً مرهقاً دفعه لئلا يستقبلنا مجدداً في الفيلا.

- أعتقد أنه يصعب علينا الوصول لنتائج بهذا التأكيد..

- سيدي، أود أن أذكّرك بأن ليون سيرول والدي.

بحثت عبثاً عن عباراتٍ تقودها نحو تفكيرٍ مغاير للصواب. باستقبالها لي قبلت بإبرام صفقةٍ ضمنية، لن تحتمل فكرة أن أخونها. أحذر العقود التي يتم إبرامها في بورغ تاباج.

Twitter: @ketab_n

- لم أشأ إقلاق راحتك حين قرعت بابك، لكن دون شك أسأت التصرّف.

- ستكون أكثر إقناعاً لو أخبرتني ما الذي تبحث عنه في حياة روبرت توبيا، لماذا توليه كل هذا الاهتمام؟

- أحاول تسوية قضية إرثٍ غامضة.

لم يكن في هذا الاعتراف بعد تفكير كذباً، إلا أنها لم تقف أمامه كعائق.

- تغمده الله برحمته منذ زمنٍ طويل، أظنه لم يترك إرثاً، جلّ ثروته هي فيلا رايموند وباعها مقابل دفعات تستمر طيلة حياته للمستعمرة، وها أنت تتحرى عن إرثه؟

- كلا، لا يتعلق الأمر بإرث روبرت توبيا ولكن سلسلة تستمر وأحتاج لذلك بعض الإيضاحات حول أعماله.

فكّرت لحظة ثم قالت:

- لا يعنيني ما يتعلق بالبقية، وهل قادتك أبحاثك حول روبرت توبيا للسؤال عن والدي؟

- هذا بالضبط.

- اكتشفت سراً دفيناً بينهما.

- أجل.

- ألا تريد أن تخبرني على ماذا يقوم هذا السر؟

- لا يحق لي. أولاً لأنني وقّعت عقداً مع وكلائي تتضمن شروطه السريّة التامّة، ثم لأنّ السر لا يخص سوى ليون سيرول وروبرت توبيا.

- يمكنني قبول جوابك الأول ولكن طبعاً لن أقبل بجوابك الثاني. كما أنك دفعتني لأتكلم وأرسم آثاراً لشيء أجهله ثم تتركني هكذا لتتقاذفني أمواج الشك وتقضّ مضجعي التساؤلات دون أي وسيلة لسبر أغوار موضوع السؤال ولا معرفة ما قال والدي أو ما فعل؟

Twitter: @ketab_n

شعرت أنني أثرت حفيظتها. حاولت أن أستوعبها وأنا أرتعد لفكرة أن تستشيط غضباً. كان عليّ أن أسرد لها قصة مرسى توماس كولبيرت حتى أنال رضاها وأخبرها من الذي كلّمه في الحانة، عليَّ أن أحميها هي الأخرى من شظايا هذه القصة.

- تصرّف والدك بوصفه طبيباً مع مريض وصديق حميم. أملى عليه ضميره خياراته، لا توجه أصابع اللوم لسلوكه.

شدّت قبضتيها وانتقت جواباً لاذعاً:

- يبدو لي أن الحكم على الأمر يعود إليَّ أنا ابنته لا أنت المجهول كلياً.

مهما فعلت أو قالت لن تعرف شيئاً مني، هل يمكنني استحضار بحارٍ يبلغ ثلاثة وعشرين عاماً لحضور مشهد قرره الطبيب وصديقه وربما جرى في هذه الغرفة نفسها، لعلها ستلعنني لكنه لا يمثل شيئاً أمام ما أحتفظ به.

نهضت ونهضتُ أيضاً.

- سيدي، أنا أنذرك بأن تخبرني بما تعرف عن والدي.

التزمت الصمت، ونزلت فوق رأسي الصاعقة.

- أنذرك إما أن تتكلم أو اخرج من منزلي على الفور.

وجب علي أن أوجه لها آخر رسالة:

- سأذهب. أنا آسف، أرجو منك أن تصفحي عني مع علمي التام أنك لن تصفحي عني أبداً. لا يمكنني أن أبوح لك بشيء، لكن آمل أن تثقي بأن صمتي لا يخفي سراً مشيناً. والدك كان رجلاً صالحاً ويجب أن تفخري به. أشكر استقبالك لي وحديثك معي. أنا آسف، أكرر لمرة ثانية أرجو منك أن تسامحيني.

أثناء حديثي كنت أنتقل من الممر إلى المدخل ثم إلى عتبة المنزل وأغلق الباب مع نهاية جملتي التي لا جدوى منها.

Twitter: @ketab_n

أرهق كاهلي وأحزنني أنني تسببت لها بجرحٍ وأنني خنتها. لم يكن أمامي خيار آخر.

صعدت شارع جاي أنزيس إلى المقهى الكبير وجلست. لم أتعرف على وجوه زبائنه القلائل. لا يهم. أخذت صحيفةً لأتظاهر بالأهمية وقلبت صفحاتها دون أن أقرأها. أقبل النادل ليسجل طلبي، قال لي:

- أرأيت سنمضي العطلة مع ريتا.

قبلت كما لو أننا في حانة دون أن أقحم نفسي بحوار ولا حاولت أن أفهم من عساها تكون هذه "ريتا". لدى رؤيته لبرود ردّة فعلي، مدّ لي ورقةً تبدو رسمية، مدعوكة ومتسخة من كثرة الأيادي التي تناقلتها.

/إدارة الأرصاد الجوية/

يزداد تأثير المنخفض الاستوائي رقم ٢٨ نهاراً ويدخل طور الإعصار الاستوائي الذي أطلق عليه اسم ريتا.

يقع إعصار ريتا حالياً على بعد خمسمئة كيلومتر شمال غرب وسينتقل نحو الجنوب الشرقي بسرعة ثماني عقد بحرية[1]، من المحتمل أن تضرب جزيرتنا خلال الأيام الثلاثة القادمة. قررت الحكومة التيقظ لاستقبال طور الإعصار.

بناء على هذا، من غير المرغوب القيام بنزهات بحرية ولا جبلية، أما النشاطات الأخرى فلابد من الاستمرار بها بشكل طبيعي وخاصة المدارس، كما ننوّه بضرورة متابعة الأخبار بانتظام سواء على الراديو أو التلفاز. إن حافظ الإعصار على مساره غداً بعد الظهر، عندها سيتخذ قرار الانتقال لحالة التأهّب الحمراء.

ولّى فصل الأعاصير الرسمي ولكن تم إحصاء ثلاثة أعاصير تضرب خارج فصلها في السنوات الخمسين الأخيرة وكان لها آثاراً مدمرة. يجب اتباع مجموع التعليمات المعتادة إبان فصل الأعاصير.

---

1 - العقدة البحرية: $\frac{1}{2}$ من الميل.

Twitter: @ketab_n

سيتم نشر بلاغ آخر غداً ظهراً أو بوقت أقرب حسب ما تستوجب الظروف.

لست معتاداً على هذا النوع من المواقف، تساءلت ماذا عساي فاعلٌ. يجلس إلى الطاولة المجاورة ثلاثة من رتبة صف ضباط يعتمرون قبّعات زرقاء ويخوضون في نقاش حول كرة القدم.

حُمل إليَّ أخيراً فنجان القهوة الذي لم تسقني إياه ابنة الدكتور سيرول، رشفته بتلذذ. لا شيء يبقيني في بورغ تاباج، انتهى البحث هنا. لعل المطار سيغلق غداً لدى اقتراب الإعصار. اتصلت بشركة الطيران وحجزت مكاناً في رحلة بعد الظهر مع شحن الرسائل إلى نيويورك.

أشرت للنادل بتجديد طلبي. انعكاسات الساعة النواسية على المرايا تنذرني بضيق الوقت، بيد أني تكاسلت مشدوداً إلى منظر الشارع والسماء بلونها الأزرق الضارب للرمادي طارداً نُدف الغيوم المنذرة بالعاصفة المتوقعة.

احتسيت فنجاني الثاني تجتاحني صورة كل أولئك الغائبين الذين أقلقت رقادهم. ترى هل يرقدون بسلام؟

تغمدهم الموت جميعاً وعلي أن أختار إما أن أحرّر آخر مشهد في هذه المأساة أو ألتزم الصمت.

الوحيد الذي لم أفهمه من بين المشاركين الأربعة في هذا المشهد هو ارنستين توبيا. ليس أكبر من روبرت توبيا، لم أتمكن من معرفة ما الذي راودها حين سمحت للبحّار أن يقترب منها وماذا كان إحساسها أثناء الحمل وحين قبلت المولود الجديد؟ من كانت ترى فيه حين تضمّه في أحضانها؟ كما قالت وكررت لوسين اليزابيث: "نساؤنا كنزنا".

ماتت ارنستين وبعدها ابنها ومات معها الجزء الأكثر غموضاً من هذه الحكاية.

Twitter: @ketab_n

دقّ ناقوس الكتدرائية في منتصف الظهيرة، لو ظلّ ناظري مبعثراً على الأمواج لتأخرت على موعد الإقلاع. عدت إلى الفندق وحزمت أمتعتي على عجلةٍ من أمري.

عرجت في طريقي إلى المطار إلى فيلا رايموند لأعيد لفريدريك عدة النزهات والتخييم. شكرته مجدداً ببطاقة صغيرة وطلبت إليه أن يحذر البرد أثناء الليالي التي يمضيها في مراقبة الحيتان.

اتجهت نزولاً نحو الطريق السريع تبعت المفرق الذي يقطع بستان الفيلا ثم قُدت بسرعة أعلى بشكل واضح من الحد الذي سمحت به القوانين المحلية. لاح حيٌ من أكواخ الصفيح أعلى الهضبة على يميني وتراقصت عبر الأشجار خيالاتٌ ضبابية تلعب بالكرة ورنّت أجراس كنيسة. انهمر المطر مدراراً في دربي معلناً اقتراب ريتا ملغياً أي منظرٍ يسلّي طريقي إلى مرآب المطار.

Twitter: @ketab_n

القسم الثالث

ابنٌ ووالد

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

- ١٨ -

عانيت لدى عودتي إلى نيويورك من التفاوت الزمني ومن مشقة رحلةٍ طويلةٍ جداً وساعات من الانتظار التي لا تطاق في قاعات المطارات.

عليَّ المباشرة بالمهام التي تنتظرني في المقر الكائن في جادة بارك.

سعيت في قضايا مئة وخمسة أشخاص سابقاً وما أربكتني قضاياهم.

تكشّف البحث الذي عهدت به إليّ هيلين كولبيرت بصعوبات تفوق كل ما بوسعي أن أفعل حتى الآن. أراقب اقتراب اليوم الذي سأحرِّر فيه التقرير الذي تنتظره الأرملة بفارغ الصبر، إنها لا تعلم شيئاً بعد عن أسرار بورغ تاباج، لم يعد بوسعي أن أراوغ أكثر.

(أردت تناول الدليل السياحي عن الرف لأتحقق من نقطة ما، لكن يدي آثرت رثاء والدي الذي احتفظت به عبر كل تنقلاتي مولعاً بالصورة الفوتوغرافية المطبوعة على الغلاف. يحتوي الرثاء على أربع شهادات فخمة الكلام والتعازي التي حملت للعائلة وتكريم محاسن المرحوم التي جابت دروباً بلاغياً بلاغياً حددت معالمها منذ الأزل.

لاحظت الآن استخدام مفردة "محارب". لا يرثي نواحهم تاجر مفروشات ووسائل إنارة بل بطل قضى في ساحة الوغى، ابن لبنان الذي ضحّى بحياته من أجل وطنه، شهيد ...

لا بد أن كل من سمع هذه الكلمات في الكنيسة أو قرأ هذه الجمل الملائمة أدرك قيمتها. لم أكن قد تجاوزت الثالثة عشرة، كان يصعب عليّ أن أحزر ما يتكتم به الكبار.

ما زال موته حتى اليوم لغزاً لا تفكّ رموزه).

Twitter: @ketab_n

زودتني مئات الوثائق والأوراق والملاحظات المبعثرة التي جمعتها خلال ثلاثة أسابيع بالكثير حول توماس كولبيرت، لكن لم أقع على ما يساعدني على فهم المشهد الذي لم أتخيله بعد. عاد توماس كولبيرت إلى منزله في أي يوم وأي شهر بل في أي سنة؟ جلس إلى مكتبه وبدأ يكتب: "كان عمري اثنان وعشرين عاماً، في آخر رسوٍ لي، في حانة قريبة من الميناء..." ثم أفرحه هذا النص فنسخه بعناية ورتّبه بين أوراق عديمة الأهمية، وهو يعلم أن بعد وفاته.... هناك شيء ما غير مناسب ولكن ما هو؟

لا أحد غيره يفتح مكتبه ولا خزائنه فهو حسب طريقتهم مصانٌ كصندوقٍ في مصرف. ترى هل كان يفكّر بأمره منذ ذاك الوقت وقصد أن يكون درجه صندوق رسائل بعد أن توافيه المنيّة؟ أم أنه نسيها بعد محاولةٍ لكتابة سيرته الذاتية التي وجد فيها تسليةً لبرهةٍ من الزمن؟

تبيّن أن الطفل الذي ولد عن لقاء كانون الثاني ١٩٤٩ وهو مؤسس جبهة الدفاع عن سكان الجزيرة ليس سوى ابن توماس كولبيرت، أخشى على التوازن المضطرب في بورغ تاباج من نتائج كشفٍ كهذا ولكن عليَّ ألا أهمل المموّل في نيويورك. حسب قانون قائم منذ الأزل، فإن الإرث ينتقل من الأب إلى الابن. طرقت ذاكرتي نظريات لودويغ فون ستودر الغريبة. تقارب نطفة منوية من بويضة في الخصوبة يحمل فيما بعد ملايين الدولارات.

ماذا كان رجل الأعمال ليقرر لو علم بالأمر؟

كيف نظّم توماس كولبيرت تركته؟ أذكر أن بين الأوراق التي نخبتها مع بداية مهمتي هناك نسخةٌ من وصية.. هنأت بنظام التصنيف الدقيق الذي قمت به، عثرت على ذاك الملف الثخين الذي كان ليعمل به عددٌ كبيرٌ من المحامين. تصفحته لعدة مرات وما فهمت منه شيئاً.

Twitter: @ketab_n

عثرت في الحافظة نفسها على ملاحظة مطمئنة موجهة لأعضاء مجلس الإدارة ولبعض المستشارين رفيعي المستوى في الحكومة. تشرح هذه الكلمات الخاصة أن غياب المؤسس لا يهدد أبداً استقرار المجموعة.

بعد أزمةٍ قلبية عام ١٩٩٦، قام كولبيرت بدراسةٍ نَسَبية، إنه ابنٌ وحيد لامرأة وحيدة، عرف أن ورثته هم أبناء أعمامه وعمته الذين يعود تاريخ ميلادهم لما قبل الحرب العالمية الأولى. عثر مكتبٌ مختصٌ على أبناء عمومته من أصل جرمني مع جيلين أو ثلاثة كخلفٍ لهم.

لن يعرف أحدٌ القائمة التي تطول. يذهب نصف إرثه لشركة توماس كولبيرت والقسم الآخر لشركةٍ حقوقية في لوكسمبورغ بإشراف هيلين كولبيرت. ضمنت سلطته في المجموعة آليات معقدة بالاستئمان وإغلاق التصويت عقود المساهمين. لزعزعة هذه السلطة كان على أبناء عمه الخمسة والثلاثين أن يقرروا وبالإجماع الشروع بإجراءٍ طويل الأمد، في حين أن غالبيتهم ما سمعوا بالأمر قط بل ويؤثرون الحصول على ما هبط عليهم من السماء من إرث عمهم في أميركا على أن يشعلوا فتيل ثورة من الباب إلى المحراب في مجموعة S.T.C.

سيكشف عن أسماء المرشحين المحظوظين خلال اجتماع مجلس الإدارة القادم. سوف يقلق عدة كاتبين بالعدل منتشرين في أنحاء فرنسا راحة ثلاثة فلاحين بالإضافة لرئيس عمال وقابلة وأربع ميكانيكيين يعمل أحدهم لحسابه وقسٌ وإعلامية كما يقلقون راحة خمسة عمال وبحّار يعمل بالصيد ومدرّستين ومدرّس ومساعد أول، دون إهمال ثمانية عاطلين عن العمل وعاطلة عن العمل وطاهي وتوأمه صانع الحلوى وثلاث ربّات منزل ونائب اجتماعي. سيخبروا كل أولئك وباليوم نفسه أنهم ورثوا حوالي مئة وخمسة وثلاثين مليون دولار بعد حذف الضرائب. سيعلن مندوبون بالصحافة الخبر الكبير وستقتحم الكاميرا

Twitter: @ketab_n

الأبواب لتنقل إلينا تفاصيل المفاجأة كاملةً، عيونٌ تجحظ بهول الذهول والريبة والدموع وصرخات الفرح والإغماء.

يبدو أن توماس كولبيرت ما وضع فرضية ولادة طفل بعد رسوّه الأخير. لا يدل أي ترتيبٍ ضمن إجراءاته أنه ينظر خلفاً نحو بورغ تاباج.

قرأت في مقالة صغيرة في إحدى الصحف أن إعصار ريتا أسفر عن وقوع ضحيتين وثلاثة مفقودين في كفرٍ شمالي الجزيرة أما العاصمة فاقتصرت فيها الأضرار على المادية.

استدعت خدماتي كقيّم على الوثائق الخاصة أخوة محزونة بوفاة الجدة. استغرقت وقتاً لأجيب، طرح عليَّ الأخ الأكبر سؤال إن كانت مؤسستي تتابع عملها فطمأنته وتذرعت بفيضٍ من الأعمال، إلا أنه أقنعني بالنهاية بقبول ملفه. شارف عقدي مع هيلين كولبيرت على النهاية وليس بوسعي إهمال مستقبلي أكثر من ذلك. أعادتني زيارتي الأولى لمكتب زبوني الجديد شهرين إلى الوراء حيث اضطررت لإمضاء ثلاث ساعات في نخب الأوراق والرسائل بهدوء. تمكنت خلال عدة أيام الخضوع لهذا الروتين المطمئن لحساب العائلة التي تمر بمرحلة حداد.

(ترعرعت - هل أشبه كل أطفال حوض البحر الأبيض المتوسط؟- في كنف عائلةٍ لا رجل فيها بأحضان أمٍ لم تخلع ثوب الحداد، شعرت بالوحدة رغم وجود أخي وأمي.

اعتدت على حالة اليتم وعناية الجيران والمدرّسين المربكة. كنت أعارض بلا حياء قصص الغرق العابثة والليث الهارب من السجن وعجة الفطر السيئة والطائرة باتجاه مغاير والقرش المجنون والضياع في قلب غابات الاستواء وهم يصغون إليَّ بشفقةٍ خفيّة.

لم يأخذ والدي أبداً صورة المحارب في تلك الأساطير التي كنت أخترعها بازدراء لمستمعيني السذّج، لم يكن المديح في تأبين والدي يلهمني في شيء مما كنت أخترع. خانتني بالنهاية تلك العناية التي أوليتها

Twitter: @ketab_n

لمضاعفة التفاصيل والطرف في تلك المآسي الخارقة. في حين كانت تحملق في عيونهم ويتمتمون جملاً مزعجة أسمع فيها نكراناً وآثار رضٍ نفسي ثم تركوني بسلام.

حميت والدتي دون قصد وكذلك كبرياء العائلة. لم يكن هناك ما يرغمني على مقاسمة الألم والغياب مع غرباء. رفضت أن يأسرونني في دورٍ مثيرٍ للشفقة كتب عليَّ منذ سنواتٍ خلت، لم تكن والدتي ترتدي زي الحداد إلا من أجلي.

فتح بحثي في بورغ تاباج وأسرار فيلا رايموند جرح طفولة يتيمة الأب لم تندمل).

كدت على وشك الوصول لآخر الخزائن والمصنفات الخاصة بتوماس كولبيرت.

تأملت لكنني لم أصدق أن أعثر خلال أسبوعٍ من العمل المجد على ملفٍ آخر يردد صدى نص البحّار. ولكن لا.

جمعتني في آخر يوم في ساعة الغداء صدفة لقاء هيلين كولبيرت في المدخل حين كانت تعتلي الدرج الكبير، فانحنيت احتراماً، أما هي فابتسمت لي بشكل آلي. لم أكن واثقاً أنها تعرّفت عليّ.

بعد أن قمت بترتيب الملف الأخير للأرشيف في آخر صندوق، أمضيت برهةً في جمود، أتأمل أكوام وأكوام صناديق الأرشيف ويساورني شعورٌ بعدم الرضا بماذا تلخص حياة توماس كولبيرت.

لم يبقَ أمامي سوى جرد الوثائق في مقر إقامته الصيفية في "فيرمون". أشار لي توكر أن عليّ الاهتمام بها أيضاً، اتصلت به وطلبت منه أن يصطحبني إلى هناك.

Twitter: @ketab_n

- ١٩ -

انتظرتني سيارة ليموزين، تتناقض مع الحي المتواضع الذي أعيش فيه، في الساعة الثامنة، ركبت في الخلف لأن السائق هو من فتح لي الباب ثم اتجهنا إلى فيرمون. أخذت السيارة طريق الأوتستراد لتخرج من المدينة الشاسعة. تركت نفسي للشعور السلطوي الذي تفرضه سيارة كهذه بنوافذها الملونة.

أمضينا حوالي ثلاث ساعات حتى وصلنا أسفل سلسلة جبال متوسطة الحجم تضيق شيئاً فشيئاً. اتجه الدرب بعد آخر مدينة صغيرة شمالاً لينتهي ببوابة يحيط بها جدارٌ مرتفع. ضاقت أمامنا نهاية الوادي ثم فتحت مصراعي البوابة على درب مرسوم سلكناه لنصف ساعة أخرى حتى وصلنا إلى المنزل الريفي المقصود.

يشغل هذا المقر ذو الطابق الواحد الفخم محاطاً بملحقين يصل بينهما مدخلٌ ضخم حافة إطلالة طبيعية على عقفة النهر. يحيط بالباب المهيب شجيرات في إناء ومظلةٌ متقنة الصنعة وعلى جانبيه أعمدة من الفن الدوري[1] تلقي في نفس الزائر انطباعاً خاصاً. تعد الأبواب ذات النوافذ والمسبح والمظلات وملعب التنس مجتمعةً بقضاء لحظات سعيدة. خلتُ أنني أقلّب صفحات مجلة صعبة المنال أو أتجوّل في تحفةٍ فنية لمهندسٍ معماري أو لرسامٍ طبيعي أو لمهندس ديكور داخلي أو ربما في ديكور خاص بفيلمٍ ما. لم ألمس روحاً لكل ذلك ويبدو جلياً أنّه كلّف ثمناً باهظاً جداً بالمعنى الحرفي للكلمة.

تلوح الجبال هناك بعيداً عند مرجٍ يزين نهرٌ أهدابه ويحطُ بأحضان غابةٍ كثيفة.

---

1 - الفن الدوري: أقدم الفنون الاغريقية ظهر في النصف الثاني من القرن الخامس قبل الميلاد.

Twitter: @ketab_n

استقبلني كبير الخدم وأعلمني أن طعام الغداء سيقدم في قاعة الطعام وأن السيد توكر لن يكون حاضراً. طلبت منه، بينما تلذذت بأطباقٍ رفيعةٍ أكثر من اللازم، أن يسرد على مسامعي تاريخ المنطقة، هذا الوادي الطويل المسوَّر بجدرانٍ بالجانب الجنوبي وينتهي عند المرتفعات الجبلية. كانت تعود لملوك السكك الحديدية ولنجوم في السينما ثم صارت في أملاك توماس كولبيرت منذ عام ١٩٧٥ وقد استقبل فيها عديداً من الشخصيات. مجَّد أمامي ميزات الغرف والتجهيزات وغنى الطبيعة بسمك الترويت والطرائد والنزهات والملاهي.

تغفو ورقة بإطار أسود على طاولةٍ منخفضة مزينة بطاقةِ زهرٍ.

/تبجيلاً لتوماس كولبيرت/

رئيس المجلس الإداري في مجموعة S.T.C وأعضاء المجلس وكافة طاقم العمل ينعون إليكم بفائق الأسى وفاة مؤسس المجموعة توماس كولبيرت بعمرٍ يناهز اثنان وثمانين عاماً.

وصل توماس كولبيرت إلى الولايات المتحدة عام حيث أسس شركته الأولى المختصة بالتجهيزات البحرية. خلال نصف قرنٍ من العمل الدؤوب، طوَّر عمله لينهض بـS.T.C شركة توماس كولبيرت إلى الصف الأول عالمياً في مجال الأعمال البحرية والمتضامنة وذاع صيته في أكثر من خمسين بلداً.

تخلَّى عن إدارة أعماله منذ عشر سنوات ليبقى نموذجاً يُحتذى ومصدر إلهام ينهل منه شركاؤه ككل. استمر بمتابعة تطوّر المجموعة بنشاط من مقر إقامته في فيرمون. رقد بسلام لنومٍ أبدي في أحضان تلك الجبال في ٢٠ آذار. جرت مراسم الدفن بمودةٍ خالصة كما كان يرغب.

Twitter: @ketab_n

ستبقى صورة توماس كولبيرت في أذهان كل من حظي بالعمل معه لتذكر بذكاء أعماله وأخلاقه الحميدة المتميزة كل أكثر من الأخرى.

في غرفة الاستقبال بالزاوية، صورةٌ جميلة لهيلين كولبيرت.

وصل توكر مع نهاية الوجبة راغباً بأن أتمّ مهمتي، طلبت منه أن يصطحبني إلى المكتب حيث تنتظرني الأوراق الأخيرة.

- ما أحبَّ قط هذا المكان الرسمي جداً، يؤثر بيته الصغير في الجبل، هناك كان يشعر أنه في منزله حيث كان يعمل، يجب الذهاب إلى هناك.

قلت لدى إنهاء قهوتي: - أنا جاهز.

- هل تمتطي صهوة الخيل؟

- آه.. نوعاً ما.

- أفضل من المركبات الأرضية البطيئة والصاخبة زد على أنها غير مريحة.

- ألن تواجهني مشكلة كبيرة؟

تظاهر أنه لم يسمع شيئاً.

- بانتظارك تجهيزاتٌ أفضل في أول غرفة بالأعلى على يسار الدرج، اصطبل الخيول خلف المنزل، سنذهب لهناك.

صعدت إلى الغرفة لأبدّل ملابسي، بدلت بزتي بزي رعاة البقر.

بانتظارنا خيلان تم إسراجهما، قدّم لي توكر فرساً حِجراً[1] كميت[2]:

- هاك...، كما نقول، هيزر؟ إنها هادئة ولطيفة.

أما هو فامتطى صهوة حصانٍ بنّي يبدو أكثر نشاطاً. أمسكت المطية متظاهراً أنني مرتاح، اعتليت صهوته دون عناية. لم يؤتِ بأي تعليقٍ على

---

1 - الحجر: أنثى الخيل.

2 - الكميت: صفة الفرس الأسمر المحمر.

Twitter: @ketab_n

أنه يتمكن من اصطحابي أو أنه لا يعير اهتماماً لما قد يصيبني من جراحٍ وكدمات. غار الدرب بين أشجار البلوط والزان وعبر مجرى المياه لثلاث مرات. هيزر مطيعة نوعاً ما دون شك، لعلها قرّرت أن تتبع خطى عرّابها غير آبهة للأوامر التي حاولت إعطاءها إياها مقدِّرة هي أيضاً مستوى الفروسية حسب تقديرها الخاص.

بعد عدة لحظات، انطلق توكر عَدْوَاً على الطريق ثم عَبَرَ المرج الذي يغوص في أحضان الأشجار. حاكت الحجر عَدْوَهُ. لم أعد أذكر ماذا جرى فيما بعد وعندما انتهى الحضرُ بعد مضي نصف ساعة كنت ألهث أكثر من الحجر نفسها ولكنني بقيت على السرج. توقف توكر عند نهاية مدرج حيث ينتهي الوادي مع آخر منحدرٍ وعر.

- سلكنا الدرب المختصرة، أرأيت الشلال؟

نظرت نحو الأعلى لألحظ وشاحاً فضيّاً مبعثراً بين أشجار السرو يبعد عنّا حوالي أربعمئة أو خمسمئة متر.

- البيت الريفي هناك في الأعلى إلى اليسار.

حَجَل الخيلان في درب ضيّقٍ وعرٍ، تشبثت بعنق الفرس وعلّقت قدماي بالركاب متحاشياً احتمال السقوط أرضاً. ساطتني الأغصان المنخفضة التي حركتها الفرس أثناء عدوها بنشاطٍ على المنحدر، أنتظر أن ينتهي هذا أو قد أسقط. بعد وقتٍ من الضيق التصق الدرب بطريقٍ سيء. لم أكن بعيداً جداً عن دليلي. اختفى المنظر خلف الغابة الكثيفة المعتمة. عبرنا سيلاً متدفقاً عبر جسر ثم عاد بنا الطريق لذاك الدرب اللعين بالكاد ترى رسمه مخترقاً الأشجار. درباً وطريقاً يتقاطعان مراراً. يختار توكر دائماً الدرب الأكثر سرعة وبالتالي الأكثر وعورة.

منعنا حاجزٌ صخري من التقدّم، سلكنا درباً وحيداً عند سافلة الصخور. عاد توكر للعدو على ذاك الدرب الأقل انحداراً. حاولت

Twitter: @ketab_n

جاهداً الحفاظ على المسافة ثم شعرت بالسلوى حين رأيت في نهاية الطريق بناءً خشبي. وصلنا أخيراً.

بيتٌ ريفي بطابقٍ واحدٍ مريحٌ للغاية في مرجٍ محاط بالسرو، كأنه قادمٌ من سويسرا أو النمسا بأزهار "إبرة الراعي" الحمراء التي تزركش النوافذ. ملحقٌ صغيرٌ للاصطبل وكذلك غرفةٌ للخادم - رجلٌ من فيتنام يدعى "كاو" -.

- كان توماس كولبيرت يفضل هذا المكان على أي مكان آخر حتى في الشتاء لم يكن يرغب بمقابلة الكثير من الناس. سأترك لك المجال لتستقر قليلاً بينما أقوم بجولة.

عهد إلى كاو العناية بشؤوني ثم عاد على عقبيه وغادر من فوره ليغيب في غيمة من الغبار. شكرت هيزر بعد رفع السرج على صبرها ثم دخلنا البيت الريفي.

لم يكن الطابق الأرضي يضم سوى غرفةً واسعة جداً بديكورٍ معتم مع أرائك ومائدة ضخمة. تطلُ الشرفات الزجاجية الواسعة على ثلاثة اتجاهات: من الجهة اليمينية الوادي وهو الطريق الذي سلكناه، مع إطلالة على غاباتٍ لا حدود لها لا يَشقّ منها درب ومن الجهة اليسارية الشلال قريبٌ جداً يقفز من صخرةٍ لأخرى. تفرض هذه المناظر الخلاّبة نفسها لأقع في شباكها رغم احتجاج مؤخرتي وفخذي بعد ما كابدتاه خلال النزهة على صهوة الفرس.

استمتعت طويلاً بهذا المنظر الهادئ والراسخ.

تبعت الخادم إلى الطابق العلوي، فرحت لفكرة أن أحظى بقسطٍ من الراحة. غرفتي ملبّسة بالخشب وعلى السرير أرائك حمراء اللون مع لوحتين ساذجتين، تطلُ على الغابة عبر نوافذ منخفضة. تحتوي خزانة على ثياب. تمكنت من الاستحمام لوقتٍ طويل ثم بدّلت ملابسي

Twitter: @ketab_n

مجدداً. ترى ماذا جئت أفعل في عشّ النسر هذا والمبني بمهارة قرب القمّة على منحدرٍ وعرٍ ليهب نفسه منظراً من جبال الألب؟

هل أظنّ أنني سأتمكن حقاً من النقاش مع طيف توماس كولبيرت؟ وعن ماذا سأسله بالضبط؟

نزلت مجدداً إلى القاعة الكبرى. تنتصب الذُرا الصخرية في الأفق أعلى أواخر الأشجار لتشكّل جرفاً صخرياً متصلاً يلوح من النافذة. تُحفر مداخنٌ ضيقة في الأماكن الضعيفة في السور وبعض المزالق للركام الثلجي الذي تبدو آثاره جليّة في الغابة. تشكّل صخرة كلسية بيضاء مذهبة أبراج قصرٍ بعيد بأسواره المسنّنة ومسلحته ومرقَبه. تحدت شجرة سروٍ منفردةٌ في قعر السماء عاليةٌ وبعيدة عن غيرها قوانين الجاذبية. تقلق خاصرةَ جبل مهيبة المنظر بشكل كامل من الناحية الجنوبية. كان كل هذا المنظر في متناول توماس كولبيرت.

تتدحرج الشرفة بدعوة لنيل قسط من الراحة على الأرائك مقابل مشهدٍ مترامي الأطراف على الوادي البعيد. وضعت نسماتٌ خفيفة باردةٌ جداً النهاية لذبذبة تأملاتي، ولذتُ إلى الداخل.

تزيّن كتبٌ لم تمسسها يدٌ جداراً بأكمله. جلست على أريكة كبيرة من الجلد مقابل طاولة منخفضة وديوان. لإكمال الديكور هناك سجادٌ وبضع لوحات وجلدُ دبٍّ على الجدار. حزر كاو أن الانفعالات التي رافقتني في النزهة والارتفاع عالياً أعطتني شعوراً بالجوع والعطش، حمل إليَّ كوباً من الشاي مع الحلوى. سألته إن كان توماس كولبيرت يتردد كثيراً إلى البيت الريفي، أكد لي أنه منذ حوالي عشر سنوات وهو يمضي هنا معظم وقته، نصف الأسبوع وأكثر كما يمضي الفصل الجميل بأكمله والخريف الساطع. لم تكن تثني عزيمته بالصعود إلى هنا عدا أمطار تشرين الثاني وبرد شباط الجليدي. عندما يتوارى المنظر

Twitter: @ketab_n

والدرب تحت الثلوج يحضر كاو فرقاً من المدينة الصغيرة المجاورة ويعملون ليل نهار لتأمين الوصول.

جلست إلى المائدة الكبيرة. يبدو الشلال أقرب على مرمى حجرٍ من الشرفة، لكن الضجة لا تتسلل عبر النوافذ.

أوراق توماس كولبيرت مرتبةٌ في صيوانٍ ومكتب. قمت بجردها خلال ساعتين وتصنيفها وترتيبها في صناديق. يروق لي روتين هذه المهنة التي اخترعتها. لم أتفاجئ لأنني لم أكشف أي سرٍ آخر ولا عثرت على أي اكتشاف. مازلت عند نفس النقطة وآثرت ألا أفكّر بالتقرير الذي عليَّ تحريره.

استدرت واقتربت من المدفأة الجدارية الخفيّة في زاوية غرفة الاستقبال. على العارضة التي تطل على الموقد، أمام ناظري هناك صورة واحدة. تأملتها، أخيراً، تعرّفت عليه للتو، هذا وجه توماس كولبيرت الذي كان مجهولاً حتى اللحظة. صُعقت بالتشابه الواضح مع بنجامان وبشكل خاص ابنه "مالكولم": تلك الرقبة القصيرة والأنف الأفطس والشعر الكثيف والعينان المتقاربتان والفم الضيق، كل ذلك يدل أن أي فحص بيولوجي ليس سوى محض نسبٍ جلي للعيان. اقتربت من الإطار لأتفحصه في نور الغابة الدافئ في فترة بعد الظهر.

التُقطت الصورة بواقعية: توماس كولبيرت بعمرٍ يناهز الستين عاماً بزيّ الصيّاد وخلفه أيلٌ جميل لابد أنه هو من صرعه ويستعدّ لسلخه، يمسك بيده اليمنى سكيناً طويلاً ويجس خاصرة الحيوان باحثاً عن المكان الأمثل لشقّ الجلد. الرأس المقطوع مضرّجاً ببركة دم، أما البارودة فتتكأ على القائمة الخلفية.

لم يكن لكولبيرت هيئة التباهي التي يبديها النمرود أمام غنائمهم. ركّز جداً وتأمل بانتباه الأيل ذا الأعوام السبعة، لم يبدِ أي قسوةٍ ولا حتى فرحاً أو احتراماً. مجرد الهيئة اللازمة لإنجاز مهمةٍ دقيقة. يتطلب

Twitter: @ketab_n

تنظيف أيلٍ بشكلٍ صحيح نوعاً من التدريب مما دفعني لافتراض أنه بدأ بالصيد في وقتٍ متأخرٍ دون شك بعد حصوله على هذا الجبل. لعل هذا الحيوان نصف المسلوخ هو أول صيدٍ له.

أربكني تفصيلٌ لفت ناظري. ربما كنت لأفهم لو أنه تباهى ممسكاً البندقية بفخر ويضع قدمه على الغنيمة. لكن الصورة التي اختار أن يؤطرها كديكورٍ يعلو المدفأة الجدارية، الصورة الوحيدة في كل عالمه التي تمكنت من خلالها رؤية وجهه تصوّره بوضعية غير رفيعة، في مهمة مدنّسة لمرؤوس. لماذا آثر أن يصوّر نفسه هكذا، البارودة مرمية كيفما كان، بسترة وأطراف بنطال متسخة يمسك بيده سكين صيدٍ مسلولة نحو الخاصرة؟ لم تكن السلوك المقدس لمن يقدّم أضحية لإبراهيم الذي ضحّى بابنه البكر اسحاق للخالق ولكنها مهمة لشخصٍ قروي فظ أو لحامل السلاح أو للحام، بعد أن ينتزع روح الأيل يقتله مرة أخرى ليسترد كرامته فيقطع رأسه ويمرّغ أحشائه بالتراب.

من كان يستقبل يا ترى في هذا البيت الريفي الفاخر بعيداً عن الفخفخة والمريح دون مبالغة؟ هل كان يستقبل أصدقاءه؟ لم يكن لديه أصدقاء. أصحاب سلطةٍ أو مرموقين لحاجةٍ لخدماتهم ونالت إعجابهم هذه الحميمية الكاذبة، وهذا التمثيل للرجل الطيب عبر النزهات والصيد بالطعم ونزهة على صهوة الجواد وجولات صيد وتزلج بالأعماق بالإضافة لعشاءٍ رفيع وحوارات مهمة قرب الموقد مع الويسكي. ومضيفهم الذي لطالما تحاشى الصور وابتعد عن الأهداف، ترى ما الصورة التي يرغب أن يتركها؟ صورة الرجل الذي يستعد لتقطيع فريسته، وماذا سيفهم ضيوفه إيماءً بالرسالة التي يهمسها هذا العرض: كونوا شركاء لأنني سأواجهكم سأجهز عليكم وعلى شركتكم وشبكتكم وأثركم ومركزكم ولن تأخذني بكم رأفة ولن يداعبني الفرح، سأجهز عليكم بمنهجية سأقصب ما تبقى وأرمي للكلاب ما لا جدوى منه

Twitter: @ketab_n

وأجرح ما يثير اهتمامي عندما أفرغ منه - فأنا أنهي دائماً ما أشرع به - أما القطع المتناثرة فهي غير مرغوبة بها.

هذا ما تمتم به الإطار المعلَّق على بُرقع مدخنة المدفأة الجدارية. تلقيت بدوري هذه الرسالة وفرحت أنني ما التقيت بتوماس كولبيرت في حياته لا قاسم مشترك ما بين هذه الوحشية المتوَّجة ومهارة بنجامان توبيا بالخطط المتقلبة وطلائعه وتحالفاته وخطاباته الغزيرة بالإضافة لموهبته بجذب الآخرين وقدرته على القفز بعد الفشل. لا قاسم مشترك بينهما عدا تلك الإرادة الحديدية المكرّسة لتنفيذ الأهداف التي رسماها لحياتهما الأب مثل الابن. وسعت امبراطورية توماس كولبيرت حدود العالم، وكان لابد من قنبلة تحت سيارة بنجامان توبيا لإيقافه. لا أجرؤ على تخيّل ما قد يصبح مالكولم توبيا المنحدر من النسب نفسه.

- "كان رجلاً خارجاً عن المألوف".

باغتني صوت توكر الذي لم أره وهو يدخل ولست أدري منذ متى رآني أتأمل هذه الصورة. دمدمت:

- إنها المرة الأولى التي تسنح لي الفرصة أن أراه.

- هذه الصورة تشبهه. و...

ترى ماذا كان يريد أن يقول؟ كان عليه أن يتابع إلا أنه لم يجدني جديراً باعترافاته.

هاهو المساء يرخي سدوله ويلعب بالنور المائل الذي ينير أشجار السرو حول الشرفة. ترنّح الشلال الفضي تحت الظل الطفيف لنهاية النهار ليلامس اللون الرمادي. دخل كاو مجدداً وأضاء المصابيح على المكتب وفوق المدفأة. سألت توكر:

- هلاّ سمحت لي بإلقاء نظرة على غرفته؟

قطَّب جون توكر حاجبيه، لم يرق له فضولي.

برطم قائلاً: ستبقى عند العتبة.

Twitter: @ketab_n

صعدنا إلى الطابق وفقاً لهذا الاتفاق. فتح الباب وتأملت دون أن أتقدّم، إنها غرفة أصغر حجماً من تلك التي نزلت فيها، تطلُّ على الناحية الشمالية، تبدو غابة السرو ملاصقة تقريباً للنافذة الضيقة. تضمُّ قبّةٌ من خلف ستارة الحمام حيث وحسبما أذكر وجده كاو وقد فارقته الروح. سريرٌ من خشب الجوز يعلوه قنديلٌ إلى جانبه طاولة وصوان وخزانة، بتقشّف يضاهي حجرة راهب. الأرضية خشبية لا يكسوها سجاد. لا يوجد أي كتاب أو ورقة. غرفةٌ جرداء بتدرجٍ للون الرمادي، لابد أنها لم تشهد دخول أيّ مصمّم.

لا ألق لألوان سوى تلك الطبيعة الميتة على الجدار بدرجات اللازوردي الصارخة والمضيئة. أمعنت النظر. لا زُهد في هذا الديكور المعتم، لمست فيه ما يعجز توكر عن رؤيته: حجرةٌ في سفينة "بريزيدان بوديسين، أسرةٌ حديدية مركبةٌ فوق بعضها البعض وفواصل تهتز بصخبٍ مصمٌ على إيقاع المحركات، زيّ عملٍ أزرق اللون ملطخٌ بالشحم ومعلّق في خزانة حديدية ورائحة النفط والمطبخ حاضرٌ دائماً، ربما هناك صراصيرٌ أيضاً كما أن هناك منشفةٌ تعلّق على حبلٍ لتجف. أما السرير سيء الصنع فتغطّيه شراشفٌ خشنة وغطاءٌ خفيف، يرمي أحذية الأمان في زاوية. يعلو صخب البحر اللامنتهِ على كوة السفينة ذاك اللازوردي السماوي الذي تضجّ به اللوحة.

- "معلقةٌ على الجدار، إنها حقاً ماتيس[1]؟"

أخطأ توكر بسؤالي أو لعلّه فسّر حسب رموزه واهتماماته الخاصة:

- نعم، لم يكن يقبل بأي إجراء أمان، لا منبه ولا كاميرا. رفض ذلك ولم يقبل به في أي مكان من بيته الريفي.

أغلقت الباب. عاد توكر إلى غرفته أما أنا فنزلت مجدداً إلى غرفة الاستقبال الكبيرة. تبعثر الشمس المائلة ضياءً ذهبياً على قمم الأشجار

---

1 - ماتيس: هنري ماتيس فنان فرنسي اشتهرت لوحاته بألوانها (١٨٩٦ - ١٩٥٤).

Twitter: @ketab_n

لتبدو الغابة بين يديها أكبر حجماً وأكثر عتمة. تبدو الأرض من هذا البيت الريفي الذي يغفو على كشح الجبل جرداء مترامية الأطراف حيثما ولّيت ناظريك. يحلّق أحد الكواسر لتسع جناحاه السماء. تلتهب وجنتاي حرقةً لم أفهم سببها.

ظهر توكر مجدداً يرتدي بنطالاً وسترةً فاحمة اللون، أضرم النار في الموقد. لم يكن الطقس بارداً لكن ألسنة اللهب بثّت شعوراً بالحبور رغم أنها غير ضرورية. يجهد النهار ليبقى على الذُرا في حين تتماهى كل تفاصيل المنظر الطبيعي بأشجاره مع العتمة، يمخر البيت الريفي وحيداً في عباب السماء بزرقةٍ قاسية لا تسبر أغوارها كسفينة منفردة في لجّة البحر.

- سأدعك تتذوق ويسكي مميز.

أنا وتوكر نعمل لصالح المرحوم توماس كولبيرت، كلٌ بطريقته. لو كان موجوداً، ترى هل كان ليفرح برؤيتنا نتبادل المزاح قرب نيران الموقد؟

أفرغنا كؤوسنا ثم انتقلنا إلى المائدة. حضّر كاو فخذ أيل مع النبيذ. حاولت أن أبدو ودوداً بدوري:

- كيف أتقنت اللغة الفرنسية؟ أثناء عملك في حكومة الولايات المتحدة؟

- كلا، كان والدي مدرّس لغة فرنسية في "برنو". هرب من تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٤٨ وغيّر اسم العائلة لئلا يذكر مجدداً أوروبا الوسطى، التقى بوالدتي من الكيبيك لدى وصوله إلى نيويورك. كنا نتحدّث في المنزل الإنكليزية والفرنسية والتشيكية والألمانية.

- ما الدور الذي كنت تمارسه لدى توماس كولبيرت؟

- كان يعهد إليّ بمهام سريّة، يرغب أن يبقيها خارج الترتيب الإداري لمجموعة S.T.C. كان يقدّر الماضي والمنهجية التي أحظى بها كضابطٍ قديمٍ في المخابرات ويجدها مختلفةً عن تلك المعاملة في المجموعة:

Twitter: @ketab_n

الحصول على معلومات خاصة والحفاظ على علاقاتٍ مع صحفيين، المفاوضة مع وسطاء وحكومات جديدة، تناول طعام الغداء مع جنرالات، الذهاب إلى المواقع ومعالجة ملفات خاصة، متابعة الأخبار العالمية، عرض مشاريع في بلدان غير مضيافة.

تلذذت بنبيذ برغونيا المعتّق يتهللُ بكأسٍ موسرٍ ليعكس ضياء نيران الموقد الراقصة.

مازال النهار يولّي هارباً.

تماهى تدرّج اخضرار الأشجار مع بعضه البعض في كتلة غير متجانسة مع أن النور لم يخبُ ظاهرياً. اقترب الشلال الرماديّ من مقامه شيئاً فشيئاً فاقداً انعكاسه، تتلألأ القمم المنيرة البهية بنورٍ ساطعٍ وتطلي شُلح السحب خلفها باللون البرتقالي.

- وعدته أن أمد يد العون لهيلين خلال ستة أشهر بعد غيابه. وقّعت معه صكاً لترتيب أوراقه، أفضّل أن أهيّأ نفسي لأشغل منصب معاون الرئيس لمجموعة S.T.C.

أنا بنظره مجرّد موظف مرؤوس، أذن له بالجلوس إلى المائدة لئلا يتناول عشاءه وحيداً. رمقني توكر بنظرةٍ مخادعة وكأن الإهانة الصغيرة التي وجهها لي قد سرّت خاطره. ماذا لو زوّدته بما علمت به في بورغ تاباج...

أخيراً هبط الليل، هبط الليل دون منازع وانزلقت زرقة السماء نحو السواد. غابت الشمس في امتداد غامضٍ بارد. مازال الشلال بانعكاساته الأكثر ألقاً بارزاً وسط الليل. تناولت طبقي دون أن ألقى فيه متعة.

حمل كاو الحلوى. تحدث توكر بلهجةٍ أكثر دماثة، تكرّم بأن يبادلني بعض الدعابات. ضمن هذه الأملاك الغنية بالطرائد، حاول بعض الصيادين المخالفين المتهورين الاقتحام في بعض الأحيان، فتحمّل طوعاً أمر ثني عزيمتهم. سحبه رجل غير مرئي للأعلى، هل عليكم أن

Twitter: @ketab_n

تستفزوا بهذه الشدة لئلا تطأوا أرضاً غير أرضكم، كما حدثني أيضاً عن صيدٍ في نهاية فصل الخريف برفقة شخصيتين مرموقتين متباهيتين، اتجهوا معاً بعيداً عن البيت الريفي في الطرف المقابل للممر الجبلي هناك حيث يلقي القمر الساطع نوره حسبما أشار لي، حينها تحوّل المطر لثلج وعادوا يتخبطون بالضباب، أحدهما لوى كاحله بجذور شجرة، هبط البرد ليلاً من أعالي القمم، وصلوا مع منتصف الليل وأمضى ليلته برفقة ضيوفه المنهكين والصامتين بعد أن تملكهم البرد.

انتهى وقت الأحاديث الجدية وبعد برهة احتسينا فيها الكونياك على الأرائك، اتجهنا كلٌ لغرفته ليخلد للنوم.

في منتصف الليل، استيقظت جرّاء ألمٍ في رأسي بسبب ما تجرّعت من كحولٍ. دفعني الظمأ نحو الطابق الأسفل لأحضر كوباً من الشاي أو الأعشاب. لا يصدر الدرج من خشب البلوط صريراً، ها أنا في المطبخ ولديّ ما أنا بحاجةٍ إليه.

هناك ما بين بابِ المدخل وظهر المدفأة، خزانةٌ فرنسيةٌ ذات خشب غامق اللون ملمّع تماماً، مضاءةٌ بنورٍ منحرف لتلمع بوميضٍ مخملي. لا أدري لماذا جذبني هذا الأثاث المهيب الذي لا يتناغم بحجمه مع غرفة الاستقبال الكبيرة. وضعت فنجان اليانسون جانباً.

ترددت للحظة قبل أن أدور المفتاح الثقيل الغافي في القفل ثم فتحت. لم أؤتِ بما هو سيء حتى ولو كان فضولي في غير مكانه.

وجدت على الرفوف، كما يجب أن يكون، أغطية مائدة وأواني للحساء وأطباق للفاكهة. درجٌ واحدٌ فقط يضم الملاعق والسكاكين والأشواك المصنوعة من الفضة. أغلقت الباب بهدوء وصعدت مجدداً إلى الطابق العلوي.

تجرأت بعد أول تصرفٍ غير مدروس ودخلت غرفة توماس كولبيرت دون أن أفكّر وقلبي يخفق اضطراباً.

Twitter: @ketab_n

فتحت أولاً دروج طاولة الغرفة والصوان وأبواب الخزانة. كل شيء فارغ: لابد أن ملابسه وأشياءه الخاصة قد أُفرغت ورُتبت أو أُعطيت لأحدٍ ما. كان يمضي في سنواته الأخيرة معظم وقته في هذا البيت أكثر مما يقضي في قصره على ضفاف النهر أو منزله في نيويورك. لم يكن هناك أي مكان أكثر حميمية بالنسبة إليه من هذا المكان. تحركت بدافعِ صوتٍ قويٍ بعيد - أي صوتٍ مخادعٍ هذا الذي يهمس في أذني؟- شرعت البحث عن مكامنٍ ممكنة، تحت السرير، خلف الأثاث، على الوجه الخلفي للرفوف وفي الحمّام. لم أكن أعرف عمّا أبحث. ربما رسالةٌ أخيرة أو وصيةٌ سريّة. أرهقت كاهلي الدقائق التي تمر ولم أطمأن لفكرة وجود توكر نائماً على بعد عدة أمتار من هنا. لوّحت لي ذكريات أفلام بوليسية بأساليب ولكن عبثاً. لم ألقَ صدىً خلف البلاط أو نعل الجدران وما عثرت على فتحات مضاعفة كما لم أجد شيئاً في طارد الماء. ماذا أفعل هنا، أفتش في غرفة شخصٍ متوفى؟

يا لسذاجتي، لم أخشَ أن يلمحني أحد! سحبت الستائر ولم أُنر سوى فانوس السرير. لم تفارقني فكرة حجرة سفينة "بريزيدان بوديسين" في هذا النور الخافت الذي تفلت منه الظلال، حطَّ ناظري دون أن أرغب على تلك الستارة الرمادية والكرة الخشبية الشقراء. لا أدري ما السبب، أمسكت بها شعرت بأخدودٍ ناعم جداً، دفعت بالاتجاه المعاكس بكلتا يدي، فأفلتت القاعدة كاشفةً عن كهفٍ صغير يخفي صرةً من الحرير البنفسجي، فتحتها بعد أن توقعت ما بداخلها: ثلاث قطعٍ ذهبية لوجهٍ مكلّل، إنها الأكاليل الثلاثة.

يا للدقة المتناهية! هذا الرسم يبرز بدقة تقاسيم الكسندر أوغست جيرولستان أنهالت ونظرته المتسامحة. ابتسامةٌ خطت وجهه ولم تمسس فخامة اللقطة يشيح الدوق بناظريه جهة اليمين. تنسدل خصل شعره الأشقر على ثوبٍ من الطراز القديم بالكاد تبدو ثنياته ليكوّن علبةً من

Twitter: @ketab_n

الجواهر. أخذت إحدى القطع ونظرت لوجهها الآخر ولاحظت البرج: لم يكن رمزاً بل برجاً حقيقياً مع بوابة محاربين ومتاريس مصقولة بعناية.

لم أفكّر، لم أخمن الخطر وما فكرت إلا بعد برهة بما قال توكر عن غياب كاميرات المراقبة. بكل بساطة، بعد أن زرعت ناظري على وجه الدوق واستحضرت كل أولئك الذين تأمّلوه قبلي، لم يعد بوسعي تركه طي الصمت والنسيان، أطفأت النور وغادرت الغرفة.

عدت إلى غرفتي وما ساورني أيّ شعور بالخزي، استحوذت على الأكاليل الثلاثة كما فعل من قبلي توماس كولبيرت منذ نصف قرن. هذه القطع التي يجهل الجميع مخبأها من حق من يجرؤ على أخذها، بدوري أنا، قمت بسرقةٍ تامة في هذا المنزل الريفي البعيد عن الحراسة.

اكتشفت أو بالأحرى لمست حقيقةً بديهية في عتمة هذه الغرفة المائجة في الجبال، في ملاذ توماس كولبيرت وبين يدي القطع الذهبية التي دسستها تحت وسادتي، عرفت ما جرى حقاً، لا وجود للمصادفات. لم يكن "لوسكان" ضحية حادثٍ مأساوي أو سلوكٍ أخرق لا مبرر له بعد مضي عدة أسابيع من رسوّهم في بورغ تاباج وسطوهم المثمر. انتهز كولبيرت اللحظة المناسبة في كبد الليل فدفعه من أعلى السفينة عندما رآه قادماً بعد أن أنهى دوره في الحراسة. لم يتلقَّ أي لكمةٍ على ظهره لابد أنه أفقده وعيه بضربة من قضيب حديدي فوقع الرجل المقدام الضخم أرضاً. سقط جسدٌ من حافة السفينة، "بُم" صوتٌ لم يسمعه أحدٌ مختبأ بضجيج المحركات، هكذا ابتلعت مياه الأطلسي الباردة لوسكان في شهر شباط.

كان القاتل يعلم أين يخبئ شريكه أوراقه ونتاج خططه وتهريبه في كل رسو وكذلك القسم الآخر من العملات والمجوهرات المسروقة من فيلا رايموند.

Twitter: @ketab_n

إذاً هكذا تخلّص ذاك الرجل - الذي يتصوّر وهو يسلخ أيلاً - من صديقه ونهب جواز سفره وكنزه ثم في اليوم التالي شارك بحماس ببحث عديم الجدوى.

لم تعد نيويورك بعيدة وهناك سيغادر ويضيع في الزحام ويبدأ حياةً جديدة مبنيةٌ على لقاءٍ منقطع النظير وسرقة وجريمة قتل: ثلاثة أكاليل. أصبحت بحوزتي هذه القطع التي دُفع ثمنها بتلك الطريقة.

استيقظت في الثامنة صباحاً بعد ليلةٍ هانئة في أعلى الجبل. اتجهت إلى القاعة وجلست إلى مائدة الفطور.

وصل توكر ما إن أنهيت فطوري. سترته ملطخةٌ بالدم من الكتف إلى الخصر كما أن حذاءه وبنطاله ممرّغان بالوحل، عيناه تلمعان وعلى وجنته اليمنى لطخة دم.

- إذاً؟ ماذا فعلت؟

- أيلاً ذا ثلاثة أعوام قرب الشجرة الجافة قبل الجرف الصخري الصغير بقليل، انتزعت الفخذين والفتائل، سيتركها كاو حتى ترشح خلال يومين.

نظّف بعناية سهمه وسكينه وأعادهما للغمد ثم اتجه نحوي. أدركت أنه ما وصل إلى البيت الريفي ليتسلى وإنما ليراقبني ما الذي كان سيحدث لو أنه نهض باكراً؟.. سألته في أي ساعة غادر، لم يجبني، لكنه قال بجفاء:

- أما وجدت ماكينة حلاقة في الحمّام؟

لمست خطأي للتو ووضعت يدي على ذقني للتأكد من المظهر.

- بلى، هناك كل ما يلزم.. ولكن.. فكرت أن..

منعتني نظرته من متابعة الحديث، شرب دون أن يؤتي بأي تعليق كأس عصير الكريفون وجاء ليجلس مقابلي ليثبتني بمظهره الغامض.

Twitter: @ketab_n

هل أمضى ليلته بالتفكير أم اقتصر على جولته الصباحية؟ هل سيكون اليوم لطيفاً أو مُحقّراً؟

دخل كاو ومعه ظرف، فتحه وقرأ الرسالة، أخذ عدة ملاحظات ثم أعادها. غادر الخادم دون أن يتفوّه بكلمة. تناولنا غداءنا بهدوء، فقدت أي رغبةٍ لي بالطعام. طرح فوطة الطعام جانباً، نهض وقال لي:

- هلا رافقتني بالنزهة الصباحية التي كان توماس كولبيرت يقوم بها سواء أمطرت أو هبّت الرياح.

وقع أمره بجفاء، عثرت في المدخل على أحذية جبلية لابد أن تناسب مقاس قدمي، سلكنا الدرب الضيقة التي تبتعد عن البيت الريفي. رسمت الأشجار المتباعدة ونور الصباح الملحاح مع الشمس التي تلاعب بقع الضوء لوحةً خلابةً لرونوار. بعد عشر دقائق والتفافين، كنّا في أحضان المكان.

- بنى منزله أسفل الجرف وشقّ أغلب الطرقات والدروب. هذا الدرب بالكاد يرتفع وهو الأخير الذي بقي سهلاً عليه في السنوات الأخيرة.

أيضاً بعد حوالي ربع ساعة من السير الهادئ والهانئ، أفضى بنا الدرب إلى مقصورةٍ مجهزة: من الجهة اليمنى يمتد وادي على مرمى النظر ومن الجهة اليسرى الشلال الذي ينهمر بصخبٍ عالٍ عن بعد أكثر من خمسين متراً في بركة لينقسم لشلالات صغيرة قبل أن يتحول لسيل، هناك ينتظر مقعدٌ خشبي المتنزهين.

- كان يوجد هنا ملجأ للصيادين، فكّر بادئ الأمر أن يوسّعه ليبني منه منزلاً ريفياً حقيقياً على هذا المرج الصغير. كان محقاً بأن قوّض هذا الركام وبناه بعيداً. رؤية الشلال دائماً والاستماع لخريره دونما انقطاع.. أظن أنه من الأفضل لو تفصلنا عنه بعض المسافة ونتردد

Twitter: @ketab_n

لزيارته من حين لآخر. يجمّد الشتاء كل شيء ليصبح الشلال عموداً من الجليد الأزرق مؤثّراً جداً.

اتكأت على جذع صنوبرٍ عمودي وأمعنت النظر في كل الاتجاهات. تتلاقى قمم الجبال مع الأفق لتوحي بعقد جلسةٍ مغلقة. لا شيء يمكنه أن يشوّب صفاء هذا المشهد لا صوت إلا خرير الماء الوديع. ظهر سنجاب عند قدمي، نبش للحظة ثم قفز إلى شجرة سرو.

استدرت لألحظ صخرةً هائلةً مغطاة بالطحالب وملتوية كنقشٍ ياباني، أسفلها تلةٌ مستطيلة الشكل ومزروعة بالعشب، تبدو حديثة وصنع يدٍ بشرية تعلوها صفيحةٌ من حجر رمادي. لا شيء يوحي بمأتمٍ ولا حتى بحزنٍ بسيط.

اقتربت وقرأت النقش:

Thomas Colbert

هكذا اختار توكر النهاية لنزهتنا وليومين قضيتهما في الجبل، نهاية هذه المغامرة التي ظهرت فيها محض صدفة كممثلٍ صامت أكثر من الحارس حامل البلطة في عرضٍ مسرحي. بقيت جامداً احتراماً، تصرفاً بدا لي محبباً. وفي جيبي أتحسس ثقل الأكاليل الذهبية الثلاثة. التزم توكر نفس المكان كأحد أسلافه السلوقين يقدم ثمرة صيده لروح شامان المتوفى في هذه السهوب المترامية.

- اختار هذا المكان مرقداً أخيراً له، بالضبط في محور الوادي مع شروق الشمس.

- هذه الجبال لرجلٍ كرّس حياته للبحر والتجارة البحرية.

ربما يأتي مالكولم برفقة لويز يوماً ما إلى هنا، ترى ما الفكرة التي سيكوّناها عن جدهما ومن سيرافقهما؟

- أتدري أعطيته الملاحظة نفسها. فقال لي أن البحر لم يكن يوماً للراحة، إنه يطرح عليك الأسئلة باستمرار. كان يسخر من أولئك

Twitter: @ketab_n

المتقاعدين الذين يمضون ما تبقى لهم في فلوريدا أو نيس يتأملون تعاقب الأمواج. كيف لنا أن نتأملها ونبقى هانئين على الشاطئ؟ يدفعك البحر للتحرك. ليست هذه القمم من حولنا شاهقةً كجبال الألب لكنه اكتفى بها. عرف أسماءها وأذكر أنه حفرها في أحد الأيام. الأمر في غاية البساطة، رغب أن يبقى دائماً في كنف هذا المنظر الطبيعي.

ترى أي فترةٍ من ماضيه دفعته ليهرب هكذا بعيداً عن العالم نحو الأبدية؟

- لا تاريخ ولادة أو وفاة على الشاهدة؟

- كلا، هذا خياره.

لاذ بصمته طيلة درب العودة ولم أجرؤ على مقاطعة تأملاته. حمل كاو فنجانين من القهوة إلى الشرفة، ما إن وصلنا وكأنه لبّى نداءً خفياً. احتسينا قهوتنا والشلال يتدفّق أمام ناظرينا.

- لو أردت الوصول إلى منزلك قبل حلول الليل لابد أن تغادر الآن. ستمتطي صهوة الخيل مجدداً، لا تسلك الدرب المختصرة بل الطريق المرسومة لتصل خلال ساعتين، سيصطحبك السائق. أفضت مهمتك للنهاية، هيلين كولبيرت بانتظار تقريرك خلال الأسبوع.

استأذنت بالانصراف وارتديت زي الفروسية لألتقي بهيزر في الاصطبل. ساعدني كاو بتسريجها واصطحبتني بهدوء على الطريق. حضَرت هيزر بظرافةٍ فرحة بخروجها من الاصطبل بل حجلت بلطفٍ رفقاً بي. بعد ساعةٍ تقريباً، وصلت إلى القصر الريفي وتناولت طعام الغداء. ثم سلكت درب نيويورك دون أن ألقي نظرة واحدة إلى الخلف، لم يتلاشَ شعوري بأنني أعيش حلم يقظة إلا عندما فتحت قبضتي وتأملت مدهوشاً الأكاليل الثلاثة.

Twitter: @ketab_n

- ٢٠ -

حظيت في اليوم التالي بمتعة التسكّع الطويل في شوارع المدينة. لم يكن اليومان الذين أمضيتهما مع توكر بالصعوبة التي تخيلتها لكنهما عادا عليّ بنفعٍ وفير. أتحسس الربح الثلاثي للمنتصر غافياً في جيبي. تبدو الزوبعة المعتادة في شوارع "منهاتن" مضبوطة الإيقاع كنغمٍ في مقطوعةٍ موسيقية.

مع هذا نزلت صفر اليدين، ما عثرت في تلك الجبال على ما يفسّر لي اختيار توماس كولبيرت بسرد رسوه وترك هذا النص ذي الألغاز بعد غيابه.

لدى عودتي إلى منزلي، وجدت بطاقةً بريدية بانتظاري من بورغ تاباج، أرسلها فريدريك ليشكرني أني تركت له أمتعة التنزّه وقد تلمَّس الراحة التي تهبها خلال خروجه في الليل لمراقبة الدلافين. اعتذر أنه لم يرسل إليّ سابقاً حيث انشغل بإعادة تأهيل حديقة الفيلا بعد إعصار ريتا الذي ضرب نافثاً ريحاً صرصراً واستغرق ذلك عشرة أيام من العمل الدؤوب. المنظر الخلاّب لخليج البحّارة مع قواربه زرقاء اللون وتلك الطوابع التي تحمل ألوان مناظر بورغ تاباج، تلك العظاة ذات اللسان الطويل الأخضر والجاثم بريشٍ أحمر ورمادي، جميعها تضافرت لتبعث في قلبي الحنين.

شغلت وقتي لثلاثة أيام أوراق موكلي ١٠٧ . أتاحت لي رحلةٌ قمت بها إلى بوسطن لحسابه الخاص بحضور مؤتمرٍ على قدرٍ كبير من الأهمية يدور حول "ما بعد الأزمة" حيث تأملت متابعة ما حصلت عليه من معلومات في بورغ تاباج.

Twitter: @ketab_n

تجاذب وزراءٌ قدامى ودبلوماسيون وجنرالات متقاعدون وجامعيون وصحفيون أطراف الحديث ببراعةٍ حول شروط إحلال السلام. هدهد لي يقينهم في زوايا قاعة المحاضرات الرغيدة.

كرّست فترة بعد الظهر لدراسة الوضع، وصلت في اليوم الثاني، حيث حلّل ثلاثة مشاركين بالتتالي الأوضاع في كوسوفو وأفغانستان وبورغ تاباج. عسى أن يسامحني سكان كوسوفو وأفغانستان فمصائبهم لا تعنيني، أنا عاجز أن أتأثر على عدة مسارحٍ بآن واحد.

أتى أستاذٌ من ترينيتي من جامعة دوبلن على ذكر بورغ تاباج. يقدّم بحثه بشكل أكاديمي كامل، دوافع الاضطرابات وتطوّرها والخيار المشترك بإسكات الأسلحة والتوازن الحالي الهش، لم يأتِ على ذكر اسم بنجامان توبيا سوى مرة واحدة. تمكنت من فهم روابط القوى والتهديدات بشكلٍ أفضل والتحالفات وانقلاباتها والقرار أحادي الجانب باللجوء إلى العنف والقرار الجماعي بإنهائه بالإضافة للأسباب الباعثة على الخوف والأمل بآن واحد، ومع هذا فما وجدت في هذه اللوحة التي يرسمها بدقةٍ وبراعة بورغ تاباج تلك المدينة التي تنزهت في ربوعها؟ ولم أجد غضون لوسين اليزابيث ولا مرارة الكسندر شانر أو جاكلين سيرول ولا مشاعر الأسف والتفاؤل التي لمستها عند فريدريك، لم يخفق قلبي إلا للذكريات التي جمعتها.

غادرت بوسطن بمزيدٍ من المعلومات وعميق التأثّر. برهن أيضاً الاختصاصي الإيرلندي النابغة من جهته السلام الهش المحقق، فالتسوية التي وضعت حداً للاضطرابات لن تعيش إلا لأسابيع وأن صدمة مفاجئة ستؤدي لانهيار ذاك الصرح المعماري الزجاجي وبلحظة.

لعل المكاشفات التي أسرّها وحدي تطلق عمليةً كارثية غير عكوسة. أقيس أبعادها كل يوم أكثر.

Twitter: @ketab_n

(كرّس صباح يومٍ بأكمله للبنان، عرض عدة محاضرين تاريخ بلدي الذي خلت أنني أعرفه حق المعرفة بسماعه يروى على مسامعي مراراً ويرثى لحاله إلا أنني علمت الكثير.

قدّم أحد المتقاعدين من مجلس الدولة عدة محاولات لإحلال السلام تكررت على مرور عقدين من الزمن كان لها أن تغيّر مجرى الأحداث، شرحها بتفصيل دقيق وحلّل أسباب فشلها المتوقع، تحدّث عن مراحل المناقشات السرية والآمال الوليدة والمناورات التي تجري في الظل وعن المستشارين الخفيين.

هل كانوا أولئك الرجال الذين يأتون إلى المنزل مساءً ليتحاوروا مع والدي؟

قطّع تنقيحه لهذه الفرص الضائعة بعباراتٍ صغيرة قاتلة. لم أنتظر أن ينهي إحدى عباراته بـ: "من يذكر إيميل زافار؟").

جلست في مكتبي لدى عودتي إلى نيويورك. جمعت الأكاليل الذهبية الثلاثة بعناية وسط أول ورقة حرّرها توماس كولبيرت مثل إحدى الأعمدة المؤقتة التي يتقن مدير القمار إنشاءها ودفعها نحو اللاعبين. عليَّ أن أنهي قضية كولبيرت وكذلك قضية الموكّل رقم ١٠٧. لم أعرف بعد من هو الموكّل رقم ١٠٨ ولكن حين سيتصل بي سيحظى بدوره بكل مهارتي.

اعتمدت على ما سجلت من ملاحظات منذ اليوم الأول وكتبت تقريراً من ثمانية صفحات وأرسلتها إلى جون توكر: مقالٍ عن يومٍ أمضاه توماس كولبيرت في رسوّه في بورغ تاباج. أضفت ملحقان تلخّص عمله كبحّارٍ في أسطولٍ تجاري وأساليب الدكتور غراموند وتميز أكاليل الكسندر أوغست جيرولستان أنهالت ودورها في تأسيس مجموعة S.T.C.

Twitter: @ketab_n

لم آتِ على ذكر عائلة توبيا . اخترعت بحوثاً ضاعت هباءً ووصفت أساليب بمعالم خاطئة وخلصت إلى استحالة تقفّي أثر طفل هذا اللقاء. لو ساور هيلين كولبيرت أملٌ بأن أقدّم لها ابن المرحوم زوجها لأصيبت بخيبة أمل.

كما أنني لم أذكر ولو بكلمة واحدة فانوس السرير.

ماذا كانت لتفعل أرملته لو بحت لها بكل ما في جعبتي؟ لو اختارت أن تكشف السر على الملأ لفقدت حصتها من الميراث. لا يمكنني وضع مستقبل بورغ تاباج على فرضية جشعها . لا حلّ أمامي سوى الصمت. شعرت بنوعٍ من المتعة في هذا الكتمان الإجباري. أعلنت نفسي حارس السلام في بورغ تاباج وتلذذت بكل أصداء هذه العبارة الجميلة. لم أشعر أنني أقل شأناً من بطل ولم أكن بطلاً سوى بنظري أنا وحدي. فليغطّي الغبار صناديق الأرشيف في فيلا رايموند، آمل ألا يهزّ سر روبرت توبيا وليون سيرول شيء وليبتلع البحر آثار مخر سفينة بريزيدان بوديسين.

ما إن تلقى جون توكر تقريري حتى سدّد لي أجرة عملي ومصاريفي بل مع علاوة وقدرها سبعة آلاف دولار، وبكلمات موجزة حمل إليّ شكر هيلين كولبيرت.

هذا كل شيء لا أكثر. سوّيت القضية.

(أخفوا عني الحقيقة أنا أيضاً، يخفي حادث سيارة والدي قصة مأساوية أكثر ولن يرويها لي أحدٌ أبداً .

احتميت من هذا السر عندما كنت صغيراً باختراع الأساطير. أدرك تماماً في أعماقي أن هناك مؤامرة لطيفة حبكها البالغون لإقصائي عن الحقيقة.

عندما كنت في سن المراهقة، تخيّلت أن والدي ضحية محاولة اغتيال مثل بنجامان توبيا .

Twitter: @ketab_n

وضعت شرطة كاليفورنيا هذه الفرضية بادئ الأمر ثم استبعدتها بسرعة، حتى المعلّقون الأكثر صلافةً أو الأكثر نضالاً في الاضطراب اللبناني وخبراء المؤامرات لم يصدقوا، للأسف، لم تتم تصفيته.

منذ أن أقمت في بورغ تاباج، لم يعد بوسعي الاكتفاء بصمت الآخرين. ربما يمكنني الاتصال بعمتي سوفي أو ابن عمتي إدوارد وأرهقهما بأسئلتي، وهم ويكل لطف سيسهبان بالحديث عنه وينتقيان مفرداتهما بحذر متحاشيين هذا أو ذاك السؤال. لا يمكن ألا يعرف الابن الثاني لإيميل زافار وهو اليوم بالغٌ المأساة التي صادفت والده. ما الفائدة من هذا الحوار إذاً؟ هل لي أن أرغمهما بالقوة أن يلفظا كلمات مرعبة لم يقلها لي أحد؟ كل من علم بحادث السيارة فهم، وعليَّ أن أفهم بدوري من صمتهم.

لو رغبت أن أتحقق من شكوكي ليس لي سوى البحبشة في دروج مكتبه. قد أعثر على مراسلاته وأرشيفه وكل ما يتعلّق بالتزاماته. قمت بهذا العمل لمئة وسبعة متوفي حسب أسلوب هذا الاختراع: "قيّم على الوثائق الخاصة" ولكن يبدو لي العمل هنا مستحيلاً.

كنت أعلم بل واثقاً أن والدي آثر أن ينهي أيامه بيده لأسباب تتعلق بمعادلات لا حلّ لها في حرب لبنان وتفاصيلها العميقة لا تعنيني.

Twitter: @ketab_n

- ٢١ -

استيقظت في عتمة الليل من ألمٍ في بطني جراء الضيق الذي يكبت أنفاسي. ماذا فعلت؟ جعلت من توماس كولبيرت وبنجامان توبيا غرباء حقيقيين بالتزامي الصمت. فصلت الابن عن أبيه بشكل قاطع، باسم ماذا؟ بأي شرعية بأي إثباتات؟ أنا مجرّد قيّم على الوثائق الخاصة ولم يكن إطلاعي بهذه العلاقة النَسَبيّة سوى محض صدفة. لماذا أظنّ أنه يسمح لي تقرير أي شيء؟

لم يعد بوسعي مجابهة هذه القصة بمفردي. أشعر بضرورة مقاسمته مع أحدٍ ما. ولكن من عساه يكون؟ دحضت فكرة أن أبوح بشيء لهيلين كولبيرت. لن يقاوم جيم بولندر فضح سرّ يدوّي كالرعد.

فقط سكان بورغ تاباج من يتفهمون بل لعلهم يمدّون لي يد العون.

قلبت صفحات ذاكرتي لأختار اسماً ممن التقيتهم هناك فانتصب في وجهي اسم الكسندر شانر، كان يلزمني مؤرخاً لأوازن بدقة المعطيات والرهانات. فكّرت طويلاً بما يمكنني أن أقول له دون أن أبوح بكل شيء. اتصلت به وأنا على ثقة أنه لم يخلد بعد للنوم.

بعد عبارات تتعلق بآداب الحديث وتعليقٍ موجز حول إعصار ريتا، دخلت بصلب الموضوع.

- اتصلت بك مجدداً وأنا أسألك الكتمان المطلق لحديثنا.

- أثرت فضولي.

- خلصت في بحثي لنتائج قد يكون لها آثار سياسية جديّة في بورغ تاباج.

استأت في نفسي أن أسمع كلماتٍ طنّانة كهذه تخرج من فمي.

- سحقاً! ولكنك بالكاد تعرفني...

- التقينا صدفةً في مقهى، خلال تناولنا طعام العشاء معاً جعلتني أرى وأشعر بالمحن والظنون والضيق الذي كابدتها في حياتك. إذاً وجدت فيّ شخصاً حريّاً بالثقة. إنها ذات الثقة التي أكنّها لك.

Twitter: @ketab_n

- حسناً، أعدك أن أمسك لساني، عما ترغب أن تتحدث؟

- عن بنجامان توبيا.

ما لفظت بعد كلمات لا تردّ ولكن عندما قدّرت كلماتي أدركت أنني تجاوزت الخط الخفي الذي لا يحفظ خط العودة.

- ربما بنجامان توبيا ليس ابن روبرت توبيا بل ابن بحارٍ عابرٍ أصبح فيما بعد لامعاً في أعماله. توفي هذا الرجل تاركاً ثروة طائلة. لم أبح بعد لأحد بهذا. إن التزمت الصمت لحرمت لويز ومالكولم من حقوق بإرث جدهم، وإن بحت أخشى من نتائج إشهارٍ كهذا على الاستقرار الحالي لجزيرتكم. هذا الخيار يثقل هامتي، هدفي الوحيد بإعلامك به هو أن أضع النهاية بصوتٍ عالٍ مما يواسيني. هل تظن أن كشف حقيقة ولادة بنجامان توبيا يعرّض التطوّر الحاصل منذ نهاية الاضطرابات للخطر.

لم يجب. خلتُ أنني سمعت أنفاسه بيد أنّه لم يتفوّه بكلمة. احترمت تأملاته لخمس دقائق ثم جازفت بحياءٍ:

- ألو؟ هل أنت معي؟

- صديقي العزيز، قلت لي في البدء أنك بيننا للقيام ببعض الأعمال وبعض الأبحاث عن سنوات الخمسين ثم أخبرتني بأنك صحفي في مجلةٍ أميركية وسألتني عن توضيحات تتعلق بالنادي المدني و.. وأبواق جيريشو. وها أنتذا تطرح علي سؤالاً مثيراً للريبة، ألا تعتقد أنه حان الوقت لتلعب بشكلٍ مكشوف؟

- لكن، قلت لك...

قاطعني ليسألني ببطء سؤالاً شدّد على مقاطعه:

- أنت تتحرى عن خَلَفٍ لتوماس كولبيرت.

أشهد لو أن صاعقة نزلت على البناء لما تسببت بصدمةٍ أقوى من تلك التي أصابتني لدى سماع هذه الكلمات. التزمت بدوري الصمت مذهولاً عاجزاً عن التفكير أو لفظ كلمة. تابع الكسندر شانر حديثه متوقعاً الحالة التي تملكتني:

Twitter: @ketab_n

- إذاً نحن اثنان نتكتم على سرٍ واحد، فمنذ غيابه كنت الوحيد الذي يعرفه. أنا سعيد بأن يشاركني السر أحدٌ مجدداً وسعيد بأن أتقاسمه معك.

- ولكن... لكن كيف عرفت تلك القصة؟

- من الواضح أنني أسبقك بعدة خطى، يبدو لي أن عليك أنت أن تبدأ وأعدك أن أتحاشى طرح الأسئلة بدوري.

أفحمني، اعتذرت له ثم بدأت بحديثٍ متردد عن كل ما حدث معي منذ بدأت بترتيب أوراق موكلي ١٠٦ .. كابدت في البداية ما ينتاب المتهوّر الذي يلقي بنفسه على بحيرة متجمدة حين يتكسر الجليد بثقله. انسكبت عمودياً في غياهب مجهولة بعنفٍ يقارع عنف من يتخبّط في مياهٍ باردة سوداء، رويت له كيف وصلت إلى هذه الحكايا، لم أهمل أي تفصيل ولا أي ممثلٍ مأخوذاً بنشوة بوحٍ غريبة يصعب مجابهتها. أناجي نفسي وحيداً في شقتي مع شخصٍ مجهولٍ تقريباً تفصلنا آلاف الكيلومترات.

يسير رجل يوماً بأكمله حاملاً كيساً ثقيلاً اعتادت عضلاته على وزنه حتى أن وزنه يثقل خطاه إلا أنه لا يتأثر. لدى وصوله إلى المحطة يلقي حمله جانباً فتتحرر مناكبه وظهره عندها فقط يشعر كم كان يحمل على عاتقه.

رميت في هذه الليلة الطويلة تلك القصة عند قدميه وشعرت بخفّة عرّت أمام عيني كم كنت أرزح تحت وطأتها منذ اليوم الأول ولم أعدٍ أطيق به صبراً.

طلب مني أن أروي على مسامعه نص توماس كولبيرت ثم قراءته مجدداً وبعدها وصفت له بدقة الكتابة وغياب الشطب وتركيب الصفحات.

سألني عن موت لوسكان، أكدت له أنه مجرد تخمين لا يتكأ على أي كلمةٍ في مذكراته.

Twitter: @ketab_n

طرح عليَّ العديد من الأسئلة حول الوضع الخدمي للبحار في البحر وعن السطو وعن الأرملة وعن ثروته الطائلة كما سأل عن سُداد عام ١٩٩٦ وعن ترتيبات الوصية.

كما سأل عن أكاليل الكسندر أوغست جيرولستان أنهالت وعن مقال الأستاذ برونفمان، وعرّج على مهنتي الحقيقية.

ساد صمتٌ بيننا عندما انتهينا، صمتٌ مختلفٌ هذه المرة إنه خطيرٌ يشوبه الإحساس بالمؤامرة وفيه بعض الحميمية.

(فكّرت بوالدي بهذه اللحظة. كل من حولي فهم ما جرى يوم الحادث. ليمحي الخطاب في الكنيسة أواخر الشك. ناح الراشدون أمام أبناء الفقيد حول الحادث الغامض بتعاطف متواري.

لم يخبرني أحد، بسبب عمري. كيف لهم أن يتحدثوا عن حادث انتحار لطفل؟ ما طلبت غير ذلك من شركاء المؤامرة ولا من الأقرب والدتي أو أخي. لو كنت في مكانهم لاحتفظت بالسر.

الشفافية، هذا الصنم الحديث ذو عينين طاغيتين).

التقطت أنفاسي وتجرأت على إنعاش الحديث:

- و... وأنت؟

- وأنا؟

- كيف علمت بالعلاقة التي تربط بنجامان توبيا وتوماس كولبيرت؟

- من فم هذا الأخير.

تنحنح لأتخبط بأفكاري في حين لم أكن واثقاً مما سمعت.

- بدأت القصة عام ١٩٩٦ باتصالٍ من مجهولٍ في نيويورك يدعى كولبيرت، شرح لي خلال مسألة شخصية قديمة ومعقّدة، لم أستوعب منها شيئاً في البداية كما أنني لم أعره أذناً صاغية. قاطعته بعد عدة دقائق لأقول له أن يبحث عن غيري، اكتشفت لاحقاً أنه لم يحدث أن قاطعه أحد منذ أكثر من ثلاثين عاماً.

اقترح لي قبل أن أغلق السماعة أن افتح باب منزلي، ناولني الساعي ظرفاً فيه مبلغٌ من المال... لم يكن منطقياً وحسب بل غير معقول. أكابد

Twitter: @ketab_n

مرحلةً صعبة على كافة الأصعدة بعد طلاقي وبهذا المبلغ صار بوسعي أن أصغي باهتمام. كان توماس كولبيرت يتقن إقناع الآخرين.

كرّر على مسامعي أنه أمضى عدة أشهر في بورغ تاباج عام ١٩٤٩ وربطته علاقة مع امرأة فاتنة من الطبقة المخملية.

- هذا خطأ!

- أخبرتني لتوّك، لكن آنذاك لم يكن لديّ سبب للشك بروايته. رغب أن يعثر على أثره ويعرف إن نتج طفل من علاقته بها. عارضته بالمبدأ وبطريقة ذات برهان بأنني لست محققاً خاصاً. تملّق لي وذكّرني بشهرتي كمؤرخ واحترم الضرورة الماسة العلمية... كما وعدني بمزيدٍ من الظروف. براهينه الحاضرة أفحمتني. وفي النهاية إنه حرٌ في صرف ماله بأبحاث عابثة. ما ابتززت مال أحدٍ في حياتي وما خدعت أحداً، علَّ هذا يخلّصني من ورطتي...

زوّدني ببعض التفاصيل، لم يكن يعرف اسم عشيقته السرية الحقيقي إذ كانت تستخدم أسماء مستعارة مخادعة... الإشارة الوحيدة التي بحوزته هي المكان الذي كانا يجتمعان فيه. وصف لي بغموض الدرب المنطلق من المدينة المنخفضة والحديقة المسوّرة والحديقة المطلّة على أجراس الكتدرائية والبحر كما وصف لي منزلاً طابقياً من الخشب مع شرفة وغرفة كبيرة مع لوحات.

- فيلا رايموند...

- لم أكن أعرف بعد. قال لي حينها أنه سيتصل بي بعد حوالي خمسة عشر يوماً، مزوداً ببعض الإشارات وخريطة بورغ تاباج تعود لعام ١٩٤٧، انطلقت بالبحث وكلّي ثقة بأنني لن أصل لشيء. استبعدت شيئاً فشيئاً المنازل المنافسة وكم أسفت حين استبعدت من القائمة قنصلية الولايات المتحدة. كم تمنيت لو أنه غافل دبلوماسياً. ما تبقى سوى فيلا رايموند عندها أدركت أنه أمضى أمسياتٍ في أحضان إرنستين توبيا.

Twitter: @ketab_n

أعترف لك أن مهمتك أصعب من مهمتي وأن تتقفى أثر عائلة توبيا عبر جردٍ ممنهج للولادات الواقعة ما بين أيلول وتشرين الثاني من عام ١٩٤٩ ... أحييك!

هنأني باتصاله الثاني بما توصلت إليه وأرسل الساعي العجيب إلى باب منزلي ليضع بين يدي مبلغاً محترماً وطلب مني أن أجري أبحاثاً حول هذه العائلة وأرى إمكانية وجود طفل.

هذه المهمة كانت أبسط بالنسبة لي إذ أعلمته باتصاله الثالث مقابل أُعطيته الثالثة أن الزوجين توبيا لم يرزقا بطفلٍ خلال سبعة أعوام بعد زواجهما حتى رزقا ببنجامان الذي ولد في ١٣ تشرين الثاني عام ١٩٤٩. بدى له هذا التاريخ مهماً جداً.

- طبعاً! بعد تسعة أشهر من آخر رسولٍ له في ١٩ كانون الثاني...

- لم يقل لي ذلك. أضفت أن بنجامان توبيا يعمل كرئيسٍ نقابي ثم قائداً لحزب سياسي. أصغى إليَّ وأنا أشرح بالتفصيل اختياراته وطلب مني أن أحمل إليه صوراً وكذلك أي غرض يخصّه، بالطبع ليقوم بفحص D.N.A. ترددت لأنني أخرج أكثر فأكثر عن دوري كمؤرّخ. إنه ملحاحٌ بعض الشيء لا يمكنني أن أقول بأنه يتوعّد، ليس بحاجة ليصل لهذا فهو رجلٌ لا يرفض له طلب.

وافقت بأن أحاول وعبر صديقٍ لي في نقابة المعلمين حصلت على رسالةٍ مكتوبة بخط يده، أخذها الساعي.

بعد مضي شهرين اتصل بي مجدداً توماس كولبيرت ليخبرني أن بنجامان توبيا ابنه... فوجئت بهذا الاعتراف بل وما فاجئني أكثر هو نبرته الباردة الخالية من الانفعال. إنه يخبرني بحادثٍ، ما علمت كيف فكّر بالأمر، سألني عن تفاصيلٍ حول المعترك الذي يقوده فأسهبت بالتقديم.. محايدة مثل تلك التي وجهتها لك.

- كان ذلك قبل الأحداث...

Twitter: @ketab_n

- تماماً، لكنني كنت أرى الخطر المحدق بل وكان يرعبني. لم يخطئ كولبيرت: دفعتني أسئلته الدقيقة لأبوح له بالمخاوف التي يثيرها بنجامان. وطالما أنه مستمر بعطاءاته الكريمة نحوي يمكنه أن يفكّر كما يريد.

التقط أنفاسه وللم ذكرياته، سمعته يشرب ماء. مازال الوقت ليلاً في نيويورك. فقدت معنى الزمن كلياً. تابع حديثه:

- لم أكن أعلم حدّ الثراء الذي ينعم به كولبيرت. بالطبع ما علمت أيضاً أنه في منتصف عام ١٩٩٦ صار يبحث عن سداد حسابه وعن تسوية إرثه. اعتراضي كان أنانياً ومحدوداً لن يتوقف عنده فضوله وسخاءه.

ما توقعت أن يتصل بي مجدداً بعد أسبوع، أخبرني بصوته الخافت أنه اتصل به.

- تحدث الأب والابن.

ما تخيلت أبداً خلال عشرات الساعات التي كرّستها لبحثي مشهداً كهذا.

وبعد اليومين اللذين أمضيتهما في المنزل الريفي في فيرمون الذي يحيي بكل مرافقه ذكرى توماس كولبيرت، توقعت أن هذا الحوار أفضى لنتيجة سيئة.

سارت الأمور بسرعة أكبر من أن أستجمع أفكاري.

- تحدثا مرةً واحدة في أيلول أو تشرين الثاني من عام ١٩٩٦، لكن الأب لم يكشف ما يربط بينهما، قدّم نفسه كثري مستثمر في عالم البحار وأراد استشارة رجل سياسي ذي تأثير حول مستقبل بورغ تاباج لخمس أو عشر سنوات، قدّم له بنجامان نظرياته النقابية ودفاعه عن حقوق سكان الجزيرة. اعتلت أصواتهما بعد دقائق. تحدث أحدهما عن الاستقرار الضريبي وإخراج رؤوس الأموال والآخر دافع عن العمال ونظام الاقتصاد الموجّه وأولوية سكان الجزيرة بكل المناصب بتهديدات بإضرابات صارمة. بالنسبة لبنجامان توبيا إنها مجرد مرحلة ضمن مراحل أخرى تتعاقب في موقفه السياسي.

Twitter: @ketab_n

طلب مني فيما بعد توماس كولبيرت أن أقدّم له تقريراً عن عائلة بنجامان. ذكرت زواجه وأبناءه الاثنين. كانت هذه المرة الأخيرة التي أسمع فيها صوته، أخذ مني وعداً بأن أبقيه على علمٍ بكل ما يجري لاحقاً، وافقت إلا أنني ما وجدت أن أنبئه به.

- في عام ١٩٩٩، أرسلت له مقتطفات من الصحف تتحدث عن اغتياله اكتفى بإيداعٍ بنكي أخير كجواب.

تلقيت إخطاراً بوفاته منذ أربعة أشهر. لابد أنني كنت على لائحة النشر. صمت ليفسح لي المجال بالتفكير بما أخبرني به، كنت ضائعاً، اختلط كل شيء في رأسي. كل المعطيات التي خلت أنني أعرفها حق المعرفة أعادت تراكبها أمام ناظري لتشكّل لوحةً جديدة كلياً.

- ألم يطلب إليك شيئاً آخر؟

- كلا، بحت لك بكل شيء كما اتفقنا وكما فعلت. إنه لمن المستحيل نسيان أي حوارٍ معه مهما كان مقتضباً. وما أدركت كم حرَّف الحقيقة بمهارة إلا بعد أن أصغيت لروايتك. بفضلك عرفت قصّة البحّار كولبيرت الحقيقية، بدت لي أكثر تشويقاً.

ركّزت أفكاري وسألت:

- هل كان محض صدفة لقاؤك بي في "المقهى الكبير".

- بالتأكيد! إلى أين ذهبت بأفكارك! أنا أترصّد دائماً الوجوه الجديدة والعقول القادمة من الخارج. كيف لي أن أحزر منذ اليوم الأول لوصولك ما تجهله أنت نفسك؟.

لا يدحض منطق ملاحظته هذه، تجرأت أن أسدي بفكرةٍ خرقاء غير مهذبة.

- هل تحدثت عني للشرطة؟

- عنك؟ للشرطة؟ ما هذه الفكرة الغريبة! وماذا أقول لهم؟

- كلا، لا شيء، اعذرني.

Twitter: @ketab_n

يبدو أن محقق الشرطة الأعرج والمؤرّخ ليسا من الفرقة نفسها رغم أنهما يتتبعان الهدف نفسه.

- صديقي الشاب، إنني لا أفهم أسئلتك، لم أكن أراقبك! مهما شطح خيالك فأنا لا علم لي بأي مؤامرة كونية تدور حولك أو تصب عندك...

انحنيت للعاصفة، لكنه تابع:

- بالطبع، أنت لست مألوفاً لجزيرتنا الصغيرة. هنا لا خيارات متاحة دائماً. بحث توماس كولبيرت عن مؤرخٍ والتقى بي. وأنت ما تابعت حديثك معي ذاك اليوم إلا لأنك تلمّست حاجة لك بمؤرخ. لا غرابة في أن تقعا على الشخص نفسه، وخادمك المتواضع، لا يعرف تقريباً شيئاً آخر.

من الضروري التركيز على ما هو جوهري، لابد أنه كان صادقاً معي مثلما كنت معه ومن خلال تبادلنا لما في جعبتنا كوّن كلٌ منّا فكرةً كاملةً عما جرى في بورغ تاباج منذ الرسوّ في ١٩ كانون الثاني ١٩٤٩.

بقي السؤال الجوهري يحوم في حلقةٍ مفرغة. ذكّرته بالمأزق الأساسي الذي وقعت فيه: هل أكشف للويز ومالكولم تاريخهما وأجازف بإضرام حريقٍ جديد أم ألتزمُ الصّمت؟

- سؤالك هذا يطرق باب أجوبةٍ عدّة، أجهل أياً منها سيكون جوابك.

بالطبع أنت تفكّر بالأحفاد. يجبُ أن يعرفوا رابط الدم الذي يجمعهم بتوماس كولبيرت. لن تطول الدهشة وقتاً طويلاً لو علمت كل بورغ تاباج أنه والد بنجامان توبيا. وتجري المطالبة بحق مالكولم ولويز بتلك الثروة الطائلة التي تبعث آمالاً بإنعاش الاقتصاد المحلي اللاهث خلف المستثمرين. ولكن لا يكمن الجوهر هنا. خصوم بنجامان توبيا سيحوّلون فوراً معركتهم السياسية لتصفية حساب موجهة للوالدين البرجوازي الكبير والبحّار العابر الذين هجراه وهكذا تعاد قراءة التزامه ويعاد تقييمهما في ضوء هذه المعطيات كثمرة طفولة بائسة والرغبة بالانتقام لأم تعود أصولها لهذه الجزيرة.

Twitter: @ketab_n

- هذا التفسير مقنع.

- دون شك، ولكن لا يمكن لحركة سياسية أن ترتكز على أسس ضيقة كهذه، سيتزعزع أحد أركان الاستقرار القائم في بورغ تاباج، أما بقية الأحزاب فستعتبر أن جبهة دفاع سكان الجزيرة ليست سوى مغامرة شخصية ودجل. بل الحزب نفسه لن يكون سوى ثمرة حبٍّ بيع لبحّار؟ وكم سيساء له لاحقاً! لا تظن أبداً أن كل أولئك المناضلين سيعتذرون للخديعة التي وقعوا في شركها وأن لوسين اليزابيث ستعيد النظر بخياراتها. بعد صدمة كهذه، تفرض استراتيجية وحيدة نفسها برص الصفوف والتحام الحزب: الراديكالية.

- أتظن أن يظهر العنف مجدداً؟ وبسرعة؟

- ما بين القنبلة الموضوعة تحت سيارة بنجامان توبيا واندلاع الاضطرابات أربعة أشهر فقط، سأحتفظ وستحتفظ بدورك بما يشعل فتيل انفجار مماثل ولنفس المدة.

تردد صدى براهينه في كل التحذيرات التي سمعتها والتي اقتنعت بها مسبقاً.

ما يجري الآن يفوق هامتي بكثير وما سعيت وراء مسؤولياتٍ كهذه، أشعر أنني أسيرٌ في هذا الوضع.

- ذكرت وجود عدة إجابات ممكنة؟

- اختار توماس كولبيرت أيضاً الصمت، بأسلوبه الخاص، وحرم ابنه الذي لم يحمله قط بين ذراعيه والذي بالكاد يتعرف إليه، مع أنه وجده وسمع نبرة صوته وطموحاته ورغباته، إلا أنه ما تحدث عنه لكائنٍ من كان حتى لزوجته. ولم يذكر ما يخصّه في وصيته، إذاً فأنت هكذا تتصرف عكس اختياره؟ تقرر عكس رغبته متسرعاً لتعيد إليه ابنه؟ في حين أن كلاهما واريا الثرى؟

تحدث بنفسٍ واحد وكان عليّ أن أرهف السمع مدركاً أن هذا الحوار يؤلمه كما يؤلمني.

Twitter: @ketab_n

- إلا أنه احتفظ بتلك الأوراق الثلاث في درجه...

- والتي لا نعرف في أي لحظة من عام ١٩٩٦ كتبها. بعد حوارنا الأول، لئلا يخدعنا ذاك المقال المزيف الذي قدّمه لي؟ بعد اتصاله معه حاول نزع ولادته وادعائه الأبوة؟ ثم لاحقاً، غاب كصدى أخير لا تفك رموزه؟

- على كل حال لم يتخلص من تلك الأوراق؟

- هذا الواقع ولكن تقاريري التي أرسلتها إليه؟ والصور؟ نتائج فحص D.N.A والمعلومات التي حصل عليها من مصادر أخرى، إذ أتوقع وجود غير هذه المعلومات.

إذاً كان لابد من وجود ملف أوراق كبير يتعلق ببنجامان توبيا، بيد أنك ما عثرت على شيء. إذاً أتلفها جميعها عدا النص الذي حرّره. يمكنك تخيّل المشهد.. مزّق المقالات التي تخص الاغتيال وحرق صور ابنه...

- ما عدا نصّه.

- لكن نصّه لا يأتي على ذكر بنجامان توبيا. ذكر لقاءه العابر مع إرنستين توبيا، لم أرَ فيه اسم ابنه، وجدته أنت لكنه لم يكن مذكوراً. وهذا الغياب يطول للأبد.

ضحك ضحكة غير متوقعة وقال:

- أتخيل سبباً واحداً تدعم فكرة كشف المستور هو رؤية وجه تلك الأرملة حين تعلم أنها خسرت مئات الملايين من الدولارات.

أساء فهمي. إن هيلين كولبيرت لا تعنيني، أعقبت:

- التزام الصمت يعني حرمان لويز ومالكولم من الميراث.

- نعم، أنا لا أعرفهما ولا أتمنى لهما نصيباً من اختيار والدهما. لابد أن مبلغاً كهذا سيقلب حياتهما. طبعاً بعض المعارك القضائية اللازمة لإثبات حقهما. ترى هل سيسعدان به أكثر؟ هل أولئك اليتيمان الذين فقدا والدهما منذ يوم اغتياله هم بحاجة أكثر للمال؟

Twitter: @ketab_n

يستحيل علي أن أوْت بأي تعليقٍ على سؤالٍ كهذا.

- ثم لو أردنا أن نحكم لهما بحياةٍ أكثر بساطة، علينا أن نوازي قدر شخصين مع مستقبل بورغ تاباج بأكملها.

صمت للحظة ثم تابع:

- كل شيء أفضل هكذا.

دام حوارنا أكثر من ساعتين، نال مني الإعياء. لا مهرب لي سوى بأن أضع قراري بين يديه.

- علينا أن نأخذ قرارنا هذا المساء.

- كلا يا عزيزي، أخذت قراري مع وفاة كولبيرت، دون تردد وللأبد، التزمت الصمت. لا يمكنني إرغامك أن تحاكيني بالتصرّف، كما لا أريد منك أن تكشف المستور وليجري ما يجري، أنت وحدك من ستواجه هذه المسؤولية. أعرف هذه الوحدة بل وأحترمها. يمكنني أن أرسل إليك إشارات كمنارةٍ أو كسفينة أخرى، كما كنت أفعل لتوّي، إلا أن القرار يعود إليك.

أثّر الوضوح الذي يتكلم به في نفسي، فكّر مليّاً بهذه القصة مثلي اليوم. قبلت سلطته، حسبي أنه رائدٌ في هذا الدرب الشاق، إلا أنني بحاجة لفسحة بل لنسماتٍ منعشة.

- هلاّ أذنت لي بإنهاء حديثنا الآن؟ إنني بحاجة.. بحاجة لأقف عند هذه النقطة وأستجمع أفكاري.

- بالطبع، لست مرغماً بالاتصال بي مجدداً، طبعاً سأسرّ باتصالك هذا كل شيء، افعل ما تظن أنّ عليك فعله.

استأذنت وهربت إلى شقتي. تأخر الفجر في شق كبد سماء نيويورك. ذهبت لأتنزه في الشوارع التي تستيقظ رويداً رويداً وهي غارقةٌ بصمتٍ غريب. أفتقد للذهب والمرايا الحزينة في المقهى الكبير وشارع باريس. قدّمت لنفسي فطوراً وفيراً في أحد المطاعم المتواضعة الذي فتح أبوابه للتو، ثرثرت للحظة مع النادل وهو من هاييتي.

Twitter: @ketab_n

(بما أنني ابن إيميل زافار وحفيد النائب جول زافار وابن حفيد ارستيد زافار سأعود إلى لبنان لأول مرة ودون انتظار. سأذهب إلى الجبل إلى تلك القرية الصغيرة التي انحدرت منها كل العائلة والتي يعيش فيها أبناء عمومتي. سأسير طويلاً في الدروب التي تتلوى بين أشجار الزيتون وبيادر القمح الوفيرة. سأتنزه بين الجدران بحجارتها الجافة والريح القوية. سأطلُّ على الوادي المعتم وأجمة الجوز التي تداعب المنازل. أتعلّم لون ظلال أشجار المشمش وخرير النبع وعنف الشمس العمودية، سأتعلم صمت الغرف بمصراعيها المغلقين وعودة رياح المساء وصياح الديك البعيد معلناً بزوغ الفجر. سأعثر على ضريح أجدادي في المدفن وإن محاها الزمان سأخترع وجودها. عندها سأصبح الرجل الأغنى والأكثر تواضعاً للأبد).

علّق النادل على سترته بطاقة كتب عليها اسمه: بنجامان. وضعت يدي على عيني لأمنع نفسي من التفكير وعدت أهيم على وجهي في الشوارع.

كم فخاً تكشف العقود المبرمة في بورغ تاباج أو في خيالاتها!

عدت إلى منزلي كمن استفاق من ثمالته. اتصلت بالكسندر شانر وأخبرته بقراري: التزام الصمت بنجامان توبيا سيبقى إلى الأبد ابن روبرت توبيا.

تابع إعصار ريتا طريقه جنوباً، ضعيفاً متلاشياً مصطدماً بانخفاض جوي آخر، تلاشى أمام برودة المحيط الجنوبي حيث مجرّد مرحلةٍ بسيطة من الطقس السيء مثل غيرها تسبب أمواج عاصفة.

قرأت للمرة الأخيرة الصفحات الثلاث التي حررها توماس كولبيرت لأستأذن منها.

داعبت أناملي برفقٍ القطع الذهبية الغافية في جيبي والتي يبثّ سكونها الحبور في نفسي.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

تبدو الرواية للوهلة الأولى رواية مغامرة ولكن مع أمواج الشك التي تتقاذفنا على شواطئ بلاغة «فرانسوا جارد» سنواجه تساؤلات تدفعنا لإعادة التفكير بالانتماء فهل هو روابط دمٍ تحيكنا مع نسيجٍ هو الوطن ، تضرب فيه جذورنا ليكون السلف والخلف أوتاداً تشبثنا بأرضنا أم هو حاضنٌ اجتماعي وإنساني وحضاري يدفعنا لتجاوز أحقادنا وثأرنا لما هو أكبر من مصالحنا الشخصية نحو الانتماء الإنساني كوعاءٍ حاوٍ للجميع.

هل يشتري المال كل شيء أم أنه يرضخ للمفاهيم الإنسانية ليكون أول خيارٍ نلغيه في مواجهتها. أليس الإرث سبباً في دمار البشرية حسب نظريات «لودويغ فون ستودير» أم أنه ضمانٌ للاستمرار عبر جسر الأبناء: «تصبح رجلاً كاملاً وامرأة كاملة حين ترزق بطفلٍ من صلبك ويبكي بين أحضانك لضمان سلسلةٍ فيها والديك من طرف وأبناؤك من الطرف الآخر.... جعلني فقدان والدي رجلاً على حافة الهاوية»

ليجول في خاطرنا في النهاية قول الكاتب الانكليزي «ألدوس هوكسلي»: تدفعنا الفلسفة للشك بما هو بديهي بينما يجعل الإعلام ما هو غير منطقي قابلاً للتصديق.

المترجمة

9 789933 509910

للدراسات والنشر والتوزيع

نينوى

نيل وفرات.كوم
www.neelwafurat.com